منهج الإمام مالك بن أنس في التعليم والنصح لأولي الأمر في عصره

دكتور
عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي
أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية
كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد ـ عليه أفضل الصلوات وأزكي التسليمات وعلى آله وصحبه ومن اتبع طريقهم بإحسان إلى يوم الدين... **وبعـد**؛؛.

فإن العلم الشرعي هو روح الحضارة الإسلامية، وأجل خصائصها، وأقوى مقوماتها. والباحث المتأمل في حضارة الإسلام سيلحظ- بدون عناء- أن آثار علماء الشريعة بارزة في شتى ميادين الحياة: العلمية والفكرية، والعقدية والاجتماعية، والسياسية... إلخ.

وأثر العلماء الحضاري يظهر في مجالين عظيمين، هما:

١ ـ بناء المجتمع المسلم.

٢ ـ رعاية هذا البناء، وتحصينه.

أما بناء المجتمع، فيتمثل دورهم في تربية الأفراد تربية متكاملة، تشمل العقول والنفوس، والقلوب والأبدان.

ويتمثل أيضا في تربية المجتمع، بربط بعضه ببعض، برباط الأخلاق والعقيدة الإسلامية القويمة.

وبشأن رعاية البناء وتحصينه يتمثل دورهم فيما يلي:

أ ـ تطهير المجتمع من الموبقات والمحرمات.

ب ـ محاربة العناصر التي تسعـى إلى تخريب البلاد والعبـاد؛ فكريًا أو اقتصاديا أو اجتماعيا.....، إلخ.

جـ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

د ـ الجهاد في سبيل الله، وإعلاء راية الدين.

هـ ـ السعي في تحكيم التنزيل الإلهي، على المستويات والأصعدة في الدولة جملة.

إن العلم الشرعي قد حظي باهتمام شديد من علماء الإسلام، لا يقارن باهتمام آخر

في علوم أخرى: كالعلوم اللسانية، أو الفلسفية، أو العقلية، أو التجريبية، وقد فاق علماء الشريعة غيرهم، عددًا ونتاجًا وتأثيرًا في شتى المجالات(١).

إن العلماء الربانيين قادة الأمم، وصناع النهضة الحقيقية، يقودون الناس نحو التقدم بكل صوره، إنهم يرسمون الرؤية السليمة للأحداث والتعامل الصحيح معها، ويستشرفون المستقبل، ويخططون له، بما أوتوا من سعة الأفق، في فهم هذا الدين العظيم، وبما امتازوا به من سعة الصدر في استيعاب الناس، واحتوائهم، وصرف هممهم نحو العلم النافع، والعمل الصالح في كل الميادين.

إنهم ينأوْن بالأمة عن مواطن الهلكة في الأحداث والخطوب الجسام، لذا يحافظون على عواطف الناس وأفكارهم من أن تتبدد في أودية حماس غير منضبط، فيبعدونهم عن ردود الأفعال غير الواعية، والسليمة؛ يثبتونهم في ميادين الصراع، ويحققون بهم ومعهم للإسلام والأمة مجدًا وعزًا.

هؤلاء العلماء يسعوْن بكل طاقاتهم إلى صبغ حياة الناس بالإيمان والتقى والصلاح وينزلون لتربية الناس وتعليمهم، وإيقاظ شعورهم، ونفخ روح الإيمان في كل جنبات المجتمع وإحياء روح الأمل في الأمة، وزرع الثقة في نفوسهم، وإيصال الدعوة الصحيحة إلى مراكز التأثير، من السياسيين والكتَّاب والإعلاميين..، وغيرهم(٢).

إنهم عدول، مجاهدون بالقلم واللسان والفِعال، وصدق فيهم قول الرسول ـ ﷺ ـ: ﴿يحمل هذا العلم من كل خلَف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين﴾(٣).

---

(١) د/ عبد الله بن إبراهيم الطريقي، "علماء الشريعة وبناء الحضارة"، ط/ ١، دار المسلم، الرياض، ١٩٧٧م، مقدمة الكتاب.

(٢) د/ يحيى بن إبراهيم اليحيى، "أثر العلماء في مشروع النهضة الإسلامية"، ط/ ١، مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان، الرياض، ١٤٣٢هـ، ص ١٢ ـ ١٨.

(٣) أخرجه الإمام أبو جعفر الطحاوي،، "مشكل الآثار.."، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط/ ٢، ١٤٢٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ١٠، ص ١٦.

ومن هؤلاء الأئمة الكبار، أصحاب التأثير الكبير، الإمام مالك بن أنس-رضي الله عنه-، إمام دار الهجرة، لذا أحببت أن أدرس هذه الشخصية العظيمة، لإبراز ما تميزت به، ورحلتها العلمية، وكيف كونه وأعده شيوخه، وكيف أعدَّ نفسه، وأعدته أسرته، ومنهجه في تعليم وإعداد طلابه وتمكينهم من دورهم، وأثر تعليمه وتزكيته لهم، وحرصت على إبراز منهجه في العمل السياسي مع الخلفاء والأمراء، عسى أن يستفيد منه الدعاة في واقعنا المعاصر.

كل هذه القضايا، وغيرها، سوف أتناولها -بإذن الله- في دراستي هذه.

وقد قسمتها إلى مقدمة وتمهيد، وأربعة مباحث.

أما المقدمة: فقد بينت فيها أهمية هذه الدراسة، والحاجة إليها، وخطة البحث.

والتمهيد: تناولت فيه نبذة عن سيرة الإمام، من ناحية مولده وأسرته وصفاته البدنية، والخُلقية، ووفاته.

وبشأن المباحث، فقد عنونت المبحث الأول بـ: (طلب الإمام للعلم، وأبرز شيوخه، وأثرهم في إعداده، وثناؤهم عليه -رحمه الله ورحمهم-).

والمبحث الثاني: جعلت عنوانه: (اكتساب الإمام مالك، مؤهلات الإمامة والريادة).

ويتكون من عدة عناصر:

١ -قوة الصلة بالله -تعالى-، وعبادة الإمام الخاشعة.

٢ -إخلاص العمل لله -تعالى-.

٣ -ورع الإمام في إفتائه، وخوفه من الله.

٤ -حسن خلق الإمام مع الناس، وتواضعه

٥ -قرب الإمام من الناس، ومتابعته شئون المجتمع.

٦ -اعتزازه بنفسه وحفظه قدر العلم.

٧ -التمكن من العلم الواسع العميق.

٨ -اجتهاده في تقديم فقه ينظم حياة الناس، ويحقق مصالحهم .

أما المبحث الثالث فكان عنوانه: (منهجه في توريث العلم وإعداد العلماء).

ويتكون من عدة عناصر:

١ ـ إعداد تلاميذ يرثون العلم والفقه، وأبرزهم.

٢ ـ الدعوة إلى التزام السنة النبوية، وحرب البدع.

٤ ـ الحرص على الكلام فيما ينفع، وما ينبني عليه عمل.

٥ ـ البعد عن المراء والجدال الفاسد.

٦ ـ الترحيب بتعدد الآراء، وأهمية ذلك.

٧ ـ ضرورة تكامل الأدوار، والتعاون بين العلماء والمصلحين.

٨ ـ ضرورة الحوار والمناظرات النافعة.

والمبحث الرابع، عنونته بـ: (منهج الإمام في النصح لأولي الأمر في عصره).

ويتكون من عدة عناصر:

١ ـ التلطف في مخاطبة أولي الأمر.

٢ ـ عدم رضاه عن ظلم بعض الخلفاء.

٣ ـ قبول الإمام تولي وظائف في شئون الحكم والإدارة.

٤ ـ رعاية مآلات الأمور.

٥ ـ جهره بالحق ونصحه لأولي الأمر.

٦ ـ التعرض للمحن وتحمل ذلك.

ثم كانت الخاتمة والفهارس والمراجع.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل، ويبارك فيه، وأن ينفع به، في الدنيا والآخرة.

الباحث

عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي

الأستاذ المساعد بقسم الثقافة الإسلامية

بكلية الدعوة الإسلامية ـ القاهرة

التمهيـــــــد

نبـذة عن سيرة الإمام، مولده، وأسرته

ورد حديث عن النبي ـ ﷺ ـ يبشر فيه بظهور عالم من المدينة، يضرب الناس إليه أكباد الإبل طلبًا لعلمه، وهو قوله ـ ﷺ ـ: (يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل، يطلبون العلم، فلا يجدون أحدًا أعلم من عالم المدينة)، وقد روي ـ أيضا ـ بلفظ "آباط الإبل"، كناية عن إسراع المسير، وروي بلفظ (فلا يجدون أعلم من عالم المدينة) و (أفقه من عالم المدينة)، هذا الحديث، قد صححه ابن حبان(١) والحاكم(٢) وغيرهما، وحسنه الترمذي(٣) وقال الإمام الذهبي(٤) عنه: هذا حديث، نظيف الإسناد، غريب المتن(٥).

---

(١) ابن حبان: هو العلامة، المجود، الحافظ، شيخ خراسان، أبو حاتم، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ، التميمي البستي، صاحب التصانيف، ولد عام ٢٦٦هـ، وقيل غير ذلك. شيوخه كثيرون، وتلاميذه كذلك. كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث، والوعظ، ثقة نبيلاً فهمـًا. مات ـ رحمه الله ـ عام ٣٥٤هـ، عن ثمانين عامـًا ـ تقريبـًا. انظر: "سير أعلام النبلاء" لشمس الدين الذهبي،ط دارالحديث، القاهرة، ١٤٧٢ه،ج ١٦، ص ٩٢ ـ ١٠٤.

(٢) الحاكم: هو الإمام الحافظ، الناقد، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن حمدوية، بن نعيم الضبي، يعرف بابن البيّع الطهماني النيسابوري، صاحب التصانيف، ولد عام ٣٢١هـ، سمع من نحو ألفي شيخ، وأخذ عن كثيرين من أهل العلم، وحدث عنه كثيرون من كباء العلماء، وصنف وخرج، وجرح وعدَّل، وصحح وعلل، وكان من بحور العلم، ثقة، ـ رحمه الله ـ. توفى سنة ٤٠٣هـ، بنيسابور. انظر: "طبقات الشافعية"، لابن قاضي شهبة، ط/ ١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج١، واسم المؤلف أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر، ص ١٩٣، و "الأعلام" للزركلي، ط١٥،دارالعلم للملايين،٢٠٠٢،٦/ ٢٢٧.

(٣) الترمذي: هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى، بن الضحاك، وقيل: ابن السكن، الحافظ، الإمام، البارع، الترمذي الضرير مصنف "الجامع"، وكتاب" العلل"، وغير ذلك. ولد في حدود عام ٢١٠هـ ارتحل، فسمع بخراسان والعراق والحرمين، يضرب به المثل في الحفظ والورع والزهد، مات ـ رحمه الله ـ عام ٢٩٧هـ. انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج ١٣، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٤) الإمام الذهبي: هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، أبو عبد الله، شمس الدين، الإمام الحافظ، تركي الأصل، من حفاظ الحديث ورجاله، ومن كبار المؤرخين، له مؤلفات مهمة عديدة، انظر: "البداية والنهاية"، لابن كثير، ط١٤١٩،١ه، دار هجر للطباعة والنشر، مصر،تحقيق دعبدالله التركي.

(٥) أخرجه أحمد، ٢/ ٢٩٩، والترمذي (٢٦٨٠)، وابن حبان (٢٣٠٨)، والحاكم، ١/ ٩١، والبيهقي، ١/ ٣٨٦.

وقد حمل طائفة من أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة[1]، والأوزاعي[2]، وغيرهم؛ الحديث على الإمام مالك، وأنه المقصود ببشارة النبي - ﷺ -.

والإمام مالك خليق بهذه البشارة النبوية، لما تميز به من سيادة وإمامة وعدالة[3].

والحديث يعد معجزة من المعجزات النبوية، حيث أخبر بغيب، ووقع كما أخبر به وقد سجل التاريخ أن الناس كانوا يرحلون إلى مالك، من المشرق والمغرب، طلبًا للعلم والاستفتاء. وقد روي عنه أكثر من ألف وثلاثمائة عالم محدث .

والإمام هو: حجة الأمة، إمام دار الهجرة، المستفيض مذهبه في المغربين والمشرقين، مالك بن أنس، بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن خُثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح الأصبحي، الحميري أبو عبد الله المدني.

عدادهم في بني تيم بن مرة من قريش، حلفاء عثمان بن عبيد الله التيمي، أخي طلحة بن عبيد الله[4]، فالإمام عربي حميري يعربي[5].

---

(١) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، كان مولى لبني عبد الله بن رويبة، من بني هلال، محدث الحرم المكي، كان واسع العلم، ثقة، عظيم القدر، ولد بالكوفة عام ١٠٧هـ، وتوفى عام ١٩٨هـ، انظر: "الأعلام"،للزركلي، ج ٣، ص ١٠٥، و"طبقات ابن سعد"، ج٨، ٥٩، ٦٠.

(٢) الأوزاعي: هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد الشامي الأوزاعي، إمام فقيه، ثقة، عابد، صدوق، كثير الحديث والعلم والفقه ولد عام ٨٨هـ، وتوفى في سنة ١٥٧هـ انظر" "سير أعلام النبلاء"، ٧/ ١٠٩ - ١١٨، و"الأعلام" للزركلي، ج ٣ ص ٣٢٠.

(٣) الحافظ الذهبي، "سير أعلام النبلاء"، ط. مؤسسة الرسالة، تحقيق مجموعة، بإشراف: شعيب الأرناؤوط، ج٨، ص ٥٦ - ٥٨، و"تهذيب الكمال في أسماء الرجال"، ليوسف بن عبدالرحمن المزي،ط١،مؤسسة الرسالة،بيروت،١٤٠٠،ج١، ص ٣٧٧، و"مناقب سيدنا الإمام مالك" للعلامة عيسى الزواوي، ط١،دارالكتب العلمية،بيروت،،١٩٩٤ص ٦٣، ٦٤.

(٤) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو القرشي، صحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، ويقال له: طلحة الجواد، وطلحة الخير، وطلحة الفياض. توفى عام ٣٦هـ، انظر: "الأعلام" للزركلي، ج ٣، ص ٢٢٩، و "الاستيعاب"، ج٢، ص ٧٦٤.

(٥) كتاب "تزيين الممالك، بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للعلامة جلال الدين السيوطي، ومعه "المدونة الكبرى"، للإمام مالك بن أنس، رواية الإمام سحنون"، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م، =

مولـــده: على الأصح ـ كما ذكر الذهبي ـ وُلد سنة ٩٣هـ، بذي المروة قرب المدينة المنورة، في خلافة سليمان بن عبد الملك(١)، عام وفاة الصحابي الجليل، أنس بن مالك، خادم رسول الله ـ ﷺ ـ، وأحد رواة حديثه الشريف(٢).

وكان جده الأول "مالك بن أبي عامر"، من كبار التابعين وعلمائهم، وكنيته أبو أنس وقد روى عن عمر(٣) وطلحة، وعائشة(٤) وأبي هريرة(٥)، وحسان(٦) بن ثابت ـ ﷺ ـ، وكان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان المصحف، وروى عنه بنوه: أنس، والد

= ص ٥، وانظر جمال الدين المزي، "تهذيب الكمال"، ط/ مؤسسة الرسالة، ج٢٧، ص ٩٣.

(١) سليمان بن عبد الملك: ابن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية، الخليفة، أبو أيوب، القرشي، الأموي، بويع بعد أخيه الوليد، سنة ٩٦هـ، كان ديناً فصيحاً، مفوهاً عادلاً، محباً للغزو، كان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عمال الحجاج، واختتم حياته باستخلافه عمر بن عبد العزيز، كانت خلافته سنتين وتسعة أشهر وعشرين يوماً وعاش أربعين سنة، انظر" سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ١١١ ـ ١١٣.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٤٩.

(٣) هو أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نفيل، بن عبد العزي بن رباح..، بن كعب بن لؤي، كان إسلامه حدثاً عظيماً، شهد بدراً وأحداً، والمشاهد كلها، أول خليفة دعي بأمير المؤمنين، كان زاهداً عابداً، قبض شهيداً عن ثلاث وستين عاماً. انظر: "صفة الصفوة"، ج١، ص ١٠١ ـ ١١٠.

(٤) هي أم المؤمنين عائشة، بنت أبي بكر الصديق ـ ﷺ ـ، روت كثيراً من حديث الرسول، وعلمت الصحابة كثيراً من سيرته ـ ﷺ ـ، وسنته، توفيت عام ٥٨هـ، عن ٦٦ سنة، ودفنت بالبقيع ـ رضي الله عنها ـ. انظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، "صفة الصفوة"،تحقيق: أحمد علي، دار الحديث بالقاهرة، ط/ ١، ٢٠٠٠م، ج١، ص ٣١١ ـ ٣٢٢.

(٥) أبو هريرة: الصحابي الجليل، عبد الرحمن بن صخر، واشتهر بكنية أبي هريرة، لازم النبي ـ ﷺ ـ رغبة في العلم دعا له النبي بالبركة في علمه وحفظه، فكان يحفظ كل ما سمع، ولا ينساه. روي عنه أكثر من ثلاثمائة رجل، بين صحابي وتابعي، ولي إمارة المدينة، وبها مات عام ٥٧هـ، على أحد الأقوال، عن ثمان وسبعين سنة، انظر: "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ج١، ص ٤٤، و":صفة الصفوة"، و"سير أعلام النبلاء"، ج٤، ص ٢ ـ ٤٨.

(٦) حسان بن ثابت، بن المنذر، بن حرام، الأنصاري الخزرجي، سيد الشعراء المؤمنين، أبو الوليد، شاعر رسول الله وصاحبه، عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام، توفي سنة ٤٠، وقيل عام ٥٤هـ ـ ﷺ ـ انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٣، ص ٤٤٧ ـ ٤٥٥.

مالك، وأبو سهيل نافع[1]، والربيع.

وكان عمر بن عبد العزيز[2] حين كان واليًا على المدينة يستشير مالك بن أبي عامر، لصلاحه وتقواه وسداد رأيه.

وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان بن عفان ـ ﷺ ـ ليلًا إلى قبره بالبقيع، وغسلوه وكفنوه.

أمـا أبو جده الثاني، فهو "أبو عامر بن عمرو"، فقد كان من صحابة الرسول ـ ﷺ ـ وشهد معه الغزوات كلها إلا بدرًا[3].

وورد في "ترتيب المدارك" أن مالكًا روى عن أبيه عن جده عن عمر، حديث الغسل، واللباس،وقال الضراب[4] وابن أبي حاتم[5] عن أبيه: وقد روى ابن شهاب عنه، ـ أي

---

(١) نافع بن مالك بن أبي عامر، الأصبحي، المدني، الإمام، الفقيه، أبو سهيل، حدث عن ابن عمر وسهل بن سعد وأنس بن مالك، وغيرهم، وروي عنه ابن أخيه مالك بن أنس، وابن شهاب وسليمان بن بلال، وآخرون، وثَّقه أحد بن حنبل وغيره، مات عام ١٣٠هـ ـ تقريبـًا ـ انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٣٣٩.

(٢) هـو عمر بن عبد العزيز بن مروان، أبو حفص، أمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ـ ﷺ ـروى عن كثير من الصحابة والتابعين، توفي عام ١٠١هـ، عن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته لمدة سنتين، وخمسة أشهر، ـ ﷺ ـ، انظر: "صفة الصفوة، ج ١، ص ٣٦٤ ـ ٣٧١.

(٣) انظر: جلال الدين السيوطي، "تزيين الممالك، بمناقب سيدنا الإمام مالك"، مرجع سابق، ص ٦، و القاضي عياض، "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، تحقيق: د/ حمد بكير محمود، ط. مكتبة الحياة، ١٩٨٥م، ج١، ص ٣٩، و الإمام محمد بن سعد، "الطبقات الكبرى"، تحقيق: علي محمد عمر، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط/ ١، ٢٠٠١م،ج٢، ص ٦٤٢، وانظر: "عالم المدينة، مالك بن أنس"، د/ حمزة النشرتي وآخرون، ط المكتبة القيمة، د/ ت، ص ٥١، ٥٢.

(٤) الضراب: هو الإمام المحدث أبو محمد، الحسن بن إسماعيل بن محمد المصري، مصنف كتاب "المروءة"، ولد عام ٣١٣، ومات عام ٣٩٢هـ بمصر، انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج ١٦، ص ٥٤١.

(٥) ابن أبي حاتم: هو الإمام الحافظ، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، الحنظلي، الرازي، المشهور بابن أبي حاتم، ولد عام ٢٤٠هـ كان بحراً في العلوم ومعرفة الرجال، والحديث الصحيح من السقيم، وله تصانيف كثيرة عظيمة في الفقه، والتواريخ واختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار.. إلخ. كان عابداً، تقيـًا، يسر من نظر إليه، توفى عام ٣٢٧هـ، عن بضع وثمانين سنة. انظر: "سير أعلام =

عن أبيه ـ(١).

لقد كان مالك من أسرة عظيمة، من أصحاب العلم وأرباب الفضل، لهم مع العلم صلات، ووشائج، ومع الفضل روابط وأسباب(٢).

إن أصل عائلة الإمام من اليمن، وكان جده يعيش في اليمن، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، وكان في كنف قبيلة بني تيم، أحفاد أبي بكر الصديق(٣) ـ ﷺ ـ، ولذا كان على علاقة وثيقة بعائلة أبي بكر الصديق.

وقد جمع الإمام مالك بين فقه كل من أبي بكر، نتيجة علاقته الوثيقة بقبيلة بني تيم وفقه عمر بن الخطاب، لأنه تتلمذ على يد نافع، مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب(٤) ولذا جمع بين فكر كل من أبي بكر الذي يتسم بالرحمة بالناس والتيسير، وكان النبي ـ ﷺ ـ يقول: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر"، وفكر عمر بن الخطاب الذي يتسم بالبحث عن مصلحة المسلمين(٥).

أما والدته، فهي العالية بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية، و"أزد"، هي

= النبلاء"، ج ١٣، ص ٢٦٣، و"البداية والنهاية"، ج ١١، ص ١٩١.

(١) "تزيين الممالك.."، للسيوطي، و"ترتيب المدارك.."، د ٢، ص ٣٨.

(٢) د/ مصطفى الشكعة، "الأئمة الأربعة، الإمام مالك"، ط/ ٣، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني، عام ١٩٩١م، ص ٣.

(٣) أبو بكر الصديق هو: أفضل الأمة، وخليفة رسول الله ـ ﷺ ـ ومؤنسه في الغار، وصديقه الأكبر، ووزيره الأحزم، عبد الله بن أبي قحافة، عثمان، القرشي، التيمي، إليه المنتهى في التحري في القول وفي القبول، كانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر، وتسعة أيام، وقد دفن في حجرة السيدة عائشة، ورأسه بين كتفي رسول الله ـ ﷺ ـ وفضائله ـ ﷺ ـ كثيرة عديدة، أفردت لها مجلدات، توفى ـ رحمه الله ـ في جمادى الآخرة، سنة ١٣هـ، عن ثلاث وستين سنة، انظر: "وفيات الأعيان"، ج٣، ص ٦٤ ـ ٦٨، وانظر: "تذكرة الحفاظ"، ١/ ٣.

(٤) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، يكنى أبا عبد الرحمن، أسلم بمكة مع أبيه، كان غزير العلم، ورعًا، كثير الرواية عن رسول الله ـ ﷺ ـ توفى بمكة عام ٧٤هـ، عن أربع وثمانين سنة،، انظر: "صفة الصفوة"، ج١، ص ٢١٤ ـ ٢٢٢، و"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ج١، ص ٤٥.

(٥) أ/ عمرو خالد، "دعوة للتعايش"، مرجع سابق، ص ١٠٣، ١٠٤.

من أشهر القبائل العربية الحميرية القحطانية.

فهو من قبيلة عربية مشهورة، عربي الأبوين، لم يجر عليه ولاء ولا رق، وفي ذلك قال أبو سهيل بن مالك: "نحن قوم من ذي أصبح، ليس لأحد علينا عقد ولا عهد"(١).

عمل الإمام في كسب رزقه:

كان الإمام يعمل سراجًا، وذلك لمدة قصيرة، ثم عمل بتجارة البز، مع أخيه النضر فلما طلب العلم، أنفق ما يملك من أجله، حتى نقض سقف بيته، فباع خشبه، هذا كان في أول حياته، مكابدة وتعبًا في سبيل الرزق، وجمع بين طلب العلم والتجارة، في زمن الشباب ثم فتح الله له من خزائن رزقه، فأغناه من فضله جراء تعليمه وإفتائه، وقيامه بمهام يكلفه بها دينه، وأداء مصالح سياسية وعلمية(٢).

وقد كان والده يعمل نبالًا، أي يصنع النِّبال، والنبال آلة من آلات الحرب، وكان المسلمون المجاهدون محتاجين إليها، لأنها من عدتهم في الغزو والقتال، وفي نفس الوقت كان والده مقعدًا، ورغم ذلك كان صاحب علم وحديث، كما سبق!(٣).

أعمامـــه:

للإمام مالك ثلاثة أعمام فضلاء، وهم مع أبيه أنس أربع إخوة، أكبرهم أنس، والد الإمام، والباقون: نافع وأويس والربيع.

وقد رووا ـ الأربعة ـ عن أبيهم مالك، الجد، أما عم الإمام، نافع بن مالك المكنى بأبي سهيل، فقد روى عن ابن عمر، وأنس، وغيرهما، وروى عنه ابن أخيه مالك وابن شهاب

---

(١) السيوطي، جلال الدين، ":تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك"، مرجع سابق، ص ٦، و"ترتيب المدارك.."، ج١ص ٣٦.

(٢) انظر "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص٤٦، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ٤٤، وانظر: د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٣٧، ٣٨.

(٣) د/ مصفى الشكعة، "الأئمة الأربعة، الإمام مالك"، ص ٤، وانظر "عالم المدينة، مالك بن أنس"، مرجع سابق، ص ٥٣.

الزهري، وغيرهم، وقد خرج عنه البخاري كثيرًا[1]، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يستعين به في أمور[2].

وعمه الثاني ـ أويس بن مالك[3]،قد ذكره ابن حبان في الطبقة الثالثة من الثقات.

والعم الثالث، الربيع بن مالك[4]، وكنيته أبو مالك، روى عنه كثيرون، منهم سليمان[5] بن بلال[6].

إخـــوة الإمـــام:

كان له أخ، اسمه النضر، اشتهر بأنه يلازم العلماء ويتلقى عنهم، حتى إن مالكًا لما لازم العلماء كان يعرف بأخي النضر، لشهرة أخيه دونه، فلما ذاع أمر مالك بين شيوخه صار أشهر من أخيه، وصار النضر يُذكر بأنه أخو مالك، وكان النضر يتجر في البز.

وبشأن أخوات الإمام، كان له أخت تسمى: أم أبي بكر الأعشى، وأخت ثانية هي أم إسماعيل، وقد روى إسماعيل عن مالك.

أما أخته الثالثة، فقد كانت تسكن معه في بيته، تهيئ له إفطاره ـ رَحِمَهَا اللَّهُ ـ[7].

---

(١) انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ٢٨٣.

(٢) أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العكبري، ابن بطة، "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية..."، ط. دار الراية الرياض، ط/ ٢، ١٤١٨هـ، ج٤، ص ٢٣٣.

(٣) أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، عم مالك بن أنس، روى عن الزهري، وروى له البخاري، يعد في المدينيين، انظر: ابن حبان، "الثقات"، ج ٦، ص٨٤.

(٤) الربيع بن مالك بن أبي عامر، الأصبحي، عم مالك بن أنس، كنيته أبو مالك، يروي عن المدينيين، وروى عنه أهلها، مات عام ١٦٠هـ، انظر، ابن حبان، "الثقات"، ج٦، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

(٥) سليمان بن بلال، القرشي، التيمي، مولاهم، الإمام، المفتي، المدني، ولد في حدود سنة مائة، كان من أوعية العلم، وحدث عنه كبار علماء ومحدثين، منهم ربيعة الرأي، وعبد الله بن دينار وزيد بن أسلم، وخلق كثير. كان ثقة، عاقلاً، يفتي بالمدينة وولي خراجها. توفى بالمدينة عام ٧٢، أو ٧٧هـ ـ رحمه الله ـ. انظر: "سير أعلام النبلاء"ج١٣، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٤.

(٦) انظر "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٣٨، ٣٩، و"الكامل"، لابن الأثير.

(٧) المرجع السابق "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٣٩، ٤٠، ٤٤، و د/ مصطفى الشكعة "الأئمة الأربعة، الإمام مالك"، ص ٥.

أولاد الإمـــام:

ـ أنجب الإمام مالك أربعة أولاد،هم: يحيى ومحمد وحماد، وبنتًا واحدة،اسمها فاطمة.

أما فاطمة فكانت تحب العلم وتتابع مجالس والدها في البيت، وكانت تجلس خلف الجدار عند بداية الدرس، ويقرأ الطلاب الموطأ على الإمام، وعندما يخطئ أحدهم تخبط فاطمة ثلاث مرات على الباب، مما ينبه الإمام على خطأ الطالب!، وقد زوجها إسماعيل بن أبي أويس.

أما محمد فكان يلهو مع الصبيان طيلة اليوم، عكس ابنته، فلم يجبره الإمام على شيء، وكان يقول: إنما الأدب أدب الله، هذه بنتي، وهذا ابني، لعل الله يصلحه(١) .

وقد أصلح الله حال يحيى بعد وفاة الإمام مالك، وكان لمحمد ابن اسمه أحمد، سمع من جده مالك(٢).

والابن الثاني يحيى قد ذكره ابن حبان في الثقات، وضعفه ابن حزم(٣)، وكان ليحيى ابن سماه محمدًا، وقد روى يحيى عن أبيه مالك نسخة الموطأ، وروى عن محمد بن مسلمة(٤).

والابن الثالث حماد بن مالك، أوصى به وبأخيه محمد إلى إبراهيـم بن حبيب، ـ

---

(١) الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٩.

(٢) العلامة عيسي الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"،ط١،دارالكتب العلمية،بيروت،١٩٩٤، ص ٩.

(٣) هو العلامة الحافظ المجتهد، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، القرطبي الظاهري، صاحب التصانيف، ولد بقرطبة عام ٣٨٤هـ، سمع من علماء كثيرين، وروى عنه كثيرون، كان في غاية الذكاء والحفظ وسعة العلم والمعرفة بالسنن والآثار والأخبار، توفى عام ٤٥٦هـ ـ رحمه الله ورضي عنه ـ، انظر: "تذكرة الحفاظ وذيوله"، للإمام الذهبي، ط. دار الكتب العلمية،بيروت، ١٩٩٨م، ج٣، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩.

(٤) محمد بن مسلمة بن سلمة بن خالد، بن عدي بن مجدعة، الأنصاري الأوسي، شهد بدراً والمشاهد، روي جماعة أحاديثُ، وروي عنه كثيرون، كان عمر إذا شكي إليه عامل نقل محمداً إليهم، ليكشف أمره، وقد شهد فتح مصر، مات ـ رحمه الله ـ سنة ٤٣هـ عن ٧٧ سنة. انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٣، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٨.

رجل ثقة من أصحاب مالك ـ(١).

أثر والديه في مسيرته العلمية:

كان لأمه وأبيه دور كبير في إعداده للعلم والنبوغ فيه، فقد كان مالك منشغلًا ـ في أول طفولته ـ باللعب بالحمام، والغناء، عن العلم والدروس، وقرر أبوه إجراء مسابقة في العلم ـ بعد صلاة جمعة، فتفوق أخوه الصغير عليه، فعقب الوالد على ذلك بتأنيب ابنه مالك قائلًا: "ألهتك الحمائم عن العلم"، فراجع مالك نفسه وغضب لنفسه وتقصيره، وقرر التفوق في الغناء، فنصحته أمه قائلة: يا بُني، إن المغنى إذا كان قبيح الوجه، لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء، واطلب الفقه "، لم تستهزئ به أمه، ونصحته بالتفوق في العلم، والتقدم والتميز فيه(٢).

ويحكي الإمام أثر ذلك في نفسه وحياته، فيقول: فنمتُ ليلتي أفكرّ، فلما استيقظتُ جاءتني أمي، وقالت لي: اشتريت لك ملابس هدية. فإذا بها تأتيني بملابس العلماء"، ويقول: "فوضعتُ قلنسوة (عمامة العلماء)، على رأسي، وخرجتُ أنظر إلى الناس وينظرون إليَّ، فأزداد بهجة".

هذه التهيئة من الأم، والفعل العاقل منها جعل الابن يعود إلى أمه، قائلًا لها: "أريد العلم!"، إن الإمام ظل متذكرًا هذه القصة، حتى بعد بلوغه السبعين من عمره!، ويعترف بفضل الله عليه فيقول: "فبلغ الله بي إلى ما ترى"(٣).

إن الأمة كلها مدينة ـ كما يقول د/ مصطفى الشكعة(٤) ـ لهذه الأم، التي كانت تعرف

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٩، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٣٩، ٤٠، و"دعوة للتعايش"، ص ١٠٤.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٥٤، و د/ أحمد الشرباصي "الأئمة الأربعة"، ط دار الجيل، بيروت، د ت، ص ٧٢٧، و"دعوة للتعايش، ص ١٨.

(٣) د/ مصطفى الشكعة "الأئمة الأربعة، الإمام مالك"، ص ٧، و"دعوة للتعايش"، مرجع سباق، ص ١٠١.

(٤) د/ مصطفى محمد الشكعة: ولد عام ١٩١٧م بمحافظة الغربية، حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة، عام ١٩٥٤م، شغل منصب عميد كلية آداب جامعة عين شمس، وعميد كلية بجامعة الإمارات ودرس في =

العلماء وخصائصهم وميزاتهم، ومدينون لغيرها من الأمهات الفضليات اللاتي أهدين إلى البشرية نجوم هدى، وأئمة علم وتزكية(١).

ـ لقد رزق الله الإمام مالك بأم صالحة واعية، تحسن التأديب والتربية، فعودت فتاها منذ صباها على توقير العلم والعلماء، والتهيؤ لمجالسهم باللباس والزينة، يبين ذلك ما ذكره الإمام عن حوار بينه وبين أمه، حين قال لها: أذهب فأكتب العلم؟، فقالت له: "تعال، فالبس ثياب العلم، ثم اذهب فاكتب".

يقول الإمام: فأخذتني فألبستني ثيابًا مشمَّرة، ووضعت الطويلة(٢) على رأسي، وعمَّمتني فوقها، ثم قالت: "اذهب، فاكتب الآن".

وبوعيها وفقهها نصحته كيف يطلب العلم، وعلام يركز في طلبه، قالت له: "اذهب إلى ربيعة، فتعلمْ من أدبه قبل علمه"(٣) ويعلق مالك على نصيحة وتوجيه أمه العظيمة، فيقول: "فتركتُ المغنين، وتبعتُ الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى"، وهنا درس عظيم في العلم والتدريس، إذ ينبغي الجمع بين الأدب والعلم معًا، فالعلم بدون أدب عواقبه سيئة ضارة، وأخذ مالك بهدي أمه فتوجه لحلقة ربيعة ليبتدئ مسيرته العظيمة!، وقد وجهته أمه إلى مدرسة بني تيم، فدفعته إلى اثنين من مواليهم، فحفظ القرآن على قارئ المدينة الأشهر نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، مولى بني تيم، أما الفقه فقد درسه على يد ربيعة الرأي، ـ كما سنرى ـ.

= عدة جامعات عربية، نال جوائز عديدة، وألف مؤلفات عظيمة نافعة، ويعد أحد أعمدة الفكر الإسلامي، وكان جريئًا في قول الحق، معارضًا للسياسات الجائرة، المحاربة للإسلام والعروبة. توفي ـ ~ ـ عام ٢٠١١م.

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الأئمة الأربعة":، المقدمة،ص ١١،وانظر: "عالم المدينة، مالك بن أنس"، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) الطويلة: هي قلنسوة مفرطة في الطول.

(٣) ابن فرحون، "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، ص١٥، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ٤٦، و"الأئمة الأربعة"، د/ الشرباصي، ص ٧٣.

وقد أفرغ قلبَه وعقله لحفظ حديث الرسول ـ ﷺ ـ وهديه، وأحست أخته بشيء من القلق والخوف على أخيها الصغير من عزلته عن الناس، فأسرعت إلى أبيها، وأخبرته بذلك، فقال الأب: " يا بُنية، إنه يحفظ حديث رسول الله ـ ﷺ ـ "(١).

***

(١) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٤٦.

صفاته الخِلقية، والخُلقيـة

كان ـ ﷺ ـ طويلًا جسيمًا، شديد الجمال، حسن الصورة، أشم الأنف "أي مرتفع أعلاه"، أزرق العينين، واسعهما، عظيم الهامة، أصلع، أبيض الوجه، شديد البياض، يميل إلى الشقرة، يخرج إلى الناس مزينًا مطيبًا بالمسك، وأجود الطيب، ويعتني بلباسه أشد عناية، فلا يُرى إلا بأكمل زينة(١).

ولاشك أن المظهر الجميل إذا رافقه علم نافع، وعقل راجح، كان أكثر تأثيرًا في نفوس الناس، وأدعى للاحترام وأخلق بالهيبة، وحريًا بالحب، يشهد لذلك بشر بن الحارث(٢)، فيقول: "دخلتُ على مالك، فرأيتُ عليه طيلسانًا، يساوي خمسمائة، وقد وقع جناحاه على عينيه، أشبه شيء بالملوك"(٣).

وكان يلبس الثياب العدنية الجِياد، والثياب القادمة من مصر، وخراسان، ويكره حلق الشارب ويعيبه، ويراه من المثلة(٤).

وفي ذلك قال عيسى بن عمر المدني: "ما رأيت بياضًا قط، ولا حمرةً أحسن من وجه مالك، ولا أشد بياض ثوب من مالك"(٥)، وكان يكره خلق الثياب.

---

(١) جلال الدين السيوطي، "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، مرجع سابق، ص ٨، وانظر "طبقات ابن سعد"، ج ٧، ص ٥٧٠. و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٠، وانظر "مالك، تجارب حياة"، أ/ أمين الخولي، ص ٢٠٩.

(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، الإمام العامل العالم، المحدث، الزاهد، أبو نصر، المروزي، ثم البغدادي، المشهور بالحافي، ولد عام ١٥٢هـ أخذ عن مالك وشريك وفضيل بن عياض وابن المبارك، وغيرهم، حدث عنه خلق كثيرون، له كلام حكيم كثير، ومواقف عظيمة في التزكية، والدعوة والوعظ. قال عنه الدارقطني: زاهد، جبل، ثقة، ليس يروي إلا حديثاً صحيحا، توفى عام ٢٢٧هـ. انظر: "صفة الصفوة"، ص ٤٢٥ ـ ٤٣٠.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٠، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ١٢٢.

(٤) "طبقات ابن سعد"، ج٧، ص ٥٧-، و"وفيات الأعيان"، لابن خلكان، ج٤، ص ١٣٨، و"سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٧٠.

(٥) "سير أعلام النبلاء":، ج٨، ص ٦٢.

إن الإمام كان يتمتع برقة المزاج، ورقة الحس، يبدو ذلك في أشياء كثيرة، وأساليب متعددة في ممارسة الحياة...، في مطعمه ومشربه، وأناقة تناوله..، وأثاث بيته.. إلخ(١).

وكانت له كلماته التي تبين دستوره العام الواضح في تناول الحياة، منها قوله: "ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يُرى أثر نعمته عليه، وخصوصًا أهل العلم، ينبغي لهم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم، إجلالًا للعلم..".

ويعد هذه المروءات الظاهرة من الدين نفسه، بل من سمات النبوة نفسها، فقال في ذلك: " نقاء الثوب، وحسن العمة، وإظهار المروءة، جزء من بضع، وأربعين جزءًا من النبوة".

أما في منزله، فكان يضع العديد من البسط، والسجاجيد يمنة ويسرة في البيت لمن يأتيه من الناس، فكان يهتم بأثاث داره ورياشها على أحسن ما تكون في عصره، وكان يكتب على باب منزله من الخارج، عبارة: "ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"، وعندما سئل عن سر كتابة تلك العبارة قال: "أجمل للبيت، وتذكرني بقول الله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ﴿الكهف: ٣٩﴾.

إن مالكًا ـ رحمه الله ـ كان قوي الشعور بحياة البيت، يعده الجنة في غير تجوز ولا مبالغة، إذ فسر الجنة في الآية القرآنية، ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ بأنها البيت، ولذا كان إذا دخل بيته قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ولما سئل عن ذلك أجاب بأن البيت هو الجنة.

وهو شعور كريم بحياة الأسرة،واتجاه نفسي صحيح(٢).

وقد قال ابن أبي أويس(٣): "كان مالك من أحسن الناس خلقًا مع أهله وولده"،

(١) الأستاذ/ أمين الخولي،"مالك، تجارب حياة"، ط/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، في سلسلة "أعلام العرب"، رقم (١)، عام ١٩٦٢م، ص ٢١٦، ص ٢٤٥.

(٢) انظر: "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٥١، و"مناقب سيدنا الإمام مالك:، للزواوي، ص ١٨، و"مالك، تجارب حياة"، ص ٢١٧، ٢١٨.

(٣) هو إسماعيل بن أبي أويس، أمين، صدوق، فقيه، محدث، زوَّجه مالك ابنته، سمع أخاه وأباه ومالكاً، وبه =

ويقول: في ذلك مرضاة لربك، ومثراة في مالك، ومنساة في أجلك، وقد بلغني ذلك عن بعض أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ"(١).

وكان الإمام يمتلك خاتمًا من الفضة، مكتوبًا عليه: [حسبي الله، ونعم الوكيل]، وكان الناس يقولون: كنا ننظر في الخاتم من حلاوة الخط"، وكان له مجلس في صدر بيته.

أما في شأن الطعام، فكان يعطي أهل بيته راتبًا درهمين كل يوم، لشراء اللحم، وكان يحب الفاكهة، خاصة الموز، معللًا ذلك لتواجده طول العام، وفي ذلك قال: "ليس شيء أشبه بثمار الجنة من الموز، لا تطلبه في شتاء ولا صيف إلا وجدته، وقرأ "أكلها دائم"(٢).

هذا السلوك الجميل، والأدب الراقي مع النفس وحقها، يعلمنا أن المظهر الحسن ليس منافيًا للتدين الصحيح، ولا للعلم والإمامة، ولا للعقل والرزانة.

إن الدنيا قد فُتِحت على الناس في عهد الإمام مالك، وكانوا في حاجة إلى من يبين لهم جواز الزينة على هذا النحو، فضلًا عن أن هذا كان مناسبًا لطبعه وجبلته، إذ أنه من أحفاد الملوك، وكان ذا هيبة، تأتي الملوك إلى بساطه، وتجلس بين يديه، كما فعل الخليفة هارون الرشيد(٣)، ويرى الناس فيه جلال العالم، بغير ترفع أو كبرياء!(٤) وفي ذلك قال

= انتفع، وروي عنه قتيبة، والذهبي، وغيرهما. خرَّج له البخاري ومسلم، توفى عام ٢٢٦هـ. انظر" شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٥٦.

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٨.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٤٤، ٤٦، و" دعوة للتعايش" ص ١٠٩، و"سير أعلام النبلاء"، ج ٨ ص ٢٥، و"الطبقات الكبرى، ج٧، ص ٥٧٠ وما بعدها.،

(٣) هارون الرشيد: هو الخليفة أبو جعفر، هارون بن المهدي محمد، بن المنصور أبي جعفر، عبد الله الهاشمي، العباسي، تولى الخلافة عام ١٧٠هـ، بعد الهادي، بعهد معقود له من أبيه المهدي، كان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة، ورأي، ولد عام ١٤٨هـ، ومات عام ١٩٣هـ، ـ رحمه الله ـ، انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠.

(٤) د/ سلمان العودة، "مع الأئمة، الجوامع والفروق والسير"، ط ٢، مؤسسة الإسلام اليوم، السعودية، ١٤٢١هـ، ص ٩٢، ٩٣.

عبد الرحمن بن مهدي[١]: "ما رأيتُ أهيب من مالك، ولا أتم عقلًا، ولا أشد تقوى"[٢].

وعن حب الناس له وهيبته العظيمة قال أحد تلاميذه: "رأيتُ مالكًا منصرفًا من عند المهدي[٣]، ما يمر بأحد إلا قام إليه وذكر الله!"[٤].

وصدق القعنبي[٥] حين قال: "ما أحسب مالكًا بلغ ما بلغ إلا بسريرة كانت بينه وبين الله ـ تعالى ـ، رأيته يقام بيه يديه الرجل، كما يقام بين يدي الأمير"[٦].

وعناية الإمام بملبسه ومظهره العام وطعامه، وحياته في بيته، لا تنافي تواضعه وأظهر في كلامه للناس وتعليمه أن "التواضع في التقي والدين، لا في اللباس"[٧].

إن حياة الإمام أثبتت فساد الرؤية التي ترى أن الكيان العقلي العلمي الجاد لا يتكامل

---

(١) عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري، أبو سعيد، بصري، لازم مالكًا، فأخذ عنه كثير الفقه والحديث، وعلم الرجال، وله معه حكايات، قال عنه ابن حنبل: كان ابن مهدي من معادن الصدق، ورع، ثقة، خرج له البخاري، ومسلم، ـ رحمه الله ـ توفى بالبصرة عام ١٩٨هـ، عن ثلاث وستين سنة، انظر: "ترتيب المدارك"، ج٣، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٩، و"شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٥٨.

(٢) الإمام الذهبي، "تاريخ الإسلام"، تحقيق: د/ عبد السلام تدمير، ط/ دار الكتاب العربي، ج ١١، ص ٣٢٣.

(٣) هو محمد بن عبد الله، المنصور، أبو عبد الله، من خلفاء الدولة العباسية، في العراق، وليها بعد أبيه عام ١٥٨هـ، وأقام في الخلافة عشر سنين وشهراً. كان محمود العهد والسيرة، محببًا إلى الرعية. ولد عام ١٢٧هـ، وتوفى عام ١٦٩هـ، انظر: "الأعلام"، للزركلي، ج٦، ص ٢٢٢، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٣، ص ٤٤٨ـ٤٥٨.

(٤) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٨٣.

(٥) القعنبي: هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسلمة، بن قعنب، التميمي، المدني، كان يسمى الراهب، لعبادته وفضله، إمام، ثبت، ثقة، قال فيه مالك: هو خير أهل الأرض، روى عن مالك الموطأ، ولازمه عشرين سنة، وروى عن كثيرين، منهم الليث والسفيانان وشعبة وغيرهم، وروي عنه وأخذ كثيرون، منهم أبو زرعة وأبو داود..، وخرج له البخاري ومسلم ورويا عنه، مات بمكة، عام ٢٢١هـ، انظر: "شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٥٧، و"ترتيب المدارك، ج٣، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠.

(٦) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٣.

(٧) انظر: د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٣٥، ٣٦.

مع الكيان الفني الذوقي، وأن التقوى والورع لا يكونان إلا مع ذوق مكبوت، وحس مقلوب كئيب، ونظرة تحتقر الجمال، وتكره النعمة، وتعد الضعة تواضعًا، والذل حلمًا... إلخ(١).

إن الزهد عند مالك، أخذ للدنيا باعتدال، دون تخل ولا اعتزال، ومما قاله في ذلك: "الزهد في الدنيا طلب التكسب، وقصر الأمل"(٢).

إن المظهر الجميل إذا رافقه علم نافع، وعقل راجح، كان أكثر تأثيرًا في نفوس الناس وأدعى للاحترام، وحري بالإجلال والتوقير.

إن الإمام كان يعني بطعامه، لتكون له سلامة التفكير، والجلد على طلب العلم، وقوة الاحتمال، والظهور أمام الناس، غير ضعيف ولا متخاذل، ولا متماوت، كما يصنع مدعو الزهد، الذين لم يفهموا لب الإسلام.

إن اهتمام المرء بجمال بيئته، المحيطة به في بيته، والنظر إليها على أنها جنته، له أثر كبير في ارتياحه النفسي، وسكونه في بيته، مما يؤثر على قوة تحصيله للعلم وفهمه له(٣).

(١) "مالك، تجارب حياة"، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) انظر "مالك، تجارب حياة"، المرجع السابق، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٣) انظر: د/ محمد مغرم الشهري، "الفكر التربوي عند الإمام مالك"، بحث له بكلية التربية، جامعة أم القرى، بمكة المكرمة، كمتطلب تكميلي لدرجة ماجستير، عام ١٤٣٣هـ، ص ١٣، ١٤.

مـرض الإمام مالك، ووفاتـــه

مرض الإمام مالك اثنين وعشرين يومًا، ثم جاءته منيته، ولما دخل عليه بعض أحبابه، سائلًا: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟. قال: "ما أدري ما أقول لكم، ألا إنكم ستعاينون غدًا من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب".

ولما مات تشهد ثم قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْـرُ مِن قَبْـلُ وَمِنۢ بَعْـدُ ﴾ (الروم: ٤).

وكانت وفاته يوم الأحد، لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، عن خمس وثمانين سنة، وقيل غير ذلك. ودفن بالبقيع، هذه أشهر الأقوال وأكثرها في وفاة مالك، ورضي عنه ـ(١).

وقد قال يونس بن عبد الأعلى(٢): "سمعت بشر بن بكر(٣) يقول: رأيتُ الأوزاعي(٤) في المنام مع جماعة من العلماء في الجنة، فقلت: وأين مالك بن أنس؟ قيل: رُفع. قلت: بماذا؟ قيل: بصدقه.

وقد رأى كثيرون رؤى عديدة، تتضمن بشارات للإمام مالك بالبراءة من النار، وحب

---

(١) "تنوير الحوالك، على موطأ الإمام مالك"، ج١، ص ١٢، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٣٣ ـ ١٣٥، و"الإمام مالك بن أنس، إمام دارة الهجرة"، ص ٣٨٠، ٣٨١، و"الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج٧، ص ٥٧٥.

(٢) يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصدفي، بن حفص بن حيان، الإمام، المقرئ، الحافظ، أبو موسى، ولد عام ١٧٠هـ، كان من كبار العلماء في زمانه بمصر، حدث عنه ابن عيينة، وابن وهب، والوليد بن مسلم وغيرهم، وروى له مسلم والنسائي وابن ماجه، وابن خزيمة وغيرهم، وكان ثقة، مبجلاً، محبوبـًا، ذا عقل كبير، كما وصفه بذلك الشافعي، توفى عام ٢٦٤هـ، انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج ٢٣، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠.

(٣) بشر بن بكر: الإمام الحجة، أبو عبد الله البجلي، الدمشقي، ثم التنيسي، ولد سنة ١٢٤هـ، حدث عن الأوزاعي وأبي بكر بن أبي مريم الحمصي، وغيرهما، وحدث عنه الشافعي، وابن وهب، وابن عبد الحكم وغيرهم، كان ثقة، متقنـًا، مات بدمياط، عام ٢٠٥هـ ـ رحمه الله ـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٥٠٧.

(٤) الأوزاعي: هو شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام، أبو عمرو، عبد الرحمن بن عمرو بن محمد، الأوزاعي، رابط في بيروت، إلى أن مات، ولد ببعلبك، في حياة الصحابة عام ٨٨هـ، كان خيراً، فاضلاً، كثير العلم والحديث والفقه، حجة، توفى عام ١٥٧هـ، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ١٣، ص ١٢٥ ـ ١٥٥.

رسول الله له، وثناء على علمه، وتبشيره له بالجنة[1].

وقد رأى أسد بن موسى[2] الإمام مالكًا، بعد موته، عليه ثياب خضر، على ناقة، تطير بين السماء والأرض، فقال أسد: يا أبا عبد الله، أليس قدمت؟!.

قال: بلى، قال أسد: إلى ما صرت؟. قال مالك: قدمتُ على ربي فكلمني كفاحًا، قال: سلني أعطيك، وتمنَّ عليَّ أرضيك"[3].

***

(١) انظر الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٧١، ٧٢، و"ترتيب المدارك.."،ج١، ص ١٣٥،١٣٤، ١٣٦.

(٢) أسد بن موسى، ابن إبراهيم بن الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، القرشي الأموي المرواني المصري، أسد السنة، الإمام، الحافظ، ذو التصانيف، أبو سعيد، ولد بالبصرية، وقيل بمصر، عام ١٣٢هـ، لقي الكبار، وجمع وصنف، ثقة، استشهد به البخاري، مات بمصر عام ٢١٢هـ، عن ثمانين سنة ـ رحمه الله ـ انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ١٠، ص ١٦٢، ١٦٤.

(٣) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١٣٠، ١٣١، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

طلب الإمام للعلم، وأبرز شيوخــه.

طلــبه للعلم، وشيوخــه:

طلب العلم، وهو صغير، وتأهل للفتيا قبل بلوغه الثامنة عشرة، وجلس للتعليم وعمره إحدى وعشرون سنة، وحدَّث عنه آنذاك جماعة، وهو في مقتبل شبابه، ورحل إلى مالك الناس من الآفاق، وازدحموا عليه في آخر خلافة أبي جعفر المنصور(١)، حتى آخر عمر الإمام مالك(٢).

إن البيئة الراقية التي تربى فيها الشاب النابه مالك، في المدينة، كانت مؤهِّلة لنبوغه وريادته، فكان طالب العلم في هذه البيئة مقدَّرًا محبوبًا، يشير الناس إليه بالبنان، وإذا أقبل عليهم أطرقوا رؤوسهم، وأخلوْا له الطريق وسلموا عليه وعظموه، لأنه يحمل بين جنبيه هداية رسول الله ـ ﷺ ـ، وعلم الصالحين.

وكانت الظروف والأسباب مهيئةً للتعليم الجيد المتميز، فما كان ثَــم كثير عوائق أو صوارف، تحول دونه، فطالب العلم يجد أبواب المسجد مفتوحة إذا أتى إليه، والفرص متاحة والمجالس قائمة، وفي الأسواق يسأله الناس ويحتكمون إليه في الفقه وشئون دينهم ويحترمونه.

لقد نشأ الإمام في بيئة تشتغل بعلم الأثر، والحديث، إنها بيئة المدينة المنورة، موئل الشريعة ومرجع العلماء، ومهد السنن، وموطن الفتاوى المأثورة، فنمت مواهبه تحت ظلها، وجني من ثمراتها وبركاتها، وبيته كان منشغلًا ومهتمًا بعلم الشريعة، والسنة، وأخبار الصحابة وفتاويهم، فكانت أسرته من الأسر المشهورة بالعلم، وقد تأثر بها بقوة.

وهكذا دفعته الظروف كلها للنبوغ والريادة، فكأن المجتمع يناديه ويخاطبه: تعلَّمْ

---

(١) أبو جعفر المنصور، هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله، بن العباس، بن عبد المطلب، ثاني خلفاء بني العباس وأقواهم، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، حكم ما يقرب من ٢٢ عامًا، حكمًا قويًا، ولد عام ٩٥هـ، توفى عام ١٥٨ بمكة. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٨٨.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٢٨، ص ٥٥.

وافقه، وكن رائدًا، فنحن وراءك، نشد أزرك، ونساعدك، ونؤيدك![1].

وقد تنبأ له أستاذه وشيخه صفوان[2] بن سليم بأنه سيكون ذا شأن عظيم، وقال له: أنت اليوم مويلك، (تصغير مالك)، ولئن بقيت لتكونن مالكًا، فاتق الله يا مالك إذا كنت مالكًا، وإلا فأنت هالك".[3] وقال أبو هرمز لخادمته وقد أخبرته أن مالكًا بالباب: أدخليه، فإن ذلك عالم الناس"[4].

إن الإمام مالك أقبل على العلم في شبابه المبكر، وانقطع إلى شيخه ابن هرمز[5] عبد الله، يزيد بن الأصم، سبع أو ثماني سنين، لم يخلطه بغيره، وكان يقول: "كنتُ أجعل في كمي تمرًا، وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ ـ يقصد ابن هرمز ـ فقولوا: مشغول"[6].

وقد بلغ من حرصه على الانتفاع بعلم أستاذه إطالته الوقوف ببابه، واتخاذه تُبانًا محشوًا للجلوس على بابه، وعندما يسمع أستاذه حركة عند الباب، يأمر جاريته بمعرفة من بالباب، فتخرج لترى من، ثم تقول لسيدها: ما ثَم إلا ذاك الأشقر!، فيقول لها: ادعيه"، فكان يأتي أستاذه من بكرة، فلا يخرج من بيته حتى الليل!!.

ويذكر الإمام ذلك الطلب، فيقول: إن كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة ـ يتعلم منه.

ويقصد الإمام مالك نفسه مع شيخه ابن هرمز، الذي استحلفه ألا يذكر اسمه في حديث!.

---

(١) "مع الأئمة"، د/ سلمان العودة، ص ٩٠، ٩١، ود/ مصطفى الشكعة، "الأئمة الأربعة"، ص ٤.

(٢) صفوان بن سليم: له ترجمة واسعة، ص ٤٧ وما بعدها.

(٣) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٥٣.

(٤) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٦٤، و"ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٥٣.

(٥) ابن هرمز: له ترجمة واسعة، ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٦) أبو نعيم، "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣٢٠، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٨، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ٣٩، ٤٦، ٤٧، و"دعوة للتعايش"، ص ١٠٠، ١٠١.

ومن حرصه الشديد على طلب العلم والرسوخ فيه ملازمته للإمام نافع، مولى عبد الله بن عمر، ـ رضي الله عنهما ـ. وكان مالك يقوده من منزله إلى المسجد، ـ كان قد كُف بصر نافع ـ، فيسأله ويحدثه، وكان الإمام مالك ـ أيضًا ـ يعمد إلى الحيلة، ليلتقي بشيخه نافع، فيذهب إلى منزل نافع البعيد، ويتحمل الوقوف في الشمس لفترات طويلة، حتى إذا ظهر شيخه، تابعه مالك، ثم يتحين الفرصة لسؤاله، والأخذ عنه. وكان يتحمل حدة شيخه!(١).

ويحكي الإمام مالك حرصه هذا، ليتعلم كل متعلم، فيقول: كنتُ أتي نافعًا(٢) نصف النهار، وما يظلني شيء من الشمس، أتحيّن خروجه، فإذا خرج أدعه ساعةً، كأني لم أرده، ثم أتعرَّض له، فأسلم عليه، وأدعه حتى إذا دخل البلاط (في المسجد)، أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟، فيجيبني، ثم أكتب عنه، وكان فيه حدة"(٣).

لقد تبين كيف كان مالك ـ الفتى ـ يفكر طويلًا في كيفية لقاء العلماء، وذلك برسم خطة ذكية، بارعة، بل كان يباشر بعض التكتيك، حين يتعرض للشيخ وكأنه لا يراه، ولا يريده، ثم يتعرض له، ويسلم عليه، ويتركه، وكأنه لا يبغي منه شيئًا، فإذا دخل المسجد واستقر،تحين الفرصة، واقتنصها، فلا يتركها تمر، دون أن يخرج منها بصيد سمين!(٤).

ويحكى عن أيام طلبه العلم وشدة حبه له، فيقول: كنا نزدحم على درج ابن شهاب، حتى يسقط بعضنا على بعض، وكانت عندي صناديق من كتب ذهبت، لو بقيت لكان أحلى إليَّ من أهلي ومالي"(٥).

---

(١) "مع الأئمة"، د/ سلمان العودة، ص ٩٤.

(٢) الإمام نافع، له ترجمة واسعة، ص ٣٦ـ٣٧.

(٣) انظر "طبقات ابن سعد"، ج٧، ص ٥٧١، و"تزيين الممالك..."، ص ٨٠ بتصرف، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ٤٧.

(٤) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك..."، ص ١٣. وانظر تفصيل ذلك في "الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٥٧١.

(٥) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٤٩.

إن منهج مالك كان الملازمة للشيخ وعدم الملل منه، فقد لزم ربيعة الرأي سنين طويلة، وكذلك لزم ابن هرمز سنوات عديدة.

وهذا يبين أن تقلب التلميذ بين الشيوخ بسبب الملالة، وضعف صبره، يفقده بركة الأخذ عنهم، والفهم والتمكن من العلم(١).

وكما لازم مالك شيوخه لازمه تلاميذه، ومما يدل على ذلك قول نافع بن عبد الله، أحد تلاميذ مالك: "جالستُ مالكًا أربعين سنة،أو خمسًا وثلاثين سنة،كل يوم أبكّر وأهجر، وأروح"(٢).

لقد بلغ من حرص الإمام مالك على تحصيل العلم أنه لم يكن يعرف لنفسه يوم راحة، حتى في أيام الأعياد، بل كان ينتظر يوم العيد، لعلمه أن أحدًا لا يزاحمه في ذلك اليوم، فيذهب إلى بيت ابن شهاب الزهري، ليظفر بعلم وهدى!.

ويجلس على باب بيت أستاذه، ويؤذن له في الدخول، ويطلب من شيخه أن يحدثه، فيستجيب له، ويحدثه بأربعين حديثًا، فلما قال له مالك" زدني، قال له: حسبك، إن كنتَ رويْتَ هذه الأحاديث، فأنتَ من الحفاظ، فقال له مالك: قد رويتُها، فجبذ ابن شهاب الزهري الألواح من يده ثم قال لمالك: حدِّث، فحدَّثه بها، فردها إلى مالك، وقال له: قم، فأنتَ من أوعية العلم"، أو قال: إنك لنعم المستودع للعلم"(٣).

لقد اتصف الإمام مالك بصفات عديدة، كانت أساسًا لنبوغه، وريادته، ومن أهم هذه الصفات: صبره وجلده ومثابرته، ومغالبته المعوقات في الوصول إلى الغاية.

ولذا كان في طلبه العلم المجاهد الذي لا يعوقه حر ولا قر، بل يواصل في لافح الحر، وفي قارس البرد، يقينًا منه أن هذه المجاهدة مما يمكن العلم ويثبته في النفس، وما يجئ

(١) "عالم المدينة مالك بن أنس"، مرجع سابق، ص ١١٣، ١١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٤.

(٣) انظر "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٤٨، و"مع الأئمة"، ص ٩٤، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ١٣.

بمشقة يكون نفيسًا، فيحفظ[١]، ولذلك كان يقول: لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر، ويؤثره على كل حاجة".[٢]، وقد أوصى تلامذته باحتمال المشاق في طلب العلم، بقوله وحاله.

وكان يصبر على ما يبدر من حدة الشيوخ، ويتلقاها بصدر رحب، لأن ما يجنيه من علمهم يذهب بغضاضة الحدة ولاذع القول ومرارة اللوم، ولو كان من غير مبرر أحيانًا![٣].

وقد روى البعض عنه أنه قال: "كتبتُ بيدي مائة ألف حديث" .

لقد تحمل الإمام مالك المصاعب والمتاعب الكثيرة في سبيل طلب العلم، لدرجة اضطراره نقض سقف بيته، وبيعه خشبه![٤].

لقد بني الإمام شخصيته العلمية بناءً متينًا فذًا، وناضل في سبيل تكونه الذاتي والعلمي نضال الأبطال المرابطين[٥]

عناية مالك باختيار أساتذته

ـ لقد رسم الإمام مالك لنفسه منهجًا دقيقًا في أخذ العلم من أساتذته وشيوخه، فكان نقادة للرجال، لا يأخذ إلا ممن وثق بهم، وتأكد أنهم أهل لذلك، وله في ذلك أقوال حكيمة، منها قوله: رأيت أيوب السختياني[٦] بمكة حجتين، (مرتين وهو يحج)، فلم

(١) انظر" مالك، حياته وعصره ـ آراءه وفقهه"، ص ٨٠.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، لعيسى الزواوي، ص ٨٦.

(٣) "مالك حياته، وعصره..."، ص ٨٠.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٤٩.

(٥) د/ محمد بن إبراهيم، "فقهاء مناضلون، مواقف تاريخية في العلم والسياسة"، مراجعة وتقديم: مختار الجبالي، ط١، ٢٠١٣م، دار السلام للطباعة والنشر، والتوزيع والترجمة، ص ٨٣.

(٦) أيوب السختياني، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان العنزي، مولاهم، البصري. سمع من سعيد بن جبير والحسن البصري ومجاهد بن جبير وغيرهم، وحدث عنه كثيرون، منهم مالك وحماد بن سلمة، والزهري وقتادة، وسفيان بن عيينة وغيرهم، ولد سنة ٦٨هـ، ثقة، ثبت، كبر العلم، حجة، عدل، مات بالبصرة عام ١٣١هـ، وله ثلاث وستون سنة، ـ رحمه الله ـ انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ١١، ص ١٢ ـ ٢٣.

أكتب عنه، ثم رأيتُه في الحجة الثالثة قاعدًا بفناء زمزم، فكان إذا ذُكر النبي ـ ﷺ ـ يبكي حتى أرحمه، فلما رأيتُ ذلك كتبتُ عنه"(١).

وقد ذكر سفيان بن عيينة أن الإمام مالكًا كان أشد العلماء انتقادًا للرجال، وأعلمهم بشأنهم(٢)،وفي ذلك قال سفيان: "ما رأيت أحدًا أجود أخذًا للعلم من مالك"(٣).

لقد كان ينتقي من يأخذ عنهم العلم والحديث، ووجد كثرة عظيمة من العلماء، ينتقي منها من ينهل من معارفه(٤).

وفي ذلك قال مالك: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركتُ سبعين ممن يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ عند هذه الأساطين، (وأشار إلى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ)، فما أخذتُ عنهم شيئًا، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن.."(٥)، وفي رواية: "وبعضهم لم أحدث بأحاديث عنهم، ولم أترك الحديث عنهم، لأنهم لم يكونوا ثقاة فيما حملوا، إلا أنهم حملوا شيئًا لم يعقلوه"(٦).

ولذا أوصى خالدً بن خداش(٧) لما سأله وصية، قال: "عليك بتقوى الله، وطلب

(١) انظر "القاضي عياض بن موسى"، "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، ج١، ص ٥٠، وانظر "سير أعلام النبلاء"، ج١١، ص ١٥.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٦٩، و"تزيين الممالك..." للسيوطي، ص ٩.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ٥٠، و"الديباج المذهب"، ج١، ص ١٠١.

(٤) "مالك، حياته وعصره...." ص ٩٩.

(٥) السيوطي، "تزيين الممالك..."، ص ٧.

(٦) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٥، و"ترتيب المدارك.."، ج ١، ص ٨٦.

(٧) خالد بن خداش بن عجلان، المهلبي، يكنى أبا الهيثم، من أهل البصرة، مولى آل المهلب بن أبي صفرة الأزدي، سكن بغداد، كان ثقة، صدوقًا، روى عن حماد بن زيد، ومالك بن أنس وغيرهم، وسمع ابن وهب، وروى عنه ابن أبي شيبة وأهل العراق، مات عام ٢٢٤هـ، انظر "الثقات"، لابن حبان، البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، ط١، دار الفكر، عام ١٩٧٥م، وانظر "التاريخ الكبير"، ج ٣، ص ١٤٦.

العلم من عند أهله"(١). ونبه كل طالب إلى تقدير العلم وتعظيمه، فقال: "إن هذا العلم هو لحمك ودمك، وعنه تسأل يوم القيامة، فانظر عمن تأخذ؟"(٢).

وقال ـ أيضًا ـ: "لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ من سواهم، لا يؤخذ من سفيه يعلن السفه وإن كان أروى الناس، ولا يؤخذ من صاحب بدعة، يدعو إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ـ ﷺ ـ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به"(٣).

وفي رواية أخرى قال: "أدركت بهذه البلدة أقوامًا لو استسقى بهم القطر لسقوا، قد سمعوا العلم والحديث كثيرًا، ما حدثت عن أحد منهم شيئًا، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، ولم يتوفر لديهم الإتقان والفهم والدقة للعلم"!.

إنه لا يكتفي بالعدالة والضبط عند الراوي، بل لابد من معرفة حاله وحال من ينقل عنه، وأن يكون مع الراوي "تقي وورع وصيانة، وإتقان وعلم وفهم، فيعلم ما يخرج من رأسه، وما يصل إليه، فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة،فلا يُنتفع به، ولا هو حجة، ولا يؤخذ عنه"(٤).

لقد تعلم الإمام على يد العديد من العلماء الذين يشكلون العديد من المدارس، ويمتلكون عقولًا وأفكارًا عظيمة مختلفة، وهؤلاء كان لهم أثر كبير في شخصيته العقلية والاجتماعية.

(١) المرجع السابق، للزواوي، ص ٨٥.

(٢) الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، "المحدث الفاصل بين الراعي والواعي"، مرجع سابق، ص ٤٤٤.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٨ ص ٦٧، ٦٨ بتصرف كبير، و"الإمام مالك"، د/ الشكعة، ص ٨٩، ٩٠.

(٤) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٤٩، ٥٠ بتصرف.

أبـــرز أساتذتـــــــه

١ ـ الإمام ربيعة، هو الإمام، مفتى المدينة، أبو عثمان، ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، التيمي، القرشي، مولى آل المنكدر، روى عن أنس بن مالك، والسائب بن يزيد(١)، ومجموعة من كبار علماء التابعين،مثل: سعيد بن المسيب(٢) وعطـاء بن يسار(٣) وسالم(٤) بن عبد الله وغيرهم، مات عام ١٣٦هـ بالمدينة، وقد أِند ربيعة عن عدة من الصحابة، منهم أنس بن مالك وسمع منه، وحدث عن سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد ابن أبي بكر وسالم مولى ابن عمر وغيرهم.

وروي عنه من التابعين كثيرون، منهم يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك بن أنس والأوزاعي، وغيرهم(٥).

وقد اختارت والدة مالك هذا العالم، وطالبت مالكًا بتعلم أدبه قبل علمه، لأنه كان مثالًا للعالم المهذب، إذ كان يهتم بمظهره، وطريقة جلوسه، فيتعلم منه الذوق والأدب وحسن الصحبة والكرم، وقد امتدت صحبة مالك لربيعة طول حياته، وكان مالك في آخر حياة أستاذه قد صار رجلًا، ومن ثم اتخذه أستاذه صديقًا، وقد كان مالك يذهب في

---

(١) السائب بن يزيد بن سعيد بن ثمامة الكندي، أبو عبد الله، له ولأبيه نصيب من صحبة ورواية، وحدث عنه كثيرون، مات عام ٩١هـ، وقيل غير ذلك، ـ ﷺ ـ، عن ٨٨ سنة، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٤.

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب، من كبار التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر بن الخطاب، وتوفى عام ٩٣هـ، وقيل عام ٩٤هـ، انظر "تهذيب التهذيب"، ج٤، ص ٧٤ـ٧٧.

(٣) عطاء بن يسار الهلالي، أبو محمد المدني، مولى أم المؤمنين ميمونة، زوج النبي ـ ﷺ ـ، روى عن كثير من الصحابة، وعن كثير من التابعين، ثقة، كثير الحديث، توفى عام ٩٤هـ، وقيل غير ذلك، عن ٨٤ سنة.

(٤) سالم بن عبد الله، بن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ، الإمام، الزاهد، مفتي المدينة، أبو عمر، وأبو عبد الله، مولده في خلافة عثمان، حدث عن أبيه وعن عائشة، وغيرهم، وحدث عنه كثيرون من كبار التابعين، توفى عام ١٠٦هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ٨، ص ١٤ ـ ٢٢، و"تهذيب التهذيب"، ج٣، ص ٣٧٨.

(٥) "حلية الأولياء"، ج٣، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

صحبة ربيعة لزيارة الإمام ابن شهاب الزهري، حيث يستمعان إليه سويًا، وهو يحدث بأحاديث رسول الله -ﷺ-(١).

كان ربيعة الرأي حسن الكلام، بليغ التأثير، بليغًا، أحبه مالك بقوة، وأجله كل الإجلال، لا يتكلم في مجلسه، ولا يبادر بالجواب إذا سئل، وإذا دعاه السلطان لا يذهب إليه إلا بعد أن يستأذنه، وقال في حقه مالك: "ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة، وكان من أوعية العلم"(٢).

وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل، ومما تميز به الإمام ربيعة الرأي أنه كان يقدر ويعظم شأن العلم والدعوة، ويعلم خطورة دوره في توجيه الناس، ويخاف حساب الله له إن قصر، يدل على ذلك رؤية سفيان بن عيينة له قد غطى رأسه، وبكى، فسئل: "ما يبكيك؟. قال: رياء ظاهر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في جحور أمهاتهم، ما أمروهم به ائتمروا، وما نهوهم عنه انتهوا"!(٣).

وقد جادل ربيعة القدرية، وأنكر عليهم بدعهم، ورد عليهم، وقد علَّم وربَّى تلميذه مالك، وكان يتابعه بنصحائه المحذرة له من اتخاذ العلم وسيلة للدنيا وإضلال الناس، ومن ذلك قوله له: "يا مالك، ما أقول لك نفاسةٍ، (أمر نفيس غال)، إنه بلغني أنه سيكون في هذه الأمة أئمة في الدين، يَضلون ويُضلون، فاتق الله أن تكون منهم"(٤).

ومن جميل خصال الإمام ربيعة سخاؤه وكرمه العجيب، فما كان بالمدينة رجل أسخى بما في يديه لصديق، أو لابن صديق، أو لباغٍ يبتغيه منه، وكان يأبى صحبة أحد، إلا أحدًا لا يتزود معه(٥)، (أي يشترط ربيعة أن ينفق هو فقط، ولا يأتي صاحبه بزاد معه!)

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج ٦، ص ٩٢، و"شجرة النور الزكية..."، ج١، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص٩٢، و"دعوة للتعايش"، ص١٠٥، ود/ الشكعة، "الإمام مالك"، ص١٧.

(٣) "حلية الأولياء"، ج٣، ص ٢٦٠، و"سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٩٢.

(٤) "حلية الأولياء"، ج٣، ص ٢٦١.

(٥) "سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٩٢.

وقال عبيد الله بن عمر[1]: (كان ربيعة صاحب معضلات أهل المدينة، ورئيسهم في الفتيا).

أخذ مالك علم ربيعة، وقد كان علم رواية ودراية، ويغلب عليه الدراية، وأخذ علم غيره، كنافع وابن شهاب، وتغلب عليهما الرواية، فجاء علم مالك مزيجًا من الرواية والدراية، بقدر متناسب.

ولذلك لما أخذ الإمام مالك مجلسه، كان الفقيه والمحدث معًا، ومقامه في الأمرين مقام عظيم، محدث حافظ ضابط، وفقيه ثاقب النظر، مستنير في بصيرته، لا يدفع إلى مغالاة في الرأي، ولا ينقبض حول النصوص لا يعدوها[2].

وقد نسب ربيعة إلى الرأي، أي إلى اللب والعقل والسداد، والفطنة، وليس إلى الرأي الفقهي فقط، ويرى الشيخ أبو زهرة أن ربيعة سمي بربيعة الرأي، لأخذه المادة الفقهية من بيئة المدينة، ومن الفقهاء السبعة والتابعين بشكل عام، وربما خالفهم في فتاواهم بوجهات نظر لم يؤثر للفقهاء السابقين نظائر لها، حتى سمي بذلك، لكثرة ما أبدى من آراء فقهية[3].

إن مالكًا قد اقتبس من طريقة تفكير أستاذه ربيعة، بحيث يرى الفاحص الدارس أن آراء ربيعة تعلن عن نفسها في فقه مالك، بل كانت أساس فقه مالك، فربيعة كان يرى وجوب الأخذ برأي أهل المدينة، إذا وجدهم اتفقوا على أمر من الأمور، واعتبر ربيعة

---

(١) عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن الخطاب، العدوي، المدني، أبو عثمان، أحد الفقهاء السبعة، روي عن كثيرين، منهم سالم بن عبد الله، وابنه أبي بكر، ونافع مولاهم، والمقبري وعطاء بن أبي رباح،وغيرهم، وحدث عنه كثيرون، منهم السختياني أيوب، والحمادان والسفيانان وابن المبارك وغيرهم. مات عام ٤٤، أو ٤٥هـ بالمدينة المنورة. انظر "تهذيب التهذيب"، ج ٧، ص ٣٥، ٣٦.

(٢) الشيخ أبو زهرة، "مالك حياته وعصره"، من ص ١٠٠ ـ ١٠٥، والأستاذ/ عبد الغني الدقر، "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م، ص ٦، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٥١، و"الطبقات الكبرى، ج٧، ص ٥١٠، ٥١١.

(٣) الإمام أبو زهرة، "مالك، حياته، عصره..." ص ١١٣، و"الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٥١١.

هذا أقوى من ناحية الأخذ به من حديث الآحاد(١).

ولربيعة في ذلك قول مشهور في حجية وقوة الأخذ بعمل أهل المدينة هو قوله: "ألف عن ألف أحب إليَّ من واحد عن واحد، فإن واحدًا عن واحد ينتزع السنة من أيديكم"(٢).

٢ ـ العلامة ابن هرمز: هو عبد الله بن يزيد، المكنى أبا بكر، توفى بالمدينة عام ١٤٨هـ، أخذ مالك يتعلم منه لمدة ست سنوات، أو تزيد، لا يخلط بمجلسه غيره، وكان بعد ذلك يختلف إليه من وقت آخر، حتى قيل إن اتصاله العلمي به مكث نحوًا من ثلاثين سنة، وقيل: مكث أقل من ذلك.

ويقول مالك عن هذه الملازمة لابن هرمز: "كنت أدخل عند ابن هرمز، فيرخى الستر، ويغلق الباب فأبقى عنده حتى الليل"(٣).

وقد كانت لدى ابن هرمز فراسة قوية، تحققت في الإمام مالك، حين كان يطلب مالك منه العلم وهو صغير، فتوقع منه نبوغًا عظيماً، وقال لجاريته: ادعيه، فذلك عالم الناس"، إنها شهادة عظيمة للصبي الناشئ من أستاذ عظيم، وتفاؤل وإعجاب بتلميذه، وتشجيع له، وهذا درس للعلماء، ينبغي الاتساء به، بالبحث عن النوابغ والرعاية القوية لهم، وتعهدهم ليرثوا العلم والرسالة.

وكان لابن هرمز تأثيره الكبير على مالك، فهو الذي أورثه قول: لا أدري، إذا لم يجد جوابًا في المسألة التي يسئل عنها، وعوده أن يجهر بقول: "لا أحسن"، أو "حتى أنظر"، إذا لم يحسن في أمر من الأمور، وفي ذلك قال الطالب مالك: "كان ابن هرمز رجلًا، كنت أحب أن أقتدي به، وكان قليل الكلام، قليل الفتيا، شديد التحفظ، وكان كثيرًا ما يفتي

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ١٩.

(٢) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ١٣٨.

(٣) "الديباج المذهب..."، ص ٥، و"الطبقات الكبرى، ج٧، ص ٤٢٩ ـ ٤٤٤، ص ٥١٢، ص ٥٧١.

الرجل، ثم يبعث في أثره من يرده إليه، حتى يخبره بغير ما أفتاه"[1] .

ومع هذا التأثير الكبير لابن هرمز على تلميذه مالك، كان التلميذ ينقد ما يسمع إليه، نقد الصيرفي الماهر، والعجيب حب الشيخ لذلك من تلميذه، وحضه عليه، فينتبه الأستاذ إلى الخطأ، ويقر الصواب، لذا خص الشيخ ابن هرمز تلميذيه: مالك، وصاحبه عبد العزيز بن أبي سلمة بكثرة المحادثات العلمية، وعلل ذلك بقوله لمن سأله: لماذا تخص هذين التلميذين بالإجابة عن أسئلتك؟ ولا تجيبنا عن أسئلتنا". فأجاب الشيخ: "إني كبرت سني، وأخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في جسمي، ومالك وعبد العزيز فقيهان عالمان، يسألان عن الشيء فأجيبهما، فما رأياه من حق قبلاه، وما رأيا من خطأ تركاه، أما أنت (السائل ابن دينار) وذووك ما أجبتُكم به قبلتموه"[2].

إنها التربية العلمية العميقة القوية، وقد أخذ مالك عن شيخه تخصصًا تميز فيه شيخه، وهو: الرد القوي على أهل الأهواء، وعلم اختلاف الناس في الفتيا والفقه[3].

وكان قيام ابن هرمز بالرد على أهل الأهواء أثر شعوره الحي بالواجب الاجتماعي، وخشيته من خطر تلك الأهواء والبدع على المجتمع الذي يعيش فيه، ذلك الشعور الحي نقله الأستاذ والشيخ لتلميذه مالك، وعاشه الإمام وكان قدوة فيه لمن بعده، وقد كان لابن هرمز أثره في علم مالك الاعتقادى، وفي منهجه الكلامي[4].

وقد أورثه هذا الرغبة في طلب الحقيقة، من غير تكلف لمراء أو جدل، وقد مات بالمدينة في رمضان عام ١٢٤هـ.

---

(١) أحمد بن علي ثابت الخطيب،"الفقيه والمتفقه"، ط/ ١، دار ابن الجوزي، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، ١٩٩٦مج٢، ص ٣، ٤.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج ٣، ص ٢٠، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٨٠.

(٣) "مناقب الإمام"، للزواوي، ص ٨٧، و"مالك،حياته وعصره،آراءه وفقهه"، مرجع سابق، ص ٣٣ ـ ٣٥، و"دعوة للتعايش"، ص ١٠٥، و"الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٥٣٩.

(٤) "مالك، تجارب حياة"، أ/ أمين الخولي، ص ٩٥ ـ ٩٧.

إن مالكًا تعلم معان قوية من ملازمته لابن هرمز، من دقة وسلامة منهج، وحسن تقدير المسئولية، والأمانة العلمية، وعدم التهجم على الإجابة فيما لا يحسن الشخص معرفته، وكبح النفس عن العجب، وحب الرياسة، إيثارًا للحقيقة(١).

وقد تعلم ـ أيضًا ـ من شيخه ابن هرمز معنىً عظيمًا هو الشعور بالواجب الاجتماعي للعالم، ومسئوليته أمام ضميره، وأمام التاريخ عن الحياة العامة، وعدم سكوته عن خطأ فيها من الحاكم، أو انحراف(٢)، هذا الشعور العظيم كان عميقًا في نفس ابن هرمز، يؤرقه ويؤلمه، حتى يبكيه، وفي ذلك قال مالك (الطالب)،::كنتُ آتي ابن هرمز، فيأمر الجارية، فتغلق الباب، وترخي الستر، ثم يذكر أحوال هذه الأمة، ثم يبكي حتى تخضل لحيته"(٣).

إن بكاء ابن هرمز كان شعورًا إيجابيًا، يدعوه إلى إنكار المنكر على الأفراد والحكام، واحتمال المكروه في سبيل ذلك، وله مواقف تثبت هذا الموقف العظيم.

وقد ابتدأ مرحلة العلم على ابن هرمز، ثم ثنى بالفقيه الكبير ربيعة الرأي وهو ما يزال فتى، وقد قال الزبيري(٤): "رأيت مالكًا في حلقة ربيعة وفي أذنه شَنف"(٥) (قرط).

فجمع في ابتداء أمره بين الحديث عند عبد الرحمن بن هرمز، والفقه والاجتهاد عند ربيعة الرأي.

وقيل: إن أول من تلقى العلم على يديه هو ربيعة، بن أبي عبد الرحمن، وقد دعته أمه إلى التعلم من هديه وخلقه قبل علمه(٦).

---

(١) المرجع السابق، أ/ أمين الخولي، ص ٩٢، ٩٣، ٩٤.

(٢) المرجع السابق، أ/ أمين الخولي، ص ٩٤.

(٣) انظر "عالم المدينة، مالك بن أنس"، مرجع سابق، ص ٨٥. (٥) "مالك تجارب حياة"، ص ٩٥.

(٤) عبد الله بن نافع الأصغر الزبيري، أبوه نافع من أعبد أهل زمانه، الفقيه، صاحب مالك، وقد سمع من مالك، وروى عنه كثيرون، كان صدوقاً ثقة، خرج عنه مسلم. صحب مالك كثيراً، وتوفى عام ٢١٦هـ، عن سبعين سنة. انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٤٣ ـ ١٤٧.

(٥) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٤٧.

(٦) عبد الغني الدقر، "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٤٧.

ويبين د. مصطفى الشكعة أن النهج السليم في تربية الفقيه يتمثل في الانقطاع إلى شيخ أطول مدة ممكنة، ثم لا بأس من أن يختلف إلى غيره، مع الاحتفاظ بالتردد على شيخه الأصيل(١).

وحقًا ما قاله من ثناء ومدح لابن هرمز، "الذي استطاع أن يهدي إلى المسلمين واحدًا من جلة أئمتهم، وخيرة فقهائهم؛ وفرة علم، وصحة هدي، ووضوح فقه، ونقاء مسلك، واستواء فكر، وشموخ شخصية، واستمساكًا بأهداب القيم الرفيعة مع الحكام والمحكومين"(٢).

وكان مالك إذا سئل عن مسألة، وأراد أن يخلع على إجابته ثوبًا من التوثيق قال: "على هذا أدركتُ أهل العلم ببلدنا، والأمر عندنا"، يقصد بأهل العلم في كلمته شيخيه وأستاذيه: ربيعة وابن هرمز"(٣).

٣ ـ **الإمام/ نافع**: هو العلم، المفتي، الثبت، عالم المدينة وفقيهها، أبو عبد الله نافع بن سرجيس القرشي، العدوي، العمري، مولى عبد الله بن عمر، وراويته، يكنى أبا عبد الله، وكان من أهل "أبْزشهر"، في إيران، أصابه عبد الله في غزاته، أُسر في إحدى الحروب بين المسلمين والفرس، ففقهه ابن عمر في الدين، وقد أخذ نافع عنه الحديث، ثم أخذ عن أبي هريرة وعائشة، وأبي سعيد الخدري(٤) وغيرهم، وكان من أعلم التابعين بفتاوى ابن عمر، ومن أدقهم رواية للحديث، وقد أخذ مالك عنه فقه عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله بن عمر، وما أفتى به في المسائل التي عرضت عليه، وسئل عنها، وهو أحد رجال

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ص ٣٧.

(٤) أبو سعيد، سعد بن مالك بن سنان الخدري، المخزومي، الأنصاري، من الرماة المشهورين، من فقهاء الصحابة، ومن أصحاب الشجرة، أخذ عنه أعلام التابعين، توفى بالمدينة عام ٧٤هـ، على أحد الأقوال. انظر "شجرة النور الزكية.."/ مرجع سابق، ص ٤٦، و"سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ١٦٢ـ١٦٦.

السلسلة الذهبية التي قال عنها أبو داوود[١] والبخاري[٢]: إن أصح الأسانيد، هي: مالك عن نافع، عن ابن عمر، وذكر مالك أن نافعًا سافر مع ابن عمر بضعًا وثلاثين حجة وعمرة، وقد مات سنة ١١٧هـ، وقيل سنة ١٢٠هـ[٣].

إن مالكًا كان يتبع نافعًا، فيأتيه في الظهيرة، رغم حر الهجيرة، ينتظر خروجه من بيته، ليسأله عن فتاوى ابن عمر، ويحتمل ما فيه من حدة، ويلاطفه ويداريه،وكان يقول: "إذا قال نافع شيئًا، فاختم عليه"[٤]، أي ثق به، وتأكد من صحته.

وقد كان نافع متواضعًا قليل الكلام، وفي لسانه لكنة وعجمة، لكونه مولى فارسيًا[٥]، ورغم ذلك، قد رفع الإسلام قدره، وسما العلم بشأنه، لدرجة أن يبعث الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز به إلى أهل مصر، لكي يعلمهم السنن[٦]، وروي أن عمر بن عبد العزيز ولى نافعًا صدقات اليمن[٧]، فيا لها من مكانة عظيمة، نالها الإمام

(١) أبو داوود: هو الإمام، شيخ السنة، مقدم الحفاظ، أبو داوود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، الأزدي السجستاني، محدث البصرةن ولد عام ٢٠٢هـ، رحل وجمع وصنف وبرع في هذا الشأن، وكان من كبار الفقهاء، ومن نجباء أصحاب الإمام أحمد، أثنى عليه العلماء الكبار، وفضائله كثيرة، ـ رحمه اللَّه ـ، توفى عام ٢٧٥هـ، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ١٣، ص ٢٠٣ ـ ٢٢١، و"تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج ٢٢، ص ١٩٥ ـ ١٩٨.

(٢) البخاري: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، أبو عبد اللَّه، مصنف الجامع الصحيح، ورع عابد، فضائله كثيرة، شهد له الأكابر حتى قال ابن حنبل: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل. ولد عام ١٩٤هـ وتوفى غرة شوال عام ٢٥٦هـ ـ رحمه اللَّه ورضي عنه ـ. انظر "صفة الصفوة"، لابن الجوزي، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ١٠٥ ـ ١١٢، و"الطبقات الكبرى،، ج٧، ص ٤٢٣، ٤٢٤، انظر "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ٩٧، و"دعوة للتعايش"، ص ١٠٦، و"شجرة النور الزكية...."، ج١، ص ٤٨.

(٤) "تزيين الممالك....."، للسيوطي، ص ٨، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ١٠٨، ١٠٩، و"الديباج المذهب..."، ص ١١٧.

(٥) ابن سعد، "الطبقات الكبرى، ج٧، ص ١٢٣، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٢٤، ٢٥.

(٦) المرجع السابق، لابن سعد، ج٧، ص ٣، ٤.

(٧) "سير أعلام النبلاء"، ج ٩، ص ١١٠.

نافع! وقد أصاب "مالك"، عن "نافع" سنة وفقهًا، وأورد له في الموطأ ثمانين حديثًا أو أكثر.

٤ ـ ابن شهاب الزهري: هو أبو بكر، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، قرشي من بني زهرة، أجداد النبي ـ ﷺ ـ لأمه، لقي بعض الصحابة، وأكثر أخذه عن التابعين، انتهت إليه الرياسة في الحديث في عصره، كان محبوبًا مقدرًا من الخلفاء الأمويين، وولي القضاء لدى يزيد بن عبد الملك، كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: "عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تلقون أحدًا أعلم بالسنة الماضية منه،"وقد أمره عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث والسنة" وقال أحمد بن حنبل عنه: "الزهري أحسن الناس حديثًا، وأجود الناس إسنادًا"، وكان من أسخى الناس، وأكرمهم، كما ذكر مالك، وصفه مالك بأنه "بحر العلم وما له في الناس نظير"، أخذ عنه مالك الفقه وعلم الحديث، حتى صار أعلم الرواة عنه، وأعجب ابن شهاب بحفظه وإتقانه، حتى سماه "وعاء العلم"، وعن فضل ابن شهاب على تلميذه مالك، يقول مالك: "كنا نأتي ابن شهاب في داره،، في بني الريل، وكانت له عتبة حسنة، كنا نجلس عليها نتدافع إذا دخلنا عليه"، ويقول: "كنا نجلس إلى الزهري وإلى محمد بن المنكدر، فيقول الزهري: قال ابن عمر كذا وكذا"، فإذا كان بعد ذلك جلسنا إليه وقلنا له: "الذي ذكرت عن ابن عمر، من حدثك به؟، فيقول: ابن سالم، (مولى بن عمر)"(١).

مات عن ٧٢ سنة، سنة ١٢٣هـ، أو ١٢٤هـ، ويل غير ذلك، ببلدة "شغب"، على حدود الحجاز وفلسطين(٢).

٥ ـ الإمام أبو عبد الله، محمد بن المنكدر، بن عبد الله بن الهدير: هو الإمام الحافظ،

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٤٧، و" عالم المدينة مالك بن أنس"، ص ٨٩، ٩٠، و"شجرة النور الزكية"، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٢) انظر في ذلك، "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٣٩٤ـ ٤٢٥، و"البداية والنهاية"، لابن كثير، ج٩، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٤، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٢٥ ـ ٢٧.

القدوة، القرشي التيمي، المدني، حدث عن كثير من الصحابة والتابعين، مثل: عائشة وأبي هريرة، وابن عباس وابن عمر وجابر، وأنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وعروة، وغيرهم، وحدث عنه كثير من كبار التابعين، منهم الزهري ومالك وجعفر الصادق، وأبو حازم الأعرج ومحمد بن واسع، وشعبة والسفيانان، والأوزاعي، وغيرهم، كان غاية في الإتقان والحفظ والزهد، والتأثير في كل من يتعامل معه، وله مواقف مؤثرة مربية من: خشية الله، وإطعام الطعام، وإكرام التلاميذ، والثقة في الله ورزقه، وله كرامات عديدة، أثبتتها كتب السير والتراجم، مات سنة ١٣٠هـ(١)، وقيل عام ١٣١هـ.

وقد تأثر مالك بشيخه ابن المنكدر، الزاهد، تأثرًا قويًا، عبر عن ذلك مالك فقال: كنت كلما وجدتُ في قلبي قسوةً آتي محمد بن المنكدر، فأنظر إليه نظرة، فأبغض بنفسي أيامًا"(٢). وقد أخذ مالك عن ابن المنكدر علمًا، وروى عنه في موطئه بضعة أحاديث. وكان مالك يكبر شخصية أستاذه الزاهد، البكاء، الذي كان ـ مع ذلك ـ إنسانًا اجتماعيًا بحق(٣)، كما هو إنسان سليم الحس، شديد التأثر، يدل على ذلك إجابته لما سئل: أي العمل أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن. ولما سئل: أي الدنيا أحب إليك؟، أجاب: الإفضال على الإخوان(٤).

إنه ـ ابن المنكدر ـ الإنسان صاحب المشاعر الإنسانية الكريمة، التي تزهد وتبكي، ثم تعد إدخال السرور على المؤمن أفضل الأعمال، إنه التكامل في الشخصية المسلمة، الذي نحتاجه في حياتنا(٥).

---

(١) الإمام الذهبي، "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٤٣٠ ـ ٤٤٠.، و"الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢، و"شجرة النور الزكية..."،للعلامة محمدبن محمد مخلوف،ج١،ط١٤٢٤،١ه، دارالكتب العلمية،بيروت،، ص ٤٧.

(٢) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٩٢، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٣٠.

(٣) "مالك، تجارب حياة"، أ/ أمين الخولي، ص ١١٠، ١١١.

(٤) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٤٣٢.

(٥) أ/ أمين الخولي، "مالك، تجارب حياة"، ص١١٠، ١١١.

ومما ورد عنه في هذا المعنى سيره في جنازة سفيه، واتباعه إياها، فعاتبه البعض في هذا، فرد مبينًا سعة رحمة الله بالناس جميعًا، الصالح والمذنب، وأن للمذنب حقًا على الصالحين؛ الدعاء لهم والاستغفار لهم، وقال: "والله إني لأستحي من الله أن أرى رحمته عجزت عن أحد".

ومن أجمل ما كان يصنع في هذا الأمر بره العجيب بأمه، حيث كان يضع خده على الأرض، ثم يقول لأمه،:" قومي، ضعي قدمك على خدي". وقال مبرزًا أولوية بره بأمه على قيام الليل: بات أخي عمر يصلي، وبت أغمز قدم أمي، وما أحب أن ليلتي بليلته"(١).

وآل المنكدر أصحاب أسهم وافرة في الفقه والحديث، وكانوا من أعيان المدينة، واشتهر منهم كثير، وكان ابن المنكدر غاية في الإتقان والحفظ والزهد، والعلم.

وقال عنه مالك: "كان ابن المنكدر سيد القراء"، وقال عبد العزيز الأويسي(٢): "حدثنا مالك، قال: كان محمد ابن المنكدر لا يكاد يسأله أحد عن حديث إلا كان يبكي"(٣)، وكان له أولاد ثلاثة، كانوا عباد المدينة(٤)، وقال عنه سفيان بن عيينة: "كان من معادن الصدق، يجتمع إليه الصالحون"(٥).

٦ ـ **أبو الزناد، الإمام، الفقيه، الحافظ، المفتي**: يعد من أفضل أساتذة مالك، وهو عبد الله بن ذكوان، من الموالي، مولى رملة بنت شيبة، امرأة عثمان بن عفان، وقيل غير ذلك،

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٤٣٣.

(٢) عبد العزيز الأويسي: هو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى بن عمر بن أويس، أبو القاسم، القرشي، العامري، الأويسي، المديني، سمع الليث ومالك بن أنس وابن أبي الزناد، وروي عنه البخاري. انظر "التاريخ الكبير"، ج٦، ص ١٣، و"الثقات"، لابن حبان، ج٨، ص ٣٩٦، و"فتح الباب في الكنى والألقاب"، لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة. الأصبهاني، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، ط. مكتبة الكوثر، الرياض، عام ١٩٩٦م، ج١، ص ٣١.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٤٣٢، ٤٣٣.

(٤) "الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٤٤٠.

(٥) "شجرة النور الزكية..."، ج١، مرجع سابق، ص ٤٧، و":سير أعلام النبلاء"، ج ٥، ص ٤٤٥ـ٤٤٨.

أصله من همدان، يكنى أبا عبد الرحمن المعروف بأبي الزناد، كان ذا منزلة دينية رفيعة، حتى ولاه الخليفة عمر بن عبد العزيز بيت مال الكوفة، تلقى العلم والرواية عن أنس بن مالك وابن عمر، وأبان بن عثمان وعروة وابن المسيب وغيرهم، قال عنه ابن سعد(١): "كان ثقة، كثير الحديث، فصيحًا، بصيرًا بالعربية، عالمًا، عاقلًا"، وأخذ عنه مالك، الحديث والفقه المأثور عن الصحابة والتابعين، وقال مالك: كانت لأبي الزناد حلقة على حدة في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ(٢)، وقال الليث: "رأيت أبا الزناد، وخلفه ثلاث مائة تابع، من طالب فقه وعلم وشعر وصرف"(٣).

وقد كان سفيان بن عيينة يسمي أبا الزناد أمير المؤمنين في الحديث، وقال البخاري: أصح أسانيد أبي هريرة: أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة، ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ مات في رمضان عام ١٣٠هـ، عن ست وستين سنة(٤)، وقيل غير ذلك.

٧ ـ عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، فاتح القادسية.

كانت من ثقات راويات الحديث، من بني زهرة، تقيم في المدينة، رأت ستًا من أمهات المؤمنين، وأخذ عنها عدد من العلماء(٥).

قال ابن الأشهب لمالك: ألا أدلك على وعاء من أوعية العلم في المدينة"، فرد مالك: نعم، دلني عليه،من؟. قال ابن الأشهب: اذهب إلى عائشة بنت سعد، بن أبي وقاص.

وقد كانت لسعد ـ ﷺ ـ ابنتان، كل منهما تسمى عائشة، كما ذكر ابن حجر في كتابه

---

(١) ابن سعد: هو محمد بن سعد بن منيع، الزهري، مولاهم، أبو عبد الله، مؤرخ، ثقة، ولد في البصرة، وسكن في بغداد وتوفى بها، صحب الواقدي المؤرخ، زمانًا، فكتب له، وروى عنه، وعرف بكاتب الواقدي، أشهر كتبه "طبقات الصحابة"، اثنا عشر جزءاً، توفى عام ٢٣٠هـ، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٦، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) "شجرة النور الزكية..."،ج١، مرجع سابق، ص ٤٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج ٥، ص ٤٤٥ـ٤٤٨.

(٣) "الطبقات الكبرى" لابن سعد، ج٧، ص ٥٩٤، و"تهذيب التهذيب"، لابن حجر، ج٥، ص ١٧٩، ١٨٠.

(٤) "الأعلام"، للزركلي، ج٤، ص ٨٥، ٨٦.

(٥) المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٤٠.

"الإصابة في تمييز الصحابة"، وعائشة الكبرى هي التي أخبر عنها سعد النبي ـ ﷺ ـ حينما مرض بمكة عام الفتح أو في حجة الوداع فقال: "ولا يرثني إلا ابنة لي"، أما الأخرى ـ وهي التي روى عنها مالك ـ فهي تابعية(١)، ماتت عام ٧٧هـ، عن أربع وثمانين سنة(٢).

٨ ـ الإمام جعفر الصادق:

هو رأس آل البيت في المدينة، وعباد تابعي التابعين، الإمام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، غزير العلم، وافر الحكمة، كامل الأدب، زاهد، ورع، بعيد عن الغلو، برئ من التطرف، وقد قال لأصحابه: "من زعم أني إمام معصوم، مفترض الطاعة فأنا منه برئ، ومن زعم أني أبرأ من أبي بكر وعمر فأنا منه برئ"، وله في ذلك أقوال ومواقف كثيرة.

من هذا الإمام انبثق كل علم أهل الشيعة العدول، لا المغالون، وكان دائم الثناء على أبي بكر، وعمر بن الخطاب، ـ رضي الله عنهما ـ وهو حفيد لأبي بكر من ناحيتين: من ناحية أمه، وهي أم فروة بنت القاسم بن بن محمد بن أبي بكر الصديق، وجدته من ناحية أمه هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ولذا كان يقول: "ولدني أبو بكر الصديق مرتين"، ولد سنة ثمانين ورأى بعض الصحابة، حدث عن أبيه وعروة بن الزبير، وعطاء بن أبي رباح، ومحمد بن المنكدر، والزهرة وغيرهم، وحدث عنه كثيرون.

وقد أخذ مالك عن أستاذه جعفر الصادق، وتأثر بطريقته وأخلاقه، وكان يذكره بأحسن ما يذكر طالب شيخه المقتدي به، وفي هذه المعاني قال مالك عن شيخه: "لقد كنتُ أرى جعفر بن محمد، وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذُكر عنده النبي ـ ﷺ ـ اصفر، ولقد اختلفتُ إليه زمانًا، فما كنتُ أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليًا، وإما صامتًا،

(١) انظر "الطبقات الكبرى" لابن سعد، ج٨، ص ٥١٠، و"الإصابة في تمييز الصحابة"،ج٨، ص ٢١، وأحمد بن عبد الله العجلي، "معرفة الثقات"، ط ١، ١٩٨٥م، مكتبة الدار، بالمدينة المنورة، ج٢، ص ٤٥٥، و"تهذيب الكمال"، ليوسف المزي، ج ٣٥، ص ٢٣٦.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٦٩، و"سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٢٥٥، ٢٥٨.

وإما يقرأ القرآن!.

ويكمل الطالب حديثه عن شيخه::وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا على الطهارة،ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله ـ ﷻ ـ وما رأيته قط إلا يخرج الوسادة من تحته، ويجعلها تحتي.." وأخذ يعدد فضائله(١).

وصدق من قال: "ما أعظم هذه الأخلاق التي يُرى فيها الأستاذ مكرمًا تلميذه، ومؤثرًا إياه على نفسه، لأن العلماء كانوا يرون تلاميذهم جزءًا من أنفسهم، وأنهم امتداد لحياتهم، بل حياة لهم بعد موتهم، وبهم يستمر عملهم الصالح، وهم في عالم البرزخ، تحقيقًا للحديث الشريف: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، وولد صالح يدعو له، وصدقة جارية)(٢).

ونعم التلميذ مالك الذي لم ينس فضل شيخه وإمامه جعفر الصادق، الذي آثر تلميذه مالك بمجلسه، وأفاض عليه من علمه، وأشركه فيما أفاء الله عليه من رزقه، وهذا هو حسن المواساة الذي ورثه مالك عن شيخه الصادق، وغيره من الشيوخ الأفاضل الآخرين"(٣).

وللإمام جعفر الصادق، نصائح مهمة لسفيان الثوري، ذكرها الثوري لمالك، هي قوله: يا سفيان، إذا أنعم الله عليكَ بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله ـ تعالى ـ قال في كتابه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ﴿إبراهيم: ٧﴾.

وإذا استبطأت الـرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله ـ تعالى قال في كتابه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟

(١) الإمام عيسى بن محمد الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٦٩، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٢، و"عالم المدينة مالك بن أنس"، ص ٩٢، ٩٣، و"سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٢٥٥ ـ ٢٦٠، و"البداية والنهاية"، ج٩، ص ٣٠٩.

(٢) "موطأ الإمام مالك"، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩١م، ج٢، ص ٣٩٩، تحقيق: د، تقي الدين الندوي، وشرح النووي على مسلم، ج١، ص ٩٠.

(٣) "عالم المدينة مالك بن أنس"، مرجع سابق، ص ١٩٦.

رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ﴿نوح: ١٠ ـ ١٢﴾.

يا سفيان، إذا حزبك أمر من السلطان أو غيره، فأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها مفتاح الفرج، وكنز من كنوز الجنة".

فعقد سفيان بيده، وقال: "ثلاث وأي ثلاث. فعقب الإمام جعفر على قوله بثنائه عليه وقال: عقلها ـ والله ـ أبو عبد الله، ولينفعنه الله بها".

وللإمام مواقف نصح للحكام، وتذكير لهم بحقوق الله وحقوق الرعية، وبطش الله بالظالمين، ومن ذلك لما كان عند المنصور ووقع عليه ذباب فذبه عنه، فقال لجعفر: "لم خلق الله الذباب؟ قال الإمام جعفر: ليذل به الجبابرة!. وكان يحذر العلماء من الركون إلى السلاطين ومداهنتهم، وفي ذلك قال: الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم"(١).

وقد روي مالك عنه الحديث، وبالموطأ عدد من الأحاديث التي رواها عنه، وعاش مالك مسالمًا من الناحية السياسية إلى حد كبير، شأن شيخه جعفر، الذي غادر المدينة المنورة ـ مسكنه ـ، حين خرج ابن عمه محمد بن عبد الله بن الحسن على العباسيين، ولم يعد إلى المدينة إلا بعد انتهاء الثورة، وقد مات ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ عام ١٤٨هـ، عن ثمان وستين سنة(٢).

شيـــوخ آخـــرون:

كان هؤلاء الفقهاء المحدثون الكبار يعتبرون الأكثر تأثيرًا في الإمام مالك، غير أن هناك عددًا آخر من شيوخ مالك ممن أسهم في تكوينه ونضجه، ومن هؤلاء ما يلي:

٩ ـ **الإمام يحيى بن سعيد الأنصاري**، بن قيس بن عمر، الحافظ، شيخ الإسلام، أبو سعيد، الأنصاري، البخاري، المدني، قاضي المدينة في عهد الوليد بن يزيد بن عبد

(١) انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٢٦١ ـ ٢٦٤.

(٢) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٢٨، ٢٩، و"سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٢٦٩.

الملك، ثم قاضي القضاة للمنصور، هو أحد كبار التابعين، من أهل المدينة.

وكان حجة، كثير الحديث، عالمًا ثبتًا، أخذ عن بعض الصحابة، كأنس والسائب بن يزيد، وغيرهم، وعن فقهاء المدينة السبعة، وكان أكثر أخذه عن الفقيه العظيم سعيد بن المسيب، مع أخذه عن أئمة فقهاء عصره، من أمثال الزهري في المدينة، والأوزاعي في الشام، وسفيان الثوري في الكوفة، وسفيان بن عيينة في مكة، وغيرهم، وحدث عنه شعبة ومالك، وابن المبارك، وغيرهم. قال عنه ابن حنبل: يحيى بن سعيد الأنصاري أثبت الناس،. وقال الثوري: كان حافظًا. وقد توفى ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عام ١٤٣هـ، عن بضع وسبعين سنة، بالكوفة(١).

ومن مفاخر يحيى بن سعيد جلوسه إلى تلميذه مالك، النابه، الموفق، يتلقى العلم عنه، ويعد ذلك مفخرةً لمالك التلميذ، حين يصير أحد أساتذته تلميذًا له.

١٠ـ أبو حازم، سلمة بن دينار، المدني المخزومي.

هو الإمام القدوة، الواعظ، شيخ المدينة النبوية، ذو الهم العازم، والخوف اللازم، كان للغوامض فاتقًا، وللعوارض رامقًا، الزاهد، مولى بني ليث، روى عن بعض الصحابة، مثل سهل بن سعد(٢)، وعبد الله بن عمر، وأبي أمامة بن سهل(٣)، وأم الدرداء(٤)، وعن كبار علماء التابعين، مثل: محمد بن المنكدر، وعمارة بن عمرو بن

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ٤٦٨ ـ ٤٧١، و"الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٥١٨، ٥٢٧، و"تذكرة الحفاظ، وذيوله، للإمام الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص ١٠٤.

(٢) سهل بن سعد الساعدي، الأنصاري، المخزومي، أبو العباس، كان اسمه حزنًا، فسماه النبي ـ ﷺ ـ سهلاً، أخذ عنه جماعة، منهم ابنه عباس، وأبو حازم سلمة بن دينار، وابن شهاب الزهري. مات بالمدينة عام ٨٨هـ، وقيل ٩١هـ، وقد جاوز المائة. انظر "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ج١، ص ٤٥.

(٣) أبو أمامة، بن سهل بن حنيف، الأنصاري، الأوسي، المدني، الفقيه، الحجة، كان أحد العلماء، ومن علية الأنصار، حدث عن أبيه وعمر وعثمان وابن عباس وغيرهم، وحدث عنه الزهري وابن المنكدر وأبو الزناد وغيرهم، مات سنة ١٠٠هـ، ـ رحمه الله ـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ١٩.

(٤) أم الدرداء: هما اثنتان، الكبرى، وتسمى خيرة بنت أبي حدرد، لها صحبة ورواية عن النبي ـ ﷺ ـ، وأم الدرداء الصغرى، ولا صحبة لها، وهي هجيمة بنت حيي الوصابية، وهما زوجتان لأبي الدرداء، وأم =

حزم[1]، وروى عنه أئمة كبار، مثل: ابن شهاب الزهري، وسفيان بن عيينة، ومالك، وسفيان الثوري، وعبيد الله بن عمر، وغيرهم.

وله كلام حكيم كثير، ورقائق، ومواقف مؤثرة، في العلم والزهد والدعوة، ومن أقواله: "لا تكون عالمًا حتى يكون فيك ثلاث خصال: لا تبغ على من فوقك، ولا تحقر من دونك، ولا تأخذ على علمك دنيا"، وقال: "كل نعمة لا تقرب من الله ـ ﷻ ـ فهي بلية".

وقال: "لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله، إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد، ولا يعوِّر (يفسد) ما بينه وبين الله إلا عوَّر فيما بينه وبين العباد؛ لمصانعةُ وجه واحد (يقصد وجه الله ورضاه)، أيسر من مصانعة الوجوه كلها، إنك إذا صانعته مالت الوجوه كلها إليك، وإذا استفسدت ما بينك وبينه شنئتك الوجوه كلها"، وقيل له: يا أبا حازم، ما مالك؟ قال: "ثقتي بالله ـ تعالى ـ وإياسي مما في أيدي الناس".

ومن كلامه المفيد: "إذا رأيت ربك يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، وإذا أحببت أخًا في الله، فأقل مخالطته في دينه"، قال عنه ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث[2].

لقد كان ناصحًا للأمراء، ومن ذلك نصيحته لأمير المدينة باختيار مستشارين له من أهل الخير، والصلاح، وإبعاد أهل الشر والفساد، وذلك لما دخل على الأمير وقال له: تكلم. فقال أبو حازم: "انظر الناس ببابك، إن أدنيت أهل الخير ذهب أهل الشر، وإن أدنيت أهل الشر ذهب أهل الخير" .

= الدرداء الصغرى لها مواقف جليلة وحكم كثيرة، سجلها كتاب "صفة الصفوة". انظر "صفة الصفوة"، ص ٨٥٥ـ٧٥٧.

(١) عمارة بن عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان، الأنصاري، البخاري، روى عن عبد الله بن عمرو وأبي بن كعب، وغيرهم، وروى عنه كثيرون، وقد قتل مع ابن الزبير عام ٧٣هـ. انظر "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، د/ ن/ ت. ج ٤٣، ص ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١١، ص ١١٩ ـ ١٢٦، و"شجرة النور الزكية..."، مرجع سابق، ص ٤٨، و"حلية الأولياء، ج٣، ص ٢٣٠، ٢٤٠.

وورد أن بعض الأمراء أرسل إلى أبي حازم فأتاه وعنده علماء، منهم: الزهري، فقال له: تكلم يا أبا حازم، فقال ـ ناصحًا للعلماء والأمراء معًا ـ: "إن خير الأمراء من أحب العلماء، وإن شر العلماء من أحب الأمراء"، ثم بين حال العلماء والأمراء في عهد الصحابة وكبار التابعين، فقال: "كان فيما مضى، إذا بعث الأمراء إلى العلماء، لم يأتوهم، وإذا أعطوهم لم يقبلوا منهم، وإذا سألوهم لم يرخصوا لهم، وكان الأمراء يأتون العلماء في بيوتهم، فيسألونهم، فكان في ذلك صلاح للأمراء، وصلاح للعلماء"، وذكر أنه بعد ذلك تعلَّم العلم أناس، لغير وجه الله، وللدنيا الفاسدة، "فأتوا الأمراء فحدثوهم، فرخصوا لهم، وأعطوهم، فقبلوا منهم، فجرئت الأمراء على العلماء، وجرئت العلماء على الأمراء"(١).

وكان متقللًا من الدنيا، مات سنة ١٤٠هـ، وقيل ١٤٤هـ.

١١ ـ صفوان بن سليم القرشي الزهري المدني.

هو الإمام الثقة، الحافظ، الفقيه، أبو عبد الله، وقيل أبو الحارث، مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف، حدث عن أنس بن مالك وابن عمر، وجابر بن عبد الله(٢)، وعطاء(٣) وطاووس(٤)، وابن المسيب وغيرهم.

---

(١) "حلية الأولياء..."، ج٣، ص ٢٤٥، وترجمته من ص ٢٣٠ ـ ٢٥٠.

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي، صاحب رسول الله، أبو عبد الله، الأنصاري، الخزرجي، المدني، الفقيه، من أهل بيعة الرضوان، كان مفتي المدينة في زمانه، كان آخر من شهد العقبة موتًا، مات سنة ٧٨هـ، عن ٩٤ عامًا، ـ ﷺ ـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ٥، ص ١٨٥ ـ ١٨٩.

(٣) عطاء بن أبي رباح، واسمه أسلم القرشي، يكنى أبا محمد، كان ثقة فقيهاً، عابداً، عالماً كثير الحديث، مفتى الحرم، شيخ الإسلام، ولد عام ٢٧هـ، وتوفى عام ١١٤هـ بمكة عن ٨٨ عاماً. انظر "صفة الصفوة، ج١، ص ٤١٤ ـ ٤١٦، وانظر "تهذيب التهذيب"، ج٧، ص ١٧٩ ـ ١٨٣، و "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٨٦ ـ ٩٠.

(٤) طاووس بن كيسان، أبو عبد الرحمن، كان عابداً علامًا، آية في الورع والزهد والعلم، أكثر روايته عن ابن عباس، وروى عنه كثير من التابعين، توفى ـ رحمه الله ـ بمكة، عام ١٠٦هـ، عن بضع وتسعين سنة. انظر "صفة الصفوة"، ج١، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٥. و "حلية الأولياء"، ج٤، ص ٣ ـ ٢٣.

وحدث عنه كثير من الأعلام، منهم: مالك، والليث[1]، والسفيانان، وغيرهم.

قال عنه ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث، عابدًا، حكيت عنه حكايات كثيرة في قوة عبادته وبكائه![2].

وقال ابن حنبل عنه:من الثقات، يستشفى بحديثه، وينزل القطر من السماء بذكره.

ويحكي مالك عن عبادة أستاذه فيقول: كان صفوان بن سليم يصلي في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقظ بالحر والبرد، حتى يصبح، ثم يقول مالك: هذا الجهد من صفوان، وأنت أعلم، وإنه لترم وجلاه، حتى يعود كالسقط من قيام الليل، ويظهر فيه عروق خضر.

وقال سفيان بن عيينة عنه: حلف صفوان ألا يضع جنبه بالأرض حتى يلقى الله، فمكث على ذلك أكثر من ثلاثين عامًا، فلما حضرته الوفاة واشتد به النزع وهو جالس، قالت له ابنته: يا أبت، لو وضعت جنبك!.

فقال لها: بُنية، إذًا ما وفيتُ لله بالنذر والحلف!، فمات وهو جالس.

مات سنة ١٣٢هـ، بالمدينة المنورة، عن اثنتين وسبعين سنة[3].

وقد كان أبرز أساتذة مالك من الموالي، ربيعة الرأي كان مولى لآل المنكدر[4]. وابن هرمز كان مولى للسدوسيين، ولم يكن عربيًا صليبةً، وكان أعرج وأصم!، وهذا لا يعيبه، ولا ينقص قدره.

وكذا كان نافع الديلمي، مولىً لعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وكان أستاذه صفوان بن

---

(١) هو الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، أبو الحارث، إمام أهل مصر في عصره، حديثًا، وفقهًا، ولد عام ٩٤هـ، وتوفى عام ١٧٥هـ، انظر "حلية الأولياء"، ج٧، ص ٣١٨ ـ ٣٩١. وانظر "تهذيب التهذيب"، ج٨، ص ٤١٢ ـ ٤١٧.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، المرجع السابق، ج٩، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٨.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٤٤٨ ـ ٤٥١، و"الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٥١١.

(٤) "سير أعلام النبلاء" ١١/ ١٠٩ وما بعدها، "سير أعلام النبلاء، ٩/ ٤٤٦، و"الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٢٢٣.

سلمي، مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف.

هذه الظاهرة العظيمة، حدثت تطبيقًا لمبدأ أساسي من مبادئ الإسلام، الذي سوى بين الناس جميعًا، وجعلهم كأسنان المشط، لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل المخلص لله!.

إننا وجدنا مالكًا العربي، الأزدي، يقضى معظم حياته العلمية، ملازمًا لهؤلاء العلماء، الموالي، يقف على بابهم، ويتحين الفرص للقائهم، يسمع منهم الفقه، ويأخذ عنهم الأدب، والخلق، ويتلقى عنهم الرواية(١).

إن شيوخ مالك يمثلون أنماطًا بشرية مختلفة، فمنهم عالم الأثر، ومنهم عالم الرأي، ومنهم من جمع بين فقه السنة والرأي جميعًا، ومنهم الزاهد في الدنيا، البكاء تقى ورهبةً.

وإن دارسًا مجدًا ذكيًا، ذا عقل ومثابرة، ودين، هؤلاء أساتذته وشيوخه، مؤهل بقوة لكي يصبح فقيهًا كبيرًا، ومحدثًا ثبتًا، وإمامًا عظيمًا.

وقد أخذ الإمام مالك عن تسعمائة شيخ، بل أكثر من ألف، منهم ثلاثمائة من التابعين،وستمائة من تابعيهم،ممن ارتضى دينه وفقهه، وقيامه بحق الرواية وشروطها(٢).

وبين الإمام الذهبي بعض شيوخ مالك، منهم: وهب بن كيسان(٣)، وأيوب السختياني، وابن المنكدر، وعامر بن(٤) عبد الله بن الزبير، ويحيى بن سعيد، والزهري،

(١) انظر: د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ١٧، ٢٠، ٢٤، و"سير أعلام النبلاء"، ج١!، ص ١٠٩ وما بعدها، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٤٤٦، و"الطبقات الكرى"، ج٧، ص ٤٢٣.

(٢) انظر: الإمام النووي، "تهذيب الأسماء واللغات"، ط. دار الكتب العلمية، ج٢، ص ٧٨، "وتنوير الحوالك"، للسيوطي، ج١، ص ٥، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٧، ٨.

(٣) وهب بن كيسان، أبو نعيم، الأسدي، الفقيه، المدني، من موالي آل الزبير بن العوام، رأى أبا هريرة، وحدث عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وجابر، وعمر بن أبي سلمة، روى عنه مالك وابن إسحاق وعبيد الله بن عمر وآخرون، كان ثقة، مات عام ١٢٧هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٢٦١، و"شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٤٨.

(٤) عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام، الأسدي، الإمام الرباني، أبو الحارث، المدني، أحد العباد، أسند عن =

وسعيد المقبري[1]، وعبد الله بن دينار[2]، وزيد بن أسلم[3]، وصفوان بن سليم، وخلق سواهم من علماء المدينة وغيرها[4].

إن مالك بن أنس وهو موصول الأسباب بعلم رسول الله ـ ﷺ ـ عن طريق هذه السلسلة المباركة الصادقة الآخذة والمتعلمة من صحابة رسول الله، مع صدقه، وإقباله على حديث رسول الله ـ ﷺ ـ جدير بأن يرشح للإمامة في مستهل حياته، وأن يصبح لها أهلًا في هرمه وبعد وفاته[5].

وكان مقام الإمام بالمدينة قد أغناه عن الرحلة في طلب العلم إلى غيرها، فجل العلماء كانوا يزورون المدينة، ويجيئون حجيجًا، ومعتمرين، فيلتقي بهم مالك في الحج وعند زيارة المدينة، ويتلقى العلم والهدي عنهم، فيتعرف أعراف الناس المختلفة، ويتذاكر معهم في الأقضية والفتاوى، وينقل عنهم ما سمع إن كانوا لذلك أهلًا، وممن

= أبيه وغيره من الصحابة، وحدث عن خلق كثير من التابعينن له مواقف تربوية كثيرة، في التصدق، والعمل الصالح، توفى عام ١٢٤هـ. انظر "صفة الصفوة"، ص ٣٤١، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٢٥٣.

(١) سعيد المقبري: بن أبي سعيد، كيسان، أبو سعد، مولى بني جندع، المدني، الإمام، المتفق على توثيقه، أخذ عن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص وأم سلمة، وابن عمر، وأبي شريح الخزاعي، وغيرهم، توفى عام ١٢٣هـ، على أحد القولين، انظر "شجرة النور الزكية..."، مرجع سابق، ص ٤٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

(٢) أبو عبد الرحمن، عبد الله بن دينار، العدوي، المدني، مولى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ الإمام، الثقة، التابعي الجليل، روى عن مولاه ابن عمر وأنس وغيرهما، وروى عنه أئمة، منهم: الثوري، وابن عيينة، ومالك وشعبة، مات ـ رحمه الله ـ سنة ١٢٧هـ. انظر "شجرة النور الزكية..."، ج١، مرجع سابق، ص ٤٨، و" سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٣٠٠.

(٣) زيد بن أسلم، أبو عبد الله العدوي، العمري، الإمام الحجة، القدوة، الفقيه، المدني، مولى عمر بن الخطاب، حدث عن صحابة كثيرين، وكبار من التابعين، وحدث عنه مالك بن أنس وسفيان الثوري، وابن عيينة، والأوزاعي وغيرهم، كان مؤثراً مربياً، من العلماء العاملين، مات عام ١٢٦هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٣٨١، ٣٨٢، و"شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٤٨.

(٤) الذهبي، "تاريخ الإسلام"، ج١١، ص ٣١٨، ٣١٩ بتصرف.

(٥) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٨٨، ٨٩.

لقيهم بالمدينة: أبو حنيفة والليث بن سعد، والأوزاعي، وأبو يوسف(١)، ومحمد(٢) وغيرهم.

وقد كان أثر مدرسة فقهاء المدينة من التابعين في مالك، عظيمًا وعميقًا، لمبلغ ثقته فيهم وسعة علمهم، وخاصة سعيد بن المسيب الذي قال عن نفسه: "ما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ ولا أبو بكر، ولا عمر ولا عثمان، ولا عليّ ـ رضي الله عنهم ـ قضاء، إلا قد علمتُه" .

وقد كان سعيد بن المسيب عميق النظر، واسع العلم في قضايا التعامل والبيوع بوجه خاص، لذلك كان فقه مالك في البيوع وما شاكلها ـ تبعًا لفقه سعيد ـ أعمق وأوسع، بشهادة ابن تيمية القال قال: "أصول مالك في البيوع أجود من أصول غيره، لأنه أخذ ذلك من سعيد ابن المسيب الذي كان قال: هو أفقه الناس في البيوع"(٣).

إن الإمام لم يقف علمه عند ذلك، بل نماه ونقحه، باتصاله المستمر بعلماء عصره في موسم الحج، وفي رحلتهم إلى المدينة، وبمجالسته المستمرة لعلمائها، وبكتبه وجهده ومراسلاته للعلماء ومكاتبته لهم(٤).

لقد ظل الإمام مالك يطلب العلم للعمل به، ويأخذه من كل أحد، حتى من بعض طلابه، فقد أخذ منهم مسائل، ورجع عن مذهبه لقولهم.

مثال ذلك، رجوعه إلى قول طالبه عبد الله بن وهب، في مسألة تخليل الأصابع في الوضوء، إذ عندما سئل الإمام مالك عن تخليل أصابه الرجلين في الوضوء، قال: ليس

---

(١) أبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب القاضي الإمام، هو المقدم لدى أبي حنيفة من أصحابه جميعاً، توفى عام ١٨١هـ، وقيل ١٨٢هـ. انظر "الجواهر المضيئة في طبقات الحنيفة"، لمحيي الدين عبد القادر محمد القرشي، ط. هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ، ج٣، ص ٦١١ ـ ٦١٣.

(٢) محمد بن الحسن بن فرقد، إمام في الفقه والأصول، ثاني أصحاب أبي حنيفة بعد أبي يوسف، من المجتهدين الكبار،توفى بالري، عام ١٨٧هـ، انظر "الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية"، ج٣، ص ١٢٢ ـ ١٢٧، و"البداية والنهاية، ج١٠، ص ٢٠٢.

(٣) انظر: " مجموع الفتاوى"، ج٢٠، ص ٢٩٦.

(٤) "مالك، حياته وعصره، آراؤه وفقهه"، ص ١٠٦، ١٠٨، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٨.

ذلك عند الناس.

فتركه ابن وهب حتى خف الناس وقاله له: عندنا في ذلك سنَّة، فقال: وما هي فأخبره ابن وهب حديثًا عن المستورد[1] بن شداد القرشي قال فيه: رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يدلك بخِنصره ما بين أصابع رجليه.

فرد الإمام مالك ردًا حكيمًا معلمًا: "إن هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلا الساعة"، ويحكي ابن وهب عن حال الإمام بعد، فيذكر أنه لما كان يسأل يأمر بتخليل الأصابع، استجابة للحديث الذي ذكره له تلميذه ابن وهب[2].

إنه الانصياع للحق والاهتداء بالعلم، وسرعة الأخذ به دون استنكاف، وهذا ديدن مالك، وإخوانه الفحول الكبار، الذين يعشقون ويلتذون بالعلم الجديد، فيضيفونه إلى علمهم، ولا يتكبرون عن طلبه، والاعتراف بجهلهم[3] وقد وجه الإمام طلبته لذلك.

هذا الأدب والرجوع للحق، قد تعلمه الإمام من أساتذة له، عملوا بهذا الخلق، وهذا نموذج لما حدث، حيث جلس ابن شهاب وربيعة ومالك يتدارسون العلم، فألقى ابن شهاب مسألة، فأجاب ربيعة، وصمت مالك، فسأله بن شهاب: لم لا تجيب؟، فقال مالك في أدب: أجاب الأستاذ. فقال ابن شهاب: لا نفترق حتى تجيب. فأجاب الإمام مالك بجواب يخالف جواب أستاذه ربيعة، فقال ابن شهاب، ـ إعجابًا برأي مالك ـ: "ارجعوا بنا إلى قول مالك"[4].

إن مالكًا جلس للفتيا، وعقد لنفسه حلقة مقاربة لحلقة أستاذه ربيعة، فكان لكل منهما ـ الشيخ وتلميذه ـ، حلقته الخاصة به.

ومن السمات البارزة في حياة مالك العلمية أنه واحد من العلماء القلائل الذين

(١) المستورد بن شداد القرشي، ابن عمرو بن الأحب بن حبيب، بن عمرو بن شيبان، انظر "طبقات ابن سعد"، ج٦، ص ٥٤٢.

(٢) انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٩، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٤.

(٣) د/ سلمان العودة، "مع الأئمة"، ص ١١٠، ١١١.

(٤) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٦٦.

صاروا أساتذة لمن كانوا يجلسون إليهم بالأمس.

منهم ابن شهاب الزهري الذي أصبح أحد المختلفين إلى حلقة تلميذه، لينتفع بوافر علمه. ويحيى بن سعيد الأنصاري كان أستاذًا لمالك، وأحد شيوخه، ثم ذُكر مالك ـ بعد ذلك ـ من شيوخ يحيى(١)!(٢).

وقد روت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنًا، كالليث عالم أهل مصر والمغرب، وكالأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم، وهو المقدم بالكوفة، وشعبة عالم أهل البصرة(٣).

أثر أساتذتـــه في إعـداده

تم إعداد الإمام من شيوخه وأساتذته علميًا وتربويًا قبل تصدره للتدريس، والإفتاء، ومن دلائل ذلك سؤال شيخه ربيعة له: من السفلة يا مالك؟

قال مالك: الذي يأكل بدينه. قال ربيعة: فمن سفلة السفلة؟. قال مالك: الذي يأكل غيره بدينه!. وكان رد ربيعة، الإعجاب والتقدير وتقديم تلميذه، فقال: زَهْ!. (إعجابًا وحبًا)، ويعلق مالك على ذلك: وصَدَّرني!(٤).

وكان لأحد شيوخه الكبار موقف معه، يبين حبه لتلميذه، وإعلاء قدره، مع أخوة وحنان، وإشراك في العلم، والنصح، يتلخص الموقف في رؤيا رآها صفوان بن سُليم، العالم الكبير، فطلب من تلميذه مالك ـ وكان صغير السن ـ، تأويلها له، فقال له مالك: ومثلُك يسأل مثلي؟. فقال له: وما عليك يا ابن أخي.، رأيتُ كأني أنظر في مرآة!، فقال له

(١) يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي، أبو سعيد، من أقران مالك وشعبة، من أهل البصرة، من حفاظ الحديث الكبار، توفى عام ١٩٨هـ، انظر "الأعلام"، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ج٨، ص١٤٧.

(٢) العلامة الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٩.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦١.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٥٤، و"تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، مرجع سابق، ص٥٥.

(مالك): أنت تنظر في أمر آخرتك، وما يقربك إلى ربك.

فسر الشيخ المعلم صفوان، بتعبير الرؤيا من تلميذه، وأخبره بعلو شأنه في المستقبل، وأوصاه تقوى الله إن علا أمره، وأخذ يخاطبه بـ "يا أبا عبد الله"، كنية له، تقديرًا له وإعظامًا.

ويعلق مالك على ذلك بقوله: وكان (شيخه صفوان) قبلُ يدعوني مويلكًا، فلما سألني قال: يا أبا عبد الله وهو أول يوم كناني فيه!!(١).

لقد رأى من أساتذته وشيوخه من مواقف العزة والإباء، والقوة ما أكسبه الجرأة والشجاعة في الحق، ومن هذه المواقف ما حدث من جعفر الصادق ـ ﷺ ـ حين أحرق الرسالة التي أرسلها إليه أبو مسلم الخراساني(٢)، ليعرض عليه البيعة بالخلافة، أمام الرسول الذي أتى بها، وقال جعفر للرسول: أبلغه ما رأيت!.

رأى مالك ذلك، فأعجب به، وفقهه وتعلمه!(٣).

إن الإمام لم يكن بعزلة عن آراء أئمة عصره وعلمائه، مكتفيًا بعلمه وعلم علماء المدينة وحدهم، بل كان على صلة بفقه أئمة عصره في العراق والشام ومصر وغيرها(٤).

فمحمد بن الحسن، صاحب أبي حنيفة قد جالس مالكًا ثلاث سنوات كاملة، عرف مالك منه خلالها فقه أبي حنيفة، وكانت له مراسلاته الكثيرة العميقة مع الليث بن سعد، إمام مصر، وقد جلس مع حماد، ابن الإمام أبي حنيفة طويلًا.

يحكي ذلك حماد نفسه، فيذكر إتيانه مالكًا، فرآه جالسًا في صدر بيته وأصحابه

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٥٣.

(٢) أبو مسلم الخراساني، اسمه عبد الرحمن بن مسلم، ويقال: عبد الرحمن بن عثمان بن يسار الخراساني، الأمير، صاحب الدعوة، وهازم جيوش الدولة الأموية، والقائم بإنشاء الدولة العباسية، كان من أكبر الملوك في الإسلام. ولد عام ١٠٠هـ، ومات عام ١٣٧هـ، وعمره سبعة وثلاثون عاماً. انظر "سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج٢، ص ٥٣٧.

(٤) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٩٣.

بجنبتي الباب، كل واحد منهم له مجلس، وأدناه مالك حتى أقعده بين يدي فراشه، فلما رأى أصحابه ذلك قاموا جميعًا من مجالسهم، فخرجوا من البيت؛ تأدبًا مع الإمام وضيفه، ثم سأل مالك حمادًا: ما كان يقول أبوك في كذا وكذا؟ وما كانت حجته، فيخبره حماد، وجعل يسأله عن أشياء من مذهب أبي حنيفة وعن حجته، وبعد ذلك طلب الإمام من حماد أن يسأل عما شاء من أسئلة، فأجابه به، وبعد ذلك خرج حماد، فعاد طلاب مالك إلى شيخهم، يتعلمون!(١).

ثناء الأئمة على مالك

لقد أثنى أئمة كثيرون وأعلام كبار على الإمام مالك، منهم الإمام الشافعي(٢) الذي قال: إذا ذكر العلماء، فمالك النجم(٣).

وقال الذهبي: لم يكن بالمدينة عالم بعد التابعين يشبه مالكًا، في العلم، والفقه والجلالة، والحفظ(٤).

- وقال ابن عيينة: مالك عالم أهل الحجاز، وهو حجة زمانه(٥).

- وقال عبد الله بن المبارك(٦): ما رأيتُ رجلًا ارتفع مثل مالك بن أنس، ليس له كثير

(١) "ترتيب المدارك.."، ج٢، ص ٥٣٧.

(٢) الإمام الشافعي: هو أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي، المطلبي، علامة الدنيا، الحافظ، الحجة، له أتباع كثيرون جداً، وانتشر مذهبه في مواطن كثيرة من أنحاء العالم الإسلامي، مولده بغزة سنة ١٥٠هـ، وتوفى بمصر سنة ٢٠٤هـ، وهناك ترجمة وافية عن الإمام في مبحث: أبرز تلاميذ مالك ص٣٥، انظر "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ج١، ص ٢٨.

(٣) "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، مرجع سابق، ص ١٢، وأبو نعيم الأصبهاني، "حلية الأولياء"، ج ٦، ص ٣١٨.

(٤) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٥٨، ط. مكتبة السعادة.

(٥) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٦) عبد بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن، المروزي، روى الموطأ عن مالك، وبه تفقه، كان إماماً مأموناً فقيهاً، قال عنه ابن عيينة: كان فيهاً عابداً زاهداً، سخياً، شجاعاً، حجة، ولد عام ١١٨هـ، وتوفى عام ١٨١هـ، بالعراق، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٤، ص ١١٥، و"ترتيب المدارك"، ج٣، ص ٣٦ - ٥١، و"شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٥٨.

صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة[1]، وقال: لو قيل لي اختر للأمة إمامًا لاخترت لها مالكًا[2].

وقال يحيى بن سعيد القطان، ويحيى بن معين:"مالك أمير المؤمنين في الحديث"[3].

وقال ابن وهب: "لولا أني لقيت مالكًا والليث لضللت":[4].

وقد بلغ من حب أبي جعفر المنصور للإمام مالك أن قال له: "أنت ـ والله ـ أعقل الناس، وأعلم الناس،...، والله لئن بقيتُ لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق، فلأحملنهم عليه"[5].

ومع هذه المنزلة والمكانة العظيمة للإمام كان يهضم نفسه ويمقتها في الله، ويرى الناس ويسمعهم تواضعه وخشيته لله، فمما قاله في ذلك: "لو أن مناديًا ينادي بباب المسجد: ليخرج شركم رجلًا، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلًا أقوى مني، أو أسرع مني"، فلما بلغ قوله آذان ابن المبارك قال ـ حبًا وتقديرًا ـ:"بهذا صار مالك مالكًا!"[6].

وكان شيخه ربيعة إذا رآه قال: "قد جاء العاقل"، ويقول هارون الرشيد: "ما رأيت أعقل من مالك". وقال ابن مهدي: "ما رأت عيناي أحدًا أهيب من هيبة مالك، ولا أتم عقلًا، ولا أشد تقوى ولا أوفر دماغًا من مالك". وقال عبد الله بن المبارك: "ما رأيتُ أحدًا ممن كتب عنه علم رسول الله أهيب في نفسي من مالك، ولا أشد إعظامًا لحديث رسول الله من مالك، ولا أشح على دينه من مالك".

---

(١) "حلية الأولياء" ج٦، ص ٣٣٠، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٦٦.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١١، ص ٥٧.

(٣) "المرجع السابق"، ج١، ص ١٥٥.

(٤) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١١١، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٦٩.

(٥) "المرجع السابق"، ج٨، ص ٦١.

(٦) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٦٨، و"تزيين الممالك"، للسيوطي، ص ٥٥.

وقال النسائي: "وما أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس، ولا أجلّ، ولا آمَن على الحديث منه"(١).

وسئل أحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، رجل يريد أن يحفظ حديث رجل بعينه، فقال أحمد: يحفظ حديث مالك. وقال أحمد: "رحمة الله على مالك، القلب يسكن إلى حديثه، وإلى فتياه، حقيق أن يسكن إليه، مالك عندنا حجة، لأنه شديد الاتباع للآثار التي تصح عنده".

ومما قال الإمام أحمد مبينًا عظمة قدر مالك، وقوة نصرته للسنة، وحربه للبدع،: "إذا رأيتَ الرجل ينتقص مالكًا، فاعلم أنه مبتدع"(٢).

وقال الإمام الشافعي: "إذا ذكر الحديث فمالك النجم، وما أحد آمن على علم من مالك، وإذا جاء الحديث عن مالك فشد به يدك". وقال حماد بن زيد لرجل جاءه في مسألة اختلف الناس فيها: "يا أخي، إن أردت السلامة لدينك، فسل عالم المدينة، وصِرْ إلى قوله، فإنه حُجة، مالك إمام الناس". وقال ابن شهاب الزهري لمالك: "أنت من أوعية العلم، وإنك لنعم مستودع العلم".

وقال الليث بن سعد: "علم مالك علم نقي، مالك أمان لمن أخذ به من الأنام".

وقد نصح الإمام جعفر الصادق قومًا من أهل الكوفة في مرض موته، باتباع الإمام مالك، في أمور دينهم، وقال في حق الإمام مالك: "عليكم بالميمون المعان المبارك في الإسلام، المتتبع آثار رسول الله ـ ﷺ ـ، فقد امتحنتُه، فوجدته فقيهًا فاضلًا متبعًا، لا يميل به الهوى، ولا تزدريه الحاجة، ولا يروى إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام، وإن خالفتموه ضللتم وهلكتم...،

(١) الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٦٨، و"تزيين الممالك.."، للسيوطي، ص ١٠، وابن عبد البر، يوسف ابن عبد الله، "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، ج١، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد الكبرى، د/ ت، ص ٦٣، و"ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٤٤.

(٢) "الانتقاء"، لابن عبد البر، ص ٤١ ـ ٤٣.

أحذركم، فقد أرشدتكم إلى رجل نصبته لكم، فإنه أمين مودود في زمانه...، ذاك مالك بن أنس، عليكم بقول مالك".

وكان الأوزاعي معظمًا لمالك، وإذا ذكره يقول: "قال عالم العلماء، قال عالم أهل المدينة، قال مفتي الحرمين". ولما جاء سفيان بن عيينة نعيُ مالك، حزن وقال: "والله مات سيد المسلمين"(١).

ويبين بشر الحافي عظمة علم مالك وتقديره له، فيقول: إن من زينة الدنيا أن يقول الرجل: حدثنا مالك(٢).

وقد اعترف الشافعي بأستاذية معلمه مالك، وفضله عليه، فقال: "مالك بن أنس معلمي، وفي رواية أستاذي، ومنه تعلمت العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمنَّ عليَّ من مالك، وعنه أخذتُ العلم".

وقال ـ أيضًا ـ:"إنما أنا غلام من غلمان مالك، وجعلت مالك حجة فيما بيني وبين الله". وكان إذا سئل عن الشيء قال: هذا قول الأستاذ!(٣).

وقال ابن الأثير: "كفي مالكًا شرفًا أن الشافعي تلميذه، وكفى الشافعي شرفًا أن مالكًا أستاذه" .

وهذه الشهادات للإمام مالك أصدق شهادة له في التاريخ على مكانته العلمية، وريادته، شهد بها شيوخه الذين تلقى عنهم وروى عنهم، وشهد بها أقرانه الكبار، وأقر بها وأكدها تلامذته العظام ـ رحمه الله ورضي عنه ـ.

ومما قاله الإمام الشافعي عن "الموطأ"،:" ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله ـ ﷻ ـ أنفع من موطأ مالك".

---

(١) الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٦٦، ٦٥، ٦٦، ٦٨، و"تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ١٠.

(٢) "الديباج المذهب"، ص ٢٠.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٦٤.

وقال الإمام أحمد عن "الموطأ": "ما أحسنه لمن تديَّن به".

وقال عمر بن أبي سلمة: ما قرأتُ كتاب الجامع من موطأ مالك إلا أتاني آتٍ في المنام، فقال لي: هذا كلام رسول الله ـ ﷺ ـ حقًا(١).

وقال صاحب كتاب "حلية الأولياء": "كان أحد النبلاء وأكمل العقلاء، ورث حديث الرسول، ونشر في أمته علم الأحكام، والأصول، تحقق بالتقوى، فابتلي بالبلوى"(٢).

وقال فيه الإمام الذهبي: "اتفق لمالك مناقب، ما علمتها اجتمعت لأحد غيره؛ أحدها: طول العمر، والرواية. ثانيها: الذهن الثاقب، والفهم وسعة العلم؛ ثالثها: اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية. رابعها: إجماع الأئمة على دينه وعدالته، واتباعه للسنن. خامسها: تقدمه في الفقه والفتوى، وصحة قواعده"(٣).

ومما تميز به الإمام مالك ـ عند العلامة عيسى الزواوي: "حسن نظره لهذه الأمة، وسداد رأيه فيها، وحسن سياسته، وكمال مروءته، وتمام معرفته ورياسته، ومعرفته بأحوال الناس وعوائدهم، وتصرفهم في المعاملات، ومقاصدهم، وتعظيمه للنبي ـ ﷺ ـ وصحبه، وقيامه بالحق وقوله به، وذبه عن الشريعة، ودرؤه المفاسد عنها، وتحصينه حوزتها، وتشديده في سد أبواب المفاسد، ودرئها، واتساعه في فتح أبواب المصالح، وتيسيرها، فهو في ذلك على أوضح المناهج وأحسن ما يكون لهم من المخارج، وأقرب ما تصلح به أحوالهم وأشد ما تنضبط به أفعالهم، وأوفق ما تقوم به سياستهم وأشد ما تمكن به حراستهم، وصحة دينه..."(٤).

وأكمل الزواوي: "أما تقواه لربه، ومعرفته بعظيم قدر نبيه، وصحبه وآله، وتعظيمه

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٠.

(٢) "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣١٦.

(٣) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٦٥، ٦٦.

(٤) مناقب سيدنا الإمام مالك، للزواوي "، ص ٦٠، ٦١، و ص ٩٨.

لشريعته، واتباعه لسنته، ونصيحته لأمته، وإنفاذ همته، وكمال مروءته، وكمال هيئته، ووفور هيبته، فقد كان من ذلك على غاية من التحفظ، وفي نهاية التيقظ، مبرزًا في ذلك بالتقدم معروفًا به، وبالعلم والتوسم"(١).

وصدق سفيان الثوري في ثنائه على الإمام مالك، حين كان يجلس بين يدي مالك ويشاهد إجلال الناس له وإجلال مالك للعلم، فأنشد شعرًا جيدًا يبين هذا المشهد العظيم، فقال:

يأتي الجوابَ، فلا يراجَع هيبةً والسائلون نواكس الأذقـان

أدب الوقار، وعز سلطان التقى فهو المطاع، وليس ذا سلطان(٢)

لقد استفاضت الشهادات في صوف الإمام مالك بخصال وصفات، لم يتفق مثلها لأحد من المجتهدين في عصره، من جملتها ما يلي:

أ ـ بشارة النبي ـ ﷺ ـ به في الحديث (سبق الإشارة إليه).

ب ـ علو سنده. جـ ـ كثرة شيوخه.

د ـ كثرة تلامذته. هـ ـ وراثته فقه أهل المدينة.

و ـ مكثه في المدينة المنورة.

ز ـ طول مدته في التحصيل والتعليم والإفتاء.

ح ـ كونه أول من ألف فأجاد.

ط ـ كونه أول من تكلم في غريب الحديث، وشرح في موطئه الكثير منه.

ي ـ جمع من الأصول ما لم يجمعه غيره من الأئمة.

ك ـ كأن أشهر من تولى الرد على أهل الأهواء في عصره(٣).

---

(١) "المرجع السابق"، ص ٨١.

(٢) "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ج١، ص ٥٣.

(٣) انظر: د/ محمد بن حمدي التمسماني، ""منهجية الإمام مالك الأصولية، الخصائص والآثار"، بحث له في المؤتمر العلمي لدار البحوث، بدبي، ص ٩٣، ٩٤، إصدار المؤتمر، د/ ت.

وتتجلى أهمية هذه الشهادات في كونها تؤكد على نقاط مهمة:

الأولى: أن جُل من شهدوا للإمام كانوا من كبار أئمة عصره.

الثانية: أنه وجد من بينهم أئمة استقلوا بمناهجهم في النظر والاجتهاد، والاستنباط.

الثالثة: أن أكثرهم لم يكونوا من أهل المدينة، وإنما من مدارس فقهية مختلفة.

الرابعة: أنهم كانوا من المتبعين له، والمؤالفين، والمخالفين أيضًا(١).

ابن المبارك يرثي مالكًا

ـ صموتٌ إذا ما الصمتُ زيَّن أهلـه   وفتاق أبكار الكـلام المختَّم

وعي ما وعـي القرآن من كل حكمةٍ   ونيطت به الآداب باللحم والدّمِ

ـ وقال غيره:

فلولاه ما قامت حقوق كثيـرة   ولولاه لانسدت علينا المسـالك

يقيم سبيل الحق سرًا وجهـرة   ويهدي كما تهدي النجوم الشوابك

وقد ـ رثاه أبو محمد جعفر السراج، فقال:

إمام موطأه الذي طبَّقت بــه   أقاليم في الدنيـا فِساح وآفاقُ

أقام به شرع النبي محمــد   له حذر من أن يضـامَ وإشفاقُ

له سند عالٍ صحيح، وهيبــة   فللكل منه حين يرويـه إطراقُ

وأصحابه بالصدق تعلم كلهـم   وإنهــم إن أنتَ ساءلتَ حُذاقُ(٢)

لقد فاق أهل العلم شرقًا ومغـربًا   فأضحت به المثال في الناس تُضرب

وما فاتهم إلا بتقوى وخشيــة   وإذ كان يرضى في الإله ويَغضبُ(٣)

ـ وقال القاضي عياض فيه:

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٢) "انظر "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٤٠ ـ ١٤٦، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٣٤، بألفاظ متقاربة.

(٣) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، الزواوي، ص ٧٣.

يا سائلًا عن حميد الهدي والسنن ... اطلبْ هديت علوم الفقــه والسنن
واعقد قلبك، فاشدده على ثلــج ... لا تطوينه على شك ولا دخــن
واسلك سبيل الألى حازوا نهيَ وتقى ... كانوا فبانوا حسان السر والعلــن
هم الأئمة والأقطاب ما انخدعــوا ... ولا شروا دينهم بالبخــس والغبن
ومالك المرتضى لا شك أفضلهــم ... إمام دار الهدى والوحــي والسنن
فعنه حُزْ علمه إن كنــتَ متبعًا ... ودع زخارف كالأحــلام والوسنْ
فهو المقِلد في الآثار يسندهــا ... خلاف من هو فيهــا غير مؤتمن
وهو المقدم في فقه وفي نظــر ... والمقتدى في الهدى في ذلك الزمــن
من أشرب الخلق طرًا حبــه ... فجرى في القلوب كجري الماء في الغصن

***

المبحث الثاني

اكتساب الإمام مالك مؤهلات الإمامة والريادة

١ ـ قوة الصلة بالله، وعبادته الخاشعة

إن على العلماء أن يكونوا أكثر الناس عبادةً وورعًا، وصلاحًا.

وقد كان إمامنا مالك مثالًا رائعًا في قوة العبادة والتعظيم لله ـ تعالى ـ.

ومما يحكى عنه ورآه تلامذته، ما يقصه تلميذه أبو مصعب(١): "كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده، وإذا وقف في الصلاة كأنه خشبة يابسة لا يتحرك منه شيءٍ، فلما ضُرب قيل له: لو خففْتَ في هذا قليلًا!؟. قال الإمام: ما ينبغي أن يعمل لله عملًا إلا حسنه، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿هود: ٧﴾"(٢).

ـ وقد كانت هيبة الله في قلب الإمام عظيمة قوية شهد بذلك الكثير، منهم ابن مهدي الذي قال: "ما رأيتُ أحدًا الله في قلبه أهيب منه في قلب مالك بن أنس" .

ـ وبشأن تفكره في أمر الآخرة، وانشغاله بها شهد له بذلك أحد أصحابه، فقال: "كنتُ إذا رأيتُ وجه ملك رأيت أعلام الآخرة في وجهه، فإذا تكلم علمتُ أن الحق يخرج من فيه"(٣).

ـ وكان أكثر عبادة الإمام بالسر، وفي ذلك قال ابن وهب: "كان أكثر عبادة مالك في السر، بالليل والنهار، حيث لا يراه أحد" .

وأكد هذا الأمر ابن المبارك، فقال: رأيت مالكاً فرأيتُه من الخاشعين، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه، وذلك أنى كثيرًا ما كنتُ أسمعه يقول: من أحب أن يُفتَح له فرجة في قلبه، وينجو من غمرات الموت، وأهوال يوم القيامة، فليكن عمله في السر أكثر منه في

---

(١) أبو مصعب: هو أحمد بن أبي بكر القاسم، الزهري، قاضي المدينة، وأحد شيوخ أهلها، لازم مالكًا وتفقه عليه، وروى عنه موطأه، وتولى القضاء، توفى عام ٢٤٢هـ عن تسعين سنة. انظر "ترتيب المدارك"، ج ٣، ص ٣٤٧ـ٣٤٩.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩١.

(٣) "المرجع السابق"، ج١، ص ٩١.

العلانية(١).

وقد ذكرت ابنته فاطمة أن أباها كان يصلي كل ليلة حزبه، فإذا كانت ليلة الجمعة أحياها كلها(٢).

ولما سئلت أخت الإمام: ما كان يشتغل مالك في بيته؟. قالت: "المصحف في بيته، (قراءة وتدبرًا)، وقد كان كثير القراءة لكتاب الله، طويل البكاء"(٣).

وقد رأى تلامذته من إمامهم من حسن العبادة وإتقانها وتنوعها الكثير، من هذه المواقف ما حكاه تلميذه المغيرة، حيث قال: خرجت ليلة بعد أن هجع الناس هجعة، فمررت بمالك بن أنس، فإذا أنا به قائم يصلي، فلما فرغ من الحمد لله، ابتدأ بـ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، حتى بلغ ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، (التكاثر)، فبكى بكاء طويلًا، وظل يرددها ويبكي"، ويذكر المغيرة انشغاله بما سمع ورأى من إمامه عن حاجته التي خرج إليها، وظل الإمام قائمًا يردد الآية ويبكي حتى طلع الفجر، فركع النافلة، ثم ذهب إلى المسجد، وبدأ درسه بعد الصلاة، يقول التلميذ: "فلما أصبح نظرت، فإذا أنا بوجهه قد علاه نور وحسن"(٤).

ومن هضمه نفسه ومحاسبته لها، كان الإمام عند يُسأل: كيف أصبحتَ؟ يجيب: "في عمر ينقص، وذنوب تزيد!"(٥).

٢ ـ إخـلاص العمـل للّه

لقد بنى الإمام حياته على تحري الصدق والإخلاص لله في القول والعمل في سائر أموره، لذا ما كان يبالي بمدح الناس أو ذمهم، أو إعراضهم أو إقبالهم.

إن الإمام كان قمة في إخلاصه لله ـ تعالى ـ في كل شئونه، في طلب العلم، ونشره،

(١) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٩١، ٩٢.
(٢) "تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ١٤، ١٥، و "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩١.
(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٦٥.
(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩١.
(٥) "شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٥٣، ٥٤.

وتعليمه، سعى لوجه الله وحده، لا يريد به اكتساب حظوة عند الناس، أو نيل وظيفة من الوظائف، أو تقرب إلى سلطان، لم يبتغ علوًا، أو استكبارًا، ولا مراء أو جدالًا، لقد نقى نفسه من شوائب الغرض والهوى، وليس تحرى الإخلاص وتحقيقه سهلًا، ولكنه جهاد والتزام وصدق(١).

ومما يثبت ذلك، قيامه بتأليف "الموطأ"، ولما قيل له إنكارًا، واستهانة، وتثبيطًا له عن التأليف،: شغلتَ نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فرد الإمام: ائتوني بما عملوا!. فأُتِي بذلك، فنَظر فيه، ثم نبذه وقال: "لتعلمُن أنه لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله"(٢).

وبالفعل، ما سمع لشيء من هذه الأعمال بعد ذكر، ولا اشتهرت، وتبين أهمية قصد النية الصالحة في قلب كل مؤمن، مهما كانت الأسباب الموجِبة لضد ذلك، وخطورة وضياع من يتفاخرون بأعمالهم، من أجل الذكر، وحب الدنيا!.

ولما ألف الموطأ اتهم نفسه بعدم الإخلاص فيه، فألقاه في الماء، وقال: "إن ابتل فلا حاجة لي به!"، لكنه لم يبتل منه شيء(٣).

ومن صور إخلاصه لربه في عبادته أنه كان في كمه منديل مطوي على أربع طاقات، فإذا سجد سجد عليه، فلما سئل عن سبب ذلك قال: أفعله، لئلا يؤثر الخط على جبهتي، فيظن الناس أني أقوم الليل"!.. مع أنه لا يرى السجود إلا على ما هو من جنس الأرض!(٤).

ومن دلائل صدق الإمام وإخلاصه لربه عزو الفوائد العلمية والتربوية إلى مصادرها، لقد كان هذا الأمر واضحًا جليًا في سيرة الإمام، ففي "الموطأ"، وفي دروسه، كثيرًا ما

(١) "عالم المدينة مالك بن أنس"، مرجع سابق، د/ حمزة النشرتي، وآخرون، ط. المكتبة القيمة، د/ ن، ت، ص٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص .

(٣) "تنوير الحوالك..."، ج١، ص ٦، و"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ج١، ص ٥٢.

(٤) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ١٨٠.

قال: على هذا أدركتُ أهل العلم ببلدنا.

و"أخبرني من لا أتهم من أهل العلم" و"أخبرني الثقة"، و"هذا أحسن ما سمعتُ".

هذا الذي صدر من الإمام يعلمنا أن العلم رحم بين أهله، وتُستجلب بركة العلم حين يعزوه الطالب له لمصادره، ويذكر شيوخه ومعلميه، ويقر لأهل الفضل بدورهم.

ـ ومما يستفاد من هذا الموقف التربوي المعلِّم، ضرر كتم مسائل العلم، ومصادرها، والتعتيم على رواد وقادة الخير، بعدم ذكر فضلهم، وأثرهم، وانتقاص قدر المشايخ، أصحاب الأدوار الكبيرة في الإصلاح والعلم والهدي!.

٣ ـ ورع الإمام وخوفه من الله

إن الإمام قد تميز بورعه الشديد في فتياه، وكان يقف عندما يعلم، ولا يجاوزه إلى ما لا يعلم، ويرى أن جُنة العالم وحصنه وملجأه الآمن قوله: لا أدري، "فإذا أضاعها أصيبت مقاتله"، كما قال(١):؛ إن الإمام كان شعاره "لا أدري"، حين يُسأل، ولا تستكمل لديه أدلة المسألة من جوانبه كلها، فيتذرع بشعاره هذا، فإذا وضح لديه الجواب، وذهب أدنى ريب في نفسه أجاب.

وقد ذكر الهيثم(٢) بن جميل أنه سمع الإمام مالكًا لما سئل عن ثمان وأربعين مسألة، أجاب عن اثنتين وثلاثين مسألة منها بقول: لا أدري، وأجاب عن ست عشرة مسألة بما يعرف(٣).

وقال ابن وهب ـ في هذا الشأن ـ: "لو شئتُ أن أملأ ألواحًا من قول مالك: "لا أدرى"، فعلتُ"(٤). وكان يرى أن العالم إذا سئل فلم يجب عن المسألة واندفعت عنه فإنما هي

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٧، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٠، و ٨٧.

(٢) الهيثم بن جميل: أبو سهل الإنطاكي، بغدادي سكن إنطاكية، إمام كبير ثبت، ثقة، حافظ، حدث عن الليث وحماد بن سلمة، ومالك بن أنس وغيرهم. توفى عام ٢١٣هـ، انظر" سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٣٩٦.

(٣) السيوطي، "تزيين الممالك بمناقب سيدنا..." ص ١٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٦.

بلية صرفها الله عنه(١).

إنه كان يعتصم بـ "لا أدري"، وإذا توقف في سؤال وقال له السائل: أي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعتُ إليهم، أجابه الإمام بقول: إذا رجعت إلى مكانك وموضعك، فأخبرهم أني قد قلت لك: إني لا أحسنها". وطالب كل عالم بأن يورث جلساءه: لا أدري، حتى يكون أصلًا في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يعلم، قال: لا أدري(٢). ولا يستطيع قوله: "لا أدري" إلا القوي بالله، الذي يؤثر رضاه والجنة، ويخشى شر عذابه.

هذا الورع الشديد في إفتائه، لم يحل دون علو شأنه وإمامته العالية، فملأ الدنيا فهمًا سديدًا،، ووعيًا وعلمًا وتقوى، وأسوة، وكان له طلابه الكثُر، وتقلوا عنه أصول المذهب الغنية المتجددة(٣).

وكان يتأنى في إجابته، ويحذر سخط الله ـ تعالى ـ، ولا يعنيه إلا مرضاته، لذا عندما سأله رجل عن مسألة وقال له: يا أبا عبد الله أجبني، رد الإمام عليه بصوت مرتعش من شدة الخوف: "ويحك، أتريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله؟"، ثم قال له: "إني أحتاج أولًا أن أنظر كيف خلاصي، ثم أخلصك"(٤).

إن الإمام مالك كان يزن كل كلمة تصدر عنه بميزان دقيق، ويقيس كل حكم يدلي به، ولذا كان قليل الفتاوى، وما أكثر ما كان يجيب: لا أدري، وكان إذا أصدر فتوى أتبعها بقوله: "إن نظن إلا ظنا، وما نحن بمستيقنين".

وكان ـ أحيانًا ـ يستمهل السائلين أيامًا إذا سألوا. ولا يتحرج من عدم الإجابة إذا لم يجد قدرة على الإجابة.

لقد توفرت عند الإمام الأمانة الكاملة في الإجابة عما هو كائن، والامتناع الكامل عن

(١) الزوواي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٨٠.

(٢) انظر "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣٢٣، و"جامع بيان العلم وفضله"، ج٢، ص ٥٣، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٩٠، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٦٧.

(٣) "مع الأئمة"، ص ١١٣.

(٤) انظر "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٧١.

الإجابة عما هو فرضي، أو عما لم يكن له شبيه أو سابقة في المدينة المنورة.

ومرد ذلك أن الإمام كان ملتزمًا بالسلف، مستمسكًا بالأثر(١).

وقد علق المغيرة المخزومي(٢) على إجابة الإمام بـ "أدري"، على عدد كبير من الأسئلة، فال: والله ما رُفع هذا الرجل إلا بالتقوى، من كان منكم يُسأل عن هذا، فيرضى أن يقول: "لا أدري"(٣).

ولما قال البعض للإمام: إذا قلت أنت يا أبا عبد الله: لا أدري، فمن يدري؟!

رد الإمام: "ويحك،ما عرفتني!، وما أنا؟، وأي شيء منزلتي حتى أدري ما لا تدرون. وإنما أهلك الناس العجب، وطلب الرياسة، وهذا يضمحل عن قليل"(٤).

وكان إذا سئل عن المسألة قال للسائل: "انصرف حتى أنظر فيها"، فينصرف، ويبحث فيها، فسأله تلامذته عن فعله، فبكى وقال:" إني أخاف أن يكون لي من السائل يوم، وأي يوم"(٥).

وقال مالك لسحنون يومًا: "اليوم لي عشرون سنة، أتفكر في هذه المسألة".

وجاءه مرة سائل أخبره أن معه مسألة أرسل فيها من مسير ستة أشهر من المغرب، فقال له الإمام: أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها، فقال السائل: ومن يعلمها؟، قال الإمام: "من علَّمه الله!"(٦).

لقد كان الإمام مدركًا لخطورة دوره في الإفتاء ولتعليم الناس دينهم، وإرشادهم لما

---

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٩٥، ٩٦.

(٢) المغيرة بن عبد الرحمن بن الحرث بن عياش، المخزومي، أبو هاشم، سمع مالكًا وأبا الزناد، وهشام بن عروة، وغيرهم، خرج عنه البخاري، كان ثقة، وفقيه المدينة بعد مالك. كان ملازمًا لمجلس مالك، عرض عليه الرشيد قضاء المدينة فأبى، خوفًا من تبعته. ولد عام ١٢٤هـ وتوفى سنة ١٨٨هـ ـ رحمه الله ـ. انظر "ترتيب المدارك...."، ج٣، ص ٢ ـ ٨، و"شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٥٦.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٦٨.

(٤) "المرجع السابق"، ج١، ص ٢٦٨، و"الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣٤٢.

(٥) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٦٦.

(٦) "المرجع السابق"، ج١، ص ٦٧.

فيه الخير، وكم بكي، خشية من الله على هذا الدور الكبير، وقال في ذلك: "ربما وردت عليَّ مسألة، فتمنعني الطعام والنوم"، وكان ـ أحيانًا ـ يتغير لونه، وينكس رأسه، ويحرك شفتيه، ثم يقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله"، وقال ـ أيضًا ـ: "ربما وردت عليَّ المسألة، فأسهر فيها عامة ليلي".

ولما سئل عن سبب ذلك وقيل له: ولم يا أبا عبد الله؟، فو الله ما كلامك عند الناس إلا كنقش في حجر، أجابه الإمام: "فمن حق من كان هكذا، أن يكون هكذا".

ومما يدل على ذلك رؤية تلميذه النجيب القعنبي له يبكي بشدة، فسأله عن سبب بكائه، فقال والدموع تملأ عينيه: "ومن أحق بالبكاء مني؟!، لا أتكلم بكلمة إلا كتبت بالأقلام، وحُملت إلى الآفاق!"(١).

ولما جاءه سائل، فرد عليه الإمام: لا أدي، قال له السائل: إنها مسألة خفيفة سهلة، وإنما أردت أن أعلم بها الأمير، فغضب مالك، وقال: "مسألة خفيفة سهلة؟!، ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ ﴿المزمل: ٥﴾، فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يُسأل عنه يوم القيامة" .

وكان يقول: من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب!"(٢).

لذا، كان يبتعد عن الإكثار من الإفتاء، ويكره العجلة في الفتيا، ولا يفتي إلا فيما يقع من الأمور، ويتجنب الإفتاء فيما يتوقع أو يفترض منها، ويعد ذلك من الفتنة.

وكان لا يجيب عن كثير من المسائل، خشية أن تؤدي كثرة الإجابة إلى الفرض والتقدير، وخشية أن تؤدي الكثرة إلى الخطأ(٣)، وقد سأله سائل عن ست مسائل، فأجاب عنها، ثم سأله بعدها، فقال له الإمام: "أكثرت!"، وأخرجه من مجلسه.

---

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٠، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ٦٦.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٦٤، و"الإمام مالك، إمام دار الهجرة، للدقر، ص ٢٤١.

(٣) "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ٨٦.

وكان إذا أكثر أصحابه من سؤاله قال لهم: حسبكم، من أكثر أخطأ[1].

وقد جاءه يسأله عن شيء أيامًا، فلم يجبه، فقال: يا أبا عبد الله، إني أريد الخروج؛ فأطرق الإمام طويلًا، ثم رفع رأسه، فقال: ما شاء الله، يا هذا، إنما أنا أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه[2].

ومن ورعه أنه كان لإخلاصه للكتاب والسنة وورعه الكبير، يتحرز عن أن يقول: هذا حلال، وهذا حرام، من غير نص منهما.

وأما فيما يراه من غير الكتاب والسنة، فإنه يذكر رأيه من غير قطع بحرمة[3]، وكثيرًا ما كان يعقب كلامه بتلاوة قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿الجاثية: ٣٢﴾، وفي ذلك المعنى قال: ما كان في كتاب الله أو فيما أحكمته السنة عن رسول الله ـ ﷺ ـ فهو حق لاشك فيه، وما كان من اجتهاد الرأي، فالله أعلم به"[4].

وفي هذا قال ـ أيضًا ـ: ما شيء أشد عليَّ من أن أُسأل عن مسألة من الحلال والحرام، فإن هذا هو القطع في حكم الله، ولقد أدركتُ أهل العلم والفقه ببلدنا، وإن أحدهم إذا سئل عن مسألة فكأن الموت أشرف عليه، ورأيتُ أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا".

وتابع: "ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غدًا لقللوا من هذا.

وإن عمر بن الخطاب وعليًا وخيار الصحابة كانت تتردد عليهم المسائل، وهم خير القرون الذين بعث فيهم النبي ـ ﷺ ـ، وكانوا يجمعون أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ويسألون، ثم يفتون فيها.

وأهل زماننا هذا قد صار همهم الفتيا..،..، ولم يكن من أمر الناس ولا من مضى من

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٢٩٨.

(٢) "تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ١٦.

(٣) "مالك حياته، وعصره، آراؤه وفقهه"، ص ٨٣.

(٤) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٦.

سلفنا الذين يُقتدي بهم، ويعول عليهم أهل الإسلام أن يقولوا: هذا حلال، وهذا حرام، ولكن يقال: أنا أكره كذا وأحب كذا... إلخ"(١).

وفي رواية: كانوا يقولون: نكره هذا، ونرى هذا حسنًا،ونتقي هذا،ولا نرى هذا!"(٢).

ولما سأل صديق لمالك بن أنس عن سبب إجابته بـ "لا أدري"، على أسئلة أناس أتوه من بلدان شتى، وأنفقوا أموالًا وجهودًا عظيمة، للمجيء إليه وسؤاله!.

رد الإمام على صديقه عمرو بن يزيد، من علماء مصر، فقال: "يا عبد الله، يأتيني الشامي من شامه، والعراقي من عراقه، والمصري من مصره، فيسألونني عن الشيء، لعلي أن يبدو لي فيه غير ما أجيب به، فأين أجدهم؟!"(٣).

وفي رواية: "يرجع أهل الشام إلى شامهم، وأهل العراق إلى عرقهم، وأهل مصر إلى مصرهم، ثم لعلي أرجع عما أفتيتهم به"(٤).

ـ وفي ذلك قال الإمام: "إنما أنا بشر، أخطئ وأصيب، فانظرا في رأيي، فما وافق الكتاب والسنة، فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"(٥).

وقد كان الإمام يتكلم فيما يحتسب فيه الخير فقط، لذا رد على رجل سأله عن أمر، فأمهله الإمام أيامًا، وبعدها جاءه السائل قائلًا: يا أبا عبد الله، إني أريد الخروج!، فأطرق مالك طويلًا، ثم رفع رأسه وقال: ما شاء الله، يا هذا، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير"(٦).

وكان مالك إذا سئل عن مسألة، يظن أن صاحبها غير متعلم، وأنه يريد المغالطة،

---

(١) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٦٦ بتصرف، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٦.

(٢) "المرجع السابق"، ج١، ص ١٢٧.

(٣) "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣٢٤.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٦٧.

(٥) ابن عبد البر، "جامع بيان العلم وفضله"، ج٢، ص ٣٢، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٦٧، و"الإمام مالك، إمام درا الهجرة"، ص ٢٣٦.

(٦) "حلية الأولياء"، أبو نعيم الأصبهاني، طبع مكتبة السعادة، ج٦، ص ٣٢٣.

زجره بهذه الآية، يقول: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ ﴿الأنعام:٩﴾[١].

لقد كان يخشى من إفتائه برأيه المبني على اجتهاده، مع أنه شديد الاحتياط لدينه، ويعيب كثرة الجواب، وأخذ يراجع ما أفتى به، لذا لما دخل عليه تلميذه القعنبي في مرض موته، ورآه يبكي، فسأله ما سبب بكائه؟، فرد عليه الإمام: ومالي لا أبكي، ومن أحق بالبكاء منى؟، والله لوددتُ أني ضربتُ بكل مسألة أفتيتُ فيها برأيي بسوط، وقد كانت لي السعة فيما قد سُبقتُ إليه، وليتني لم أفتِ بالرأي".

وفي رواية أخرى قال: "ومن أحق بالبكاء مني؟، لا أتكلم بكلمة إلا كتبت بالأقلام، وحملت إلى الآفاق، وما تكلمتُ برأي إلا في ثلاث مسائل"[٢].

إن الإمام لم يتعجل التصدر والإفتاء، بل كان يلتزم رأي ونصائح أساتذته، فلا يتقدم إلا إذا قدموه، يبين ذلك ما حكاه الإمام لتلميذه ابن وهب، من دعوة أمير المدينة له ليحضر مجلسه، فلم يذهب حتى جاء لأستاذه ربيعة يستأذنه في الذهاب للأمير، فلما سأله تلميذه: لو لم يقل لك احضر لم تحضر؟!، قال الإمام: يا أبا محمد، لا خير فيمن يرى نفسه في حالة لا يراه لها أهلًا".

وله تجربة أخرى، حين حضر مع شيخه ربيعة عند السلطان، رأى مالك الكراهية في وجه أستاذه، فسأله لما خرجا: إن كنتَ تكره لم أحضر، إنما تعلمنا منك.

فرد شيخه برضاه عن الحضور، وقال: لا أكره أن يحضر معنا من أنت أفقه منه.

وفي هذا المعنى، في عدم تصدر العالم إلا إذا تأهل بقوة لما يريد القيام به، قال الإمام: "ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوْه لذلك أهلًا جلس.

---

(١) "تزيين الممالك...."، للسيوطي، ص ١٥.

(٢) "المرجع السابق"، ج١، ص ٧٢، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٠ن ص ٢٦٥، و"الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣٧٩.

وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخًا من أهل العلم، أني لموضع لذلك"(١).

وكان يحترم أساتذته وشيوخه، ويستحيي الحديث والإفتاء أمامهم، ويتعلم منهم حب الحق والبحث عنه، ومما يثبت ذلك ما حدث أثناء جلسته مع أستاذيه: ابن شهاب وربيعة، فألقى ابن شهاب مسألة، فأجاب فيها ربيعة وصمت مالك، قال له بن شهاب: لم لا تجيب؟، قال مالك: قد أجاب الأستاذ، أو نحوه، فال ابن شهاب: لن نفترق حتى تجيب!.

فأفتى مالك بخلاف جواب شيخه ربيعة، فسر ربيعة بإجابة مالك، وقال: ارجعوا بنا إلى قول مالك(٢).

٤ ـ حسن خلق الإمام مع الناس

إن على الإنسان كلما ازداد علمًا أن يزداد أدبًا وحسن خلٌ، ولا خير في علم لا يثمر كرم نفس، ورفعة حال وخلق صاحبه.

إن العالم قدوة لمن يعلمه يوجهه، يؤثر في الناس؛ كلامه وعمله وحاله.

لذا حرص الإمام على أن يحقق ذلك في نفسه، فكان نعم الأسوة، لطلابه وتلاميذه وأقرانه، وجميع من تعامل معه.

يشهد بذلك تلميذه ابن وهب، فيقول: الذي تعلمناه من أدب مالك أكثر مما تعلمناه من علمه"(٣).

وقد شهد الإمام أحمد بعظمة فضائله، خاصة بعدما سمع قول مالك: ما جالستُ سفيهًا قط، وعلق أحمد بقوله: ليس في فضائل العلماء أجل من هذا(٤).

وقد أقام يحيى بن يحيى التميمي عند مالك سنة بعد كمال سماعه منه، لهدف تعلم

---

(١) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٥١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٦١.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج ٧، ص ٦٢.

(٤) "المرجع السابق"، ص ٦٣.

شمائله،وعلق يحيى التميمي على ذلك بقوله: فإنها شمائل الصحابة والتابعين[1].

وقال في ذلك عبد العزيز بن الماجشون: والله ما علمنا مالك إلا بصلاح وعفاف[2].

وكان الإمام يعمل من الخير والطاعات ما لا يلزم الناس به، اجتهادًا وارتقاءً في صلته بربه، وخدمته لدينه وأمته، لأنه القدوة والإمام، وفي ذلك قال: لا يكون العالم عالمًا، حتى يعمل في نفسه بما لا يفتي به الناس، يحتاط لنفسه ما لو تركه لم يكن عليه فيه إثم"[3].

إن الناس إذا رأوا ترفع العالم عما يقبح فعله، وعدم تدخله فيما لا يعنيه، وتجنبه ما لا يليق بعلمه وقدره، وسعيه إلى التأدب بشرع الله وأخلاق النبي ـ ﷺ ـ، إذا رأى الناس منه ذلك كان حاله أشد في الموعظة والتأثير من مقاله.

لذا كان الإمام مالك يأخذ نفسه بأفضل الأخلاق، وأجمل الأوضاع والآداب، لذا أقسم زياد بن يونس على ذلك، فقال: "كان ـ والله ـ مالك أعظم الخلق مروءة"[4].

وقد كان الإمام يعامل الناس بإكرام وحسن خلق، وكان ـ كما قال ابن المبارك ـ: "أكثر الناس مدارةً للناس، وترك ما لا يعنيه".

ومن مجاملته الحسنة لإخوانه ما كان يصنعه مع زهير بن عباد، الذي قال: ما كنت أقول لمالك: رحمك الله إلا قال: وأنت رحمك الله. وإذا قلتُ له: عافاك الله، قال: وأنت عافاك اللّه، حسن أدب[5]، من الإمام.

إن تواضع العلماء شرف لهم، وهو دليل سعة العلم وعظم الشأن، والعلم يحني النفوس، كما يحني الغصن ثمرته، والتواضع ينبع من سلامة النفس، وإخلاص القلب، لذا قال الإمام مالك: التواضع ترك الرياء والسمعة، التواضع في التقى والدين، وليس في

(١) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ١١٦، ١١٧، و"الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص.

(٣) السيوطي، "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ١١، ١٢.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٤٥.

(٥) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٤٥، و"الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣١٧.

اللباس.

وقد سمع ابن مهدي الإمام مالكًا يقول عبارة غالية تبين عظمة نفس وروح الإمام، هي قوله: "لو علمت أن قلبي يصلح على كناسة لذهبتُ حتى أجلس عليها!".

وقد كان الإمام متواضعًا، عُرف ذلك عنه، ورآه الناس، ومما يروى عنه أنه أتى المسجد، فانتهى إلى جماعة، فوسع له في صدرها، فأبى وجلس حيث انتهى به المجلس!.

وقال ابن أبي أويس: كان مالك يستعمل الإنصاف، ويقول: ليس في الناس أقل منه، فأردت المداومة عليه(١).

وكان مالك إذا جلس مع زملائه وأقرانه ـ كما يذكر المروي ـ كأنه واحد من الحاضرين، ويتبسط في الحديث، ويتواضع معهم(٢).

وقال أحد تلاميذه: كنا إذا دخلنا على مالك، خرج إلينا مزيَّنًا مكحلًا مطيبًا، قد لبس من أحسن ثيابه، وتصدر الحلقة، ودعا بالمراوح، فأعطى لكل منا مروحة(٣).

ويحكي ابن القاسم(٤) عن شيخه مالك حادثة تبين كمال هضمه لنفسه، وجمال تواضعه، ذلك عندما أخبره ابن القاسم بأن: "ليس بعد أهل المدينة أحد أعلم بالبيوع من أهل مصر"، فقال مالك: "من أين علموا (أهل المدينة) ذلك"، قال ابن القاسم: "منك يا أبا عبد الله" فرد الإمام: ما أعلمها أنا، فكيف يعلمونها بي؟!(٥).

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٩٦.

(٢) "المرجع السابق"، ج١، ص ٧٨، وعبد الغني الدقر، "الإمام مالك..."، ص ٥١.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٢.

(٤) عبد الرحمن بن القاسم العتقي، أبو عبد الله، المصري، الحافظ، الفقيه، أثبت الناس في مالك، وأعلمهم بأقواله، صحبه عشرين سنة، وتفقه به، لم يرو واحد عن مالك الموطأ أثبت منه، خرج عنه البخاري في صحيحه، وروى عنه كثيرون، ولد عام ١٢٨، وقيل ١٣٣هـ، ومات بمصر، عام ١٩١هـ. انظر" شجرة النور الزكية في طبقات المالكية..."، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٥) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٦، و ص ٦٧.

ومما يثبت ذلك ـ أيضًا ـ سؤال رجل للإمام عن مسألة، فأجابه، فقال للإمام: أنتَ من الناس، أحيانًا تخطئ، وأحيانًا لا تصيب"، قال: صدقت، هكذا الناس.

٥ ـ قرب مالك من الناس، ومتابعته شئون المجتمع

كان الإمام يأتي المسجد، ويشهد الصلوات والجمعة، والجنائز، ويعود المرضى، ويقضي الحقوق، ويجلس في المسجد، ويجتمع له أصحابه(١).

وكان قريبًا من الناس، يواسيهم، إلى حد أن أهل المدينة إذا مات لهم ميت يقولون: "امضوا بنا إلى مالك، يعزينا"(٢).

وقد كانت للإمام نصائحه الجليلة لعامة الناس تربية وتعليمًا، ومن ذلك، ما قاله لرجل قال له: أوصني!. فقال الإمام: إذا هممت بأمر من طاعة الله، فلا تحبسه إن استطعت حتى تمضيه، فإنك لا تأمن الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك، فإن استطعت أن لا تمضيه فافعل، لعلك تتركه.

ولا تستح إذا دُعيت لأمر ليس بحق أن تقول: قال الله ـ تعالى ـ في كتابه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿الأحزاب: ٥٣﴾".

وتابع الإمام نصيحته: وطهر ثيابك، ونقها عن معاصي الله، وعليك بمعالي الأمور، وكرائمها، واتق رذائلها، وما سفسف منها، فإن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها (رديئها).

وأكثر تلاوة القرآن، واجتهد أن لا تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار إلا ولسانك رطب في ذكر الله.

ولا تمكن الناس من نفسك، واذهب حيث شئت وقل: ما أسر عبد سريرة خير إلا ألبسه الله رداءها، ولا أسر سريرة سوء إلا ألبسه الله ردائها!"(٣).

---

(١) "تزيين المسالك..."، للسيوطي، ص ١٣.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٣.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٨.

وقد طالب الإمام بالعناية بالفهم الجيد لأمور الدين، والتفكير الجيد في شئونه، مع حسن العبادة لله، فقال: "لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر ما يعقل يعبد ربه"(١).

ونصح كل مسلم بأن يعتني بأدب أهله وولده، وفي ذلك قال: "ينبغي للرجل أن يؤدب أهله وولده ومن يجب عليه فرضه، وقد قال ـ ﷺ ـ: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فأدب أهلك ومن وُليتَ أمره على أدبك وخلقك، حتى يتأدبوا على الذي أنتَ عليه، ليكونوا لكَ عونًا على طاعة الله"(٢).

وعندما سأله رجل وصية. قال له: "أوصيك أن تعمل صالحًا، وتأكل طيبًا"(٣).

إن الإمام كان يتابع الشئون العامة في مجتمعه، ويعالج قضاياه من مختلف زواياه، ومن ثم فقد كان للإمام تعليق ما على أغنية ما، أو أبيات شعر يسمعها، من قبيل الاستحسان، أو الاستقباح.

والإمام مالك ـ كإنسان وبشر ـ قد يجرى التعليق على لسانه مجرى النكتة، وينساق من فمه مساق الملحة، ولكنه في الحقيقة يعبر عن رأي جاد أو حكم صادق(٤).

وقد أورد القاضي عياض في "ترتيب المدارك"، خبرًا لطيفًا يتعلق بسماع الإمام لأبيات تُنشَد، في إحدى طرقات المدينة من جارية تحمل جرة ماء، وكانت تقول:

ليتني أرض لسلـمى   فتطاني قدماهـا
ليتني درع لسلمـى   ترتديني من رِداها
ليتني خادم سلمـى   قاعدٌ حيث أراهـا

سمع ذلك الإمام، فسال ابن أخته إسماعيل ـ وكان معه ـ: يا إسماعيل، القائل:رجل

(١) "المرجع السابق"، ج١، ص ٩٩.
(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٧٣.
(٣) "المرجع السابق"، ج١، ص ٩٩، و"مناقب الإمام" للزواوي، ص ٦٥.
(٤) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٦٢، ٦٣.

أم امرأة؟. قال ابن أخته: هي "غزال"، خادم بني عمارة، فقال الإمام: إنها لفصيحة اللهجة، حسنة التأدية".

هكذا، علق الإمام بكلمة، جمعت بين اللطف والوقار والحكم الصائب، وهذا خليق بأن يصدر عن عالم جليل، مثل الإمام مالك .

وذات مرة مر الإمام بقينة تغني، فتقول:

أنتِ أختي وأنتِ حرمة جاري   وحقيق عليَّ حفظ الجوارِ

أنا للجــار ما تغيَّب عني   حافظٌ للمغيب في الأسرارِ

ما أبالي أكان بالبــاب ستر   مسبَلٌ أم بقـي بغير ستارِ

لما سمع الإمام هذه الأبيات سعد بها وقال مِثنيًا عليها ـ:"لو غُنيِّ بها حول الكعبة لجاز". وطالب بتعليم الفتيات ـ خاصة من تغني ـ مثل هذه المعاني الجليلة، فقال: يا أهل الدار، علموا قينتكم مثل هذا"(١).

إن المعاني الطيبة التي احتوتها الكلمات السابقة التي أنشدت، من عفة ومحافظة على الجار، وتقوى وأدب، جعلت الإمام يثني عليها، ويطالب بإفشائها وإسماع الناس صداها.

وعندما قال أبو حازم للإمام مالك ـ تعليقًا على هذه الأبيات ـ: كان أهل الجاهلية أحسن جوارًا منكم، وإلا فبيننا وبينكم قول الشاعر:

ناري ونار الجار واحــدة   وإليه قبلي تنـزل القـدرُ

ما ضر جار لي أني أجاوره   أنْ لا يكون لبابـه سِترُ

أعمى إذا ما جارتي برزت   حتى يواري جارتي الخِدرُ

علق الإمام قائلًا: لا بأس بالغناء بمثل هذا(٢).

ـ وقد كان للإمام مداعباته الجميلة، والملح الطيبة، في مجالسه، ومع من يتعامل معه،

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٣١.

(٢) "المرجع السابق"، ج١، ص ١٣٠، ١٣١، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٦٤.

وهذا يدل على طيب نفس الإمام، وجمال خلقه وبساطته وتواضعه.

ومن هذه المداعبات، ما حدث حين قدم ابن شهاب الزهري إلى المدينة فذهب إليه مالك ـ تلميذه ـ، فوجده في طريق المسجد ومعه غلامه أنس، وكان قد زوَّجه أمةً له، فقال ابن شهاب لغلامه: كيف وجدتَ أهلك؟، قال: وجدتها يا مولاي جَنة!. فقال ابن شهاب: الحمد لله، ففطن مالك للإجابة ومغزاها وضحك، فسأله ابن شهاب عن سبب ضحكه، فال: إنه يقول: "إنها لم توافقه!، إن في الجنة لسعة وبردًا"، فقال ابن شهاب للغلام: كذلك يا أنس؟ قال: إيه والله يا مولاي!.

فما زال يضحك ويعيدها!(١).

ومن مداعباته لبعض العلماء ما كان مع ابن المبارك وأصحابه، فقد دخلوا على الإمام مالك، وقالوا له: حدثْنا، ولا تحدثنا إلا بحديث الزهري!.

هنا، شعر الإمام أنهم تجاوزوا حدود التعامل اللائق معه، حين أرادوا إملاء شرطهم على الإمام، لذا أمر بأخذهم والقبض عليهم، قائلًا: يؤخذ بأيديهم، فانصرف القوم، لكنهم ما لبثوا أن عادوا في اليوم التالي، فيعتبهم الإمام، ثم يحدثهم كما أرادوا!.

إن هذا التصرف من الإمام لم يقصد به الخشونة أو إهانة تلامذته، بل كانت على سبيل الدعابة أو "المباسطة"، بلغة عصرنا، ولم يكن الدافع إليها غلظة، أو كبر، أو قلة ذوق!!.

ومثل هذه الأمور كانت ـ ولا تزال ـ تحدث في مجالس العلم، وفي قاعات المحاضرات، كما يذكر د مصطفى الشكعة(٢).

ومرة يحج هارون الرشيد، ومعه قاضي القضاه أبي يوسف، فيدخل عليه مالك، فيقول الرشيد له: نَاظِرْ أبا يوسف، فيقول مالك: ليس هو عندي من أهل العلم فأناظره!.

إن الإمام ليس من الغفلة بحيث لا يعتبر أبا يوسف من أهل العلم، والمسألة لا

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٢٩.

(٢) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٦٥.

تخرج عن المزاح والدعابة.

وهذه المداعبات كثرت مع أبي يوسف، حتى يظنها البعض مشاحنات، وما هي كذلك، إنما هي مداعبات فقهية، مليها طبيعة المناقشات والمنافسات ـ أحيانًا ـ![1].

ومن هذه المداعبات ما حدث من أبي يوسف في حضرة الرشيد، حين داعب مالكًا وسأله عن حكم محرِم كسر ثنية ظبي؟. فأجاب الإمام ـ في براءة ـ: عليه الفدية!، فضحك أبو يوسف مليًا، وقال لمالك: وهل للظبي ثنية؟. (مقدمة الأسنان)، هنا، زجره الإمام مالك، ووبخه قائلًا: "يا سبحان الله، ما علمتُ أن أحدًا يذكر العلم فيضحك، فلا وقر العلم، ولا مجلس أمير المؤمنين، وإنما أجبته إن كان الظبي في حالة يكون له سن في موضع الثنايا، ففعله محرَّم، فعليه الفدية، وإلا فقد علمته ما علم، وليس هذا ينبغي لناس أن يعلموه، ولا هو واجب عليهم". والتفت إلى الرشيد معرِّضًا بأبي يوسف، وقال: يا أمير المؤمنين، سفيه سأل عن مسائل السفهاء، توليه على أمور المسلمين؟!"[2].

إن الإمام كان مسماحًا بالفعل والفكر، كبير التيسير في شئون الحياة، بل هو يضرب للناس المثل في تعاطي محاسنها: شرابه في الصيف السكر، وفي الشتاء العسل، ويؤثر الموز لأنه فاكهة دائمة، كفاكهة الجنة، يتمنى مرة ـ أن يكون كساؤه قرمزيًا، فيجيئه في الغداة سبعة أثواب، وقميصه عدني رقيق، وطيلسانه أشبه بالملوك ويقول: التواضع في التقى، لا في اللباس".

لقد كان يتذوق الفن الرفيع، فيترنم بالشعر، ويساير عرف المدينة من استحسان غناء الرجولة، وتقبيح الغناء الذي يصنعه الفساق[3].

---

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٦٦، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ١٢١، و"الفكر المقاصدي....."، ص ١٣٥.

(٢) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ١٢٢.

(٣) "أئمة الفقه الإسلامي"، مرجع سابق، ص ٧٠.

٦ ـ اعتـزازه بنفسه، وحفظ قـدر العلـــم

إن أهم معالم شخصية الإمام هو اعتزازه بنفسه، واحترامه لذاته، ووقوفه أمام أعلى الناس قدرًا، وأقواهم نفوذًا، موقف العالم الأستاذ الناصح حينًا، والواعظ حينًا آخر، والزاجر حينًا ثالثًا.

لقد كان يفعل ذلك مع خلفاء بني أمية، والعباسيين، من أمثال: المنصور والمهدي، والرشيد وغيرهم.

كانوا يطلبونه ليعلِّم أولادهم، فيمتنع عنهم، ويرجونه، لكي يسمعوا منه، فيستعصى عليهم، لا ضنًا بعلم، ولا بخلًا بحديث، لكن حفظًا لقدر العلم والحديث، معلنًا لهم أن العلم يُزار، ولا يزور، يؤتى ولا يأتي![1].

ولم يكن الإمام يختلف إلى مجالس الخلفاء رياءً أو تقربًا، بل كانوا يسترضونه، لعلهم يكسبونه، لكنه كان يسعى إلى توجيه أولي الأمر إلى الإصلاح والعناية بشئون المسلمين، والحرص على خيرهم، مؤمنًا أن الله يصلح بالسلطان ما لا يصلح بالقرآن. إن الإمام كان يعطي نفسه قدرها في مجالس الخلفاء، ولا يتخذ مكانًا للجلوس حيثما اتفق، وإنما يعمد إلى فرض وجوده، والتنبيه إلى مقامه، ليهيأ له أكرم مكان بين الجالسين، حدث ذلك مرات عديدة، منها دخوله على المنصور بعد أن أخذ الناس مجالسهم، فما إن رآه الخليفة حتى ناداه: "إليَّ، ها هنا يا أبا عبد الله!"، وأخذ يدنيه إليه، حتى ألصق ركبتيه بركبتيه، والخليفة يحييه قائلًا: حقيق أنت بكل خير، وحقيق بكل إكرام".

ونفس الأمر حدث مع المهدي والرشيد وغيرهم[2].

بل إن ابن المنصور، الخليفة المهدي قد فعل ما لم يفعله أبوه من حيث تقديره لمالك، فزاره في بيته في المدينة، ولم تجر عادة الخلفاء بزيارة غير الرسميين من الرعية في

(١) "الإمام مالك"، د/ مصطفى الشكعة، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٦، ٤٧.

بيوتهم، والغريب الدال على تمكن العزة في نفس مالك، أنه لم يأذن للمهدي في الحال، بل استمهله وقتًا، ثم أذن له، واعتذر للخليفة بلطف قائلًا: "يا أمير المؤمنين، إن العيال سمعوا بمجيئك، فأحبوا أن يصلحوا منزلهم"(١).

ـ إن الإمام كان جريئًا في قول الحق، والإفتاء به، مهما أدى ذلك إلى إيذاء يقع به، أو سجن... إلخ، ومثال على ذلك، حين أفتى بأن طلاق المكرَه ليس بشيء، ولا يقع، ولا عبرة به، فقبض عليه، وضُرب بالسياط، وحُلق رأسه وحُمل على بعير وطلب منه أن ينادي على نفسه، فقال الإمام بقوة: ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحى، وأنا أقول: طلاق المكرَه ليس بشيء!.

فبلغ جعفر بن سليمان والي المدينة ما يقوله الإمام، فقال ـ بخوف وفزع من انتشار رأي الإمام ـ: "أدركوه، أنزلوه!"(٢).

لقد كانت خشية الإمام لربه وتعظيمه له وإجلاله له تحفظه، وتصونه من المذلة والضعف أمام الملوك والحكام، ويقسم على هذا المعنى الجليل، فيقول: "واللَّه، ما دخلتُ على ملِك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه، إلا نزع اللَّه هيبته من صدري"(٣).

وكثيرة هي مواقف العزة للإمام، يقدمها للمسلمين عامة، والعلماء خاصة، ليتأسوا بها، وقد كان للإمام مواقف في نصح الخلفاء، وتوجيه أمراء المؤمنين، وتصويب الولاة، وكانت هذه المواقف تصدر من الإمام مواجهة لا مكاتبة، ومليئة بالفطنة والبلاغة والحكمة، واستيعاب الأحوال، وتلك قمة الشجاعة، وذروة الإيمان.

ومما يدل على ذكائه وفطنته وحكمته، ودقة استيعابه للظروف والنفوس ما حدث مع هارون الرشيد ـ الذي يعد أقوى خلفاء العالم الإسلامي ـ، فقد طلب من الإمام أن

(١) د/ الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٤٩.

(٢) "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣١٦.

(٣) "مناقب الإمام مالك"، للزواوي،ص ٧٨، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٦، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١١٢.

يقبل المجيء إلى العراق، لتعليم أولاده، فأبى الإمام، لكن أرسل إليه ردًا، حكيمًا هادئًا، مقرًا للخليفة بفضله، داعيًا له، مبينا حجته التي قبلها الخليفة، فقال في رده: "يا أمير المؤمنين، أعزك الله، إن هذا العلم منكم أُخِذ، فإن أعززتموه عز، وإن ذللتموه ذل، يا أمير المؤمنين، العلم يؤتى، ولا يأتي".

رد حكيم يذكر الخليفة بأن العلم خرج منهم، لأن العباسيين يدعون أنهم من نسل عم النبي ـ ﷺ ـ، لذا عليهم إعزاز العلم، لا إذلاله!.

وكان ما توقعه الإمام، فاستجاب الخليفة لرأيه، قائلًا: صدقت، ليخرج الأولاد إلى مالك". وخرجوا منفذين لشروط الإمام؛ من عدم تخطيهم الرقاب، وجلوسهم حيث ينتهي بهم المجلس![1].

إن الخليفة هارون الرشيد كان محبًا ومقدرًا للإمام، راغبًا في تعليمه وتأديبه لأولاده، على الرغم من علمه بحب عبد الرحمن الداخل، خليفة الأندلس للإمام، ومعروف ما كان بين الدولتين: العباسية والأموية من عداء وصراع!![2].

إن سلطان العلم لا يفارق مالكًا في بيته أو بيت الرشيد، فذات مرة دخل الإمام على هارون الرشيد في بيته، وبين يديه شطرنج منصوب ينظر فيه، فوقف مالك، ولم يجلس، وقال منكِرًا: "أحقٌّ هذا يا أمير المؤمنين"، قال هارون: لا، فقال الإمام مالك: "فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!".

فرمى هارون الشطرنج برجله، وقال:" لا ينصَبُ بين يديَّ بعدُ!"[3].

ولما كان الخليفة أبو جعفر المنصور في مسجد النبي ـ ﷺ ـ، ناظر الإمام مالكًا، فرفع الخليفة صوته فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله ـ ﷻ ـ أدب قومًا، فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﴿الحجرات: ٢﴾، ومدح

(١) "تزيين الممالك..."، للإمام السيوطي، ص ٤٢، ٤٣ بتصرف، و"ترتيب المدارك..."، ج٢، ص ٥٣٧.

(٢) انظر "دعوة للتعايش"، مرجع سابق، ص٩٦.

(٣) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١١٢، و د/ الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٥١.

قومًا، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿الحجرات: ٣﴾، وذم قومًا، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿الحجرات: ٤﴾، وإن حرمته ـ ﷺ ـ ميتًا كحرمته حيًا".

لما سمع الخليفة ذلك، سكن صوته واستكان!، تأدبًا مع رسول الله ـ ﷺ ـ(١).

ـ وقد كان الإمام جالسًا مع والي المدينة، فجاء أناس يثنون على الوالي، بقوة، فغضب الإمام وخاطب الوالي ـ ناصحًا ومعلمًا ومذكرًا ـ: إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك.

فاتق الله في التزكية منك لنفسك، والرضا بها ممن يقولها لك في وجهك، فإنك أعرف بنفسك منهم، فإنه بلغني أن رجلًا امتدح رجلًا عند النبي ـ ﷺ ـ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: "قطعتم ظهره، أو عنقه، لو سمعها ما أفلح"(٢)، وقال النبي ـ ﷺ ـ: "احثوا في وجوه المداحين التراب"(٣).

وذات مرة طلب هارون الرشيد من الإمام مالك أن يأتيه في قصره بالمدينة، ليطلب علمه، فرد الإمام: "إن العلم يُؤتَى، ولا يأتي"، قال هارون: "إذًا آتيك، ولكن قل للناس أن ينصرفوا، حتى أنتهي، ثم يحضروا هم للدرس"، فقال "مالك: يا أمير المؤمنين، إن العلم إذا اختص به الخاصة دون العامة لم يستفد به لا الخاصة، ولا العامة".

فحضر هارون الرشيد للدرس، فأشار مالك لتلاميذه أن يجلسوا، حيث انتهى به

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٧، و""ترتيب المدارك"، ج ١، ص ١١٤.

(٢) ورد بلفظ، قطعت عنق صاحبك..، في صحيح البخاري، ج١، ص ٢٦٦٢، وقد صححه البخاري، وفي صحيح مسلم، ج١، ص ٣٠٠٠.

(٣) صححه ابن عبد البر، في "الاستذكار "، ج٦، ص ١٠٢، وصححه ابن القيسراني في "ذخيرة الحفاظ"، ج١، ص ٢٤٤، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٦، ص ٥، رجاله ثقات، رجال الشيخين، إلا أنه مرسل. ومسند الشاميين، للطبراني، ج١، ص ١٦٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م..

المجلس، فقام الحاشية بإعطاء الخليفة كرسيًا، ليجلس عليه، فلم يعجب ذلك الوضع مالكًا، ولكنه ذكي وعاقل، فلم يقل شيئًا، وبدأ الدرس، كما يبدؤه كل مرة، ثم قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ، إن الله قال في الحديث القدسي: "من تواضع لي هكذا، وأشار بباطن كفه إلى الأرض،.. رفعته هكذا وأشار بباطن كفه إلى السماء"(١)، ونظر إلى هارون وابتسم، فقال هارون: خذوا الكرسي!".

يا له من ذكاء وتوفيق، وسداد، جعل الخليفة يطيع مالكًا، ويضع الكرسي جانبًا أمام الناس، وكان من الممكن أن يقولها له بطريقة، تثير غضب الخليفة(٢).

هذا سلوك العالم المحدث مع واحد من أشهر خلفاء المسلمين في التاريخ، سلوك يجدر بالعلماء اقتفاؤه. "ولو فعلوا لذاع العلم، وعظم العلماء، وانتفع الحكام، وما استطاعوا أن يطغوا أو يستبدوا!"(٣).

وحدث مرة أن طلب هارون الرشيد من الإمام الحضور إليه ليتعلم منه، فرد في عزة ووقار: يا أمير المؤمنين، إن العلم يُؤتىَ، ولا يأتي!. فجاءه المنصور، وجلس إلى جوار الإمام مستندًا إلى الجدار، فقال له الإمام: يا أمير المؤمنين، "إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم". فقام هارون، فجلس بين يدي الإمام، وانطلق يعلم ويزكي طلابه!.

وبعد ذلك التقى هارون بالإمام وقال له: "يا أبا عبد الله، تواضعنا لعلمك، فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة، فلم ننتفع به!".

---

(١) انظر "الروض الداني ـ المعجم الصغير"، للطبراني، ج١، ص ٣٨٥، ط١، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، ١٩٨٥م، و"جامع الأحاديث"، للسيوطي، ج٤، ص ٣١١، وانظر "إطراف المسند المعتلى بأطراف المسند الحنبلي"، لابن حجر العسقلاني، ج٥، ص ٥٨.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٧، و"مناقب سيدنا الإمام ملك"، للزواوي، ص ٧٨ بتصرف، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٧، و عبد الغني الدقر، "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ١٤١، وانظر: عمرو خالد، "دعوة للتعايش"، ط١، ٢٠٠٨م، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٩٦.

(٣) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٥١.

وكان سفيان يذهب إلى بيوت السلاطين يعلمهم ويأخذ دراهم[1].

٧ ـ التمكن من العلم الواسع العميــق

لقد تأهل الإمام مالك بقوة، قبل تصدره للفتيا والتعليم، ويذكر ذلك فيقول: "ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهلٌ لذلك"[2].

وفي رواية: "ما أجبتُ في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعًا لذلك؟. سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك"، فسئل: فلونهوك؟. فأجاب: "كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه"[3].

وكان الأئمة لا يرشحون أحدًا للإمامة إلا إذا جمع ثلاثة أوصاف مهمة:

الأول: مناسبة السن. حيث كانوا يرشحون من يتم عقله ويكتمل نضجه، ويبلغ أشده، وقد تفاوتوا في تقدير هذا السن، فحدده بعضهم بسبع عشرة سنة، وآخر بالعشرين، بل وصل عند بعضهم إلى الخمسين.

الثاني: العلم. حث ينبغي تحصيلهم علمًا واسعًا عميقًا بالكتاب والسنة، وقواعد الاستنباط، ومواطن الإجماع والاختلاف، لئلا يخالف إجماعًا قائمًا، أو نصًا شرعيًا، أو يقول ما ليس له به علم!.

الثالث: الاعتدال في نظراته وآرائه واجتهاداته، وألا يعاب هذا الشخص أو يُذم أو ينتقص؛ بخلل في فهمه، أو ضعف في عقله، أو انحراف في تفكيره... إلخ.

إن الشهرة ـ وحدها ـ لا تكفي، وكذا السن، والاطلاع على الكتب ـ وحده ـ، بل لابد من توافر مجموع صفات، تؤهل الإنسان لمثل هذه الرسالة والمقام الكبير!، الذي أسنده الله تعالى إلى رسله الكرام، فجعل لهم أمر الفُتيا، ولذلك كان العلماء الصالحون هم

(١) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٨٠، ٨١.

(٢) "السيوطي، "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، مرجع سابق، ص ٩.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٢.

ورثة الأنبياء![1].

إن القائل في الشرعيات وقضايا الدين مترجم عن رب العالمين، حسب تعبير القرافي[2]، أو موقِّع حسب تعبير الإمام ابن القيم في كتابه: "إعلام الموقعين عن رب العالمين"[3].

إن الإمام مالك كان فقيه أثر ورأي معًا، فمع أنه المحدث الراوي الفاحص الناقد فهو ـ أيضًا ـ صاحب رأي، بل مكثر منه، وقد استفاد ذلك من تتلمذه على شيخه ربيعة الرأي، وعلم شيخه يحيى بن سعيد الأنصاري، الذي كان يتمتع بمكانة ممتازة بين أهل المدينة، لعلمه ولكونه قاضي المدينة، وقد عده ابن قتيبة[4] في كتابه "المعارف"، من أصحاب الرأي، مع أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد الحسن وغيرهم.

وبذلك تنهار النظرية التي تقرر أن سبب الإكثار من الرأي هو قلة العلم بالحديث.

فما كان علم مالك بالحديث قليلًا، بل كان كثيرًا، ولكن الحوادث التي وقعت، والمسائل التي سئل فيها، كانت أكثر بقدر كبير جدًا، فكان لابد من الرأي، والإكثار منه، مادام يفتي ويستفتي، ويجئ إليه الناس من الشرق والغرب سائلين مستفتين.

وكان منحى الإمام في الرأي أن يتعرف على المصالح في كل أمر لم يرد فيه كتاب ولا سنة، ولا أثر، فالمصلحة عنده مقياس ضابط لكل ما هو شرعي، وما هو غير شرعي، مادام لم يكن نص من كتاب أو سنة شاهدة بالتحريم، أو أثر مرجح له.

وهو بهذا يفهم الشرع الإسلامي فهمًا يجعله قريبًا من مصالح الناس، ويجعله واضحًا في هذه المصالح، بحيث يجد الناس فيه المثل العليا السامية، ويجدون فيه احترامًا للمصالح البريئة الواقعة.

---

(١) "مع الأئمة"، ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) انظر: الإمام القرافي، "الفروق"، ج١، ص ٥١، و ج٢، ص ١٠٢.

(٣) ابن القيم، "إعلام الموقعين"، ج٤، ص ١٤٤.

(٤) ابن قتيبة، قاضي القضاة بمصر، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، البغدادي الكاتب، مات بمصر في شهر ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١٤، ص ٥٦٥.

ـ بهذا اتسع فقه الإمام، واستطاع مسايرة العصور المختلفة، والحضارات المتباينة، حتى إننا لنجد آراءه في المذهب المالكي تسبق أعظم ما وصل إليه الغرب من آراء في الفقه(١).

وكان يحضر مجالس علم مالك الخلفاء، أربعة خلفاء من أكبر خلفاء الدولة العباسية والعالم الإسلامي: الهادي(٢)، وهارون الرشيد، والأمين(٣) والمأمون(٤)، هؤلاء الخلفاء ما كانوا يحضرون دروسه بالصدفة في طريقهم للحج ـ مثلًا ـ، بل كانوا يخرجون من العراق، خصيصًا، لحضور درس مالك.

وكان يحضر الدروس الأمراء والولاة، وكل أساطين العلم، مثل أبي حنيفة الذي يكبره بثلاثة عشر عامًا، جاء من العراق ليحضر درسه!(٥).

وكذا محمد بن الحسن، جاء من العراق، لحضور دروسه، والإمام أبو يوسف، وهما أكبر وأنجب أصحاب وتلاميذ الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وحضر الدروس ـ أيضًا ـ الليث بن سعد، عالم مصر الكبير، وجاء من مصر خصيصًا

---

(١) "مالك حياته وعصره..."، مرجع سابق، ص ٢٢، ٢٣، و ص ٢٥٦، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢) الخليفة الهادي: هو أبو محمد موسى بن المهدي، ولي عهد أبيه ثم ستلم الخلافة بعد أبيه، كان فصيحاً لسناً، مهيبا، عظيم السطوة، مات عام ١٧٠هـ عن ٢٣ عاماً، وكانت خلافته سنة وشهراً، وقام بعده الرشيد. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١٣، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٣) الخليفة الأمين: أبو عبد الله، محمد بن هارون الرشيد، بن المهدي محمد بن المنصور، الهاشمي، العباسي، البغدادي، عقد له أبوه بالخلافة بعده، كان ذا قوة وشجاعة وأدب وفصاحة، لكنه سيئ التدبير، مفرط، أرعن، عاش ٢٧ عاماً، وقتل في المحرم سنة ١٩٨هـ، وخلافته دون الخمس سنين. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٩.

(٤) الخليفة المأمون: هو الخليفة أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، ابن أبي جعفر المنصور، العباسي، ولد عام ١٧٠هـ، كان من رجال بني العباس حزماً، ورأياً وهيبة وحلماً، ومحاسنه كثيرة في الجملة، بويع بالخلافة عام ١٩٨هـ، وتوفى عام ٢١٨هـ، عن ثمان وأربعين سنة، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ١٩، ص ١٥٤ ـ ٢٦٩.

(٥) أ/ عبد الحليم الجندي،، "أئمة الفقه الإسلامي"، مرجع سابق، ص ٨٩، و"دعوة للتعايش":، ص ٩٥.

لهذا، أما الشافعي ـ تلميذه ـ فقد تتلمذ وتعلم من علمه وأدبه وتقواه، ليصبح ـ بعد ذلك ـ ناصر السنة، ومالئ الدنيا علمًا وحكمة!.

إن المسجد النبوي امتلأ ببشر من جميع أنحاء العالم، طلبًا للعلم والهدى على يد الإمام(١).

وكان الناس يزدحمون على بابه، لأخذ الحديث والفقه، كازدحامهم على باب السلطان، وله حاجب يأذن أولًا للخاصة، فإذا فرغوا أذن للعامة(٢).

وقد حكي سعيد بن منصور موقفًا رآه يبين عظم قدر الإمام مالك واتباع العلماء له. خلاصته رؤيته الإمام مالكًا يطوف بالبيت، وخلفه الإمام الجليل سفيان(٣) الثوري يتعلم منه، كما يتعلم الصبي من معلمه، كلما فعل مالك شيئًا فعله سفيان، يقتدي به"(٤).

لقد اهتم الإمام مالك ـ بقوة ـ بفتاوى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ، فقد كان عصره عصر ازدهار الدولة الإسلامية، ففتحت الأمصار، واتسع شأن الفكر الإسلامي والفقه، لاستنباط الحكام الشرعية المنسابة للوقائع الجديدة.

ولذلك عُني بتعرف فتاويه ـ ﷺ ـ، وفتاوى من خلفه في المكانة العلمية، وفي الإفتاء، وفقه الدين، وهو زيد بن ثابت(٥)، ومن خلفه، وهو عبد الله بن عمر.

ومن يتصفح الموطأ يدرك بسهولة أن فقه عمر وأقضيته وسننه مهيمنة عليه بعد سنة

---

(١) "دعوة للتعايش"، ص ٩٥.

(٢) الإمام جلال الدين السيوطي، "تنوير الحوالك، على موطأ الإمام مالك"، تحقيق: محمد عبد السلام، ط. دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٠م، ج١، ص ٥.

(٣) سفيان الثوري، هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أمير المؤمنين في الحديث، حجة، حافظ فقيه كبير، ولد عام ٩٧هـ، وتوفى في عام ١٦١هـ، انظر "صفة الصفوة"، ج٢، ص ٨٥ ـ ٨٧، وانظر "الأعلام"، للزركلي، ج٣، ص ١٠٤.

(٤) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٦٧.

(٥) زيد بن ثابت بن الضحاك، أبو سعيد، وقيل أبو خارجة، أحد كتاب الوحي، جمع القرآن بأمر الخليفة الراشد أبي بكر، أخبر النبي ـ ﷺ ـ أنه أعلم الأمة بالفرائض، توفى بالمدينة عام ٤٥هـ، وقيل غير ذلك، عن ست وخمسين سنة. انظر" صفة الصفوة"، ج١، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦.

رسول الله ـ ﷺ ـ[1].

ولقد قال بعض علماء الأثر: كان إمام الناس بعد عمر زيد بن ثابت، وبعده عبد الله بن عمر، وأخذ عن زيد أحد وعشرون رجلًا، ثم صار علم هؤلاء إلى ثلاثة: ابن شهاب، وبكير بن عبد الله، وأبي الزناد، وصار علم هؤلاء كلهم إلى مالك بن أنس"[2].

وفي ذلك يقول: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم من رجال في الروضة (روضة مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ)، وهم: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد[3] بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان[4] ابن يسار، ونافع، ثم نقل عنهم ابن هرمز، وأبو الزناد، وربيعة، ويحيى بن سعيد الأنصاري وبحر العلم ابن شهاب، وكل هؤلاء يُقرأ عليهم ولا يقرأون"[5].

وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من العلماء الكبار تتلمذ عليهم مالك، ولازمهم، وتلقى عنهم مع غيرهم من العلماء الكبار[6].

إن الإمام كان ذا مواهب عالية وشخصية فذة، أورثت الناس ذلك العلم الغزير، وذلك الفقه المرن الذي لم يبتعد عن طريق السنة، وجادة الكتاب الكريم.

---

(١) انظر: د/ محمد القياتي، محمد في رسالته، "مقاصد الشريعة عند الإمام مالك بين النظرية والتطبيق"، ط. دار السلام، ط٢، ٢٠١٢م، المجلد الأول، ص ٢٤٥.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٨٧، و"تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ٤٣.

(٣) عبد الرحمن القاسم: هو عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر الصديق، من خيار وكبار التابعين، كان ثقة إمامًا فقيهًا، وهو أحد الفقهاء السبعة. توفى عام ١٠١هـ، وقيل غير ذلك. انظر " تهذيب التهذيب"، ج٨، ص ٢٩٩.

(٤) سليمان بن يسار، المدني، مولى أم المؤمنين ميمونة، أبو أيوب، الفقيه، مفتي المدينة وعالمها، ولد في خلافة عثمان، وحدث عن مجموعة من الصحابة، وحدث عنه كثيرون. كان ثقة، عالمًا رفيعًا، كثير الحديث، مات سنة ١٠٧هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٥٠٠، و ج٨، ص ١ ـ ٤، و"تهذيب التهذيب"، جج٤، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٥) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٣، ٦٤.

(٦) "مالك، حياته وعصره...."، ص ٩٣، ٩٤، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص.

تحت ظل هذين المصدرين الكبيرين "الكتاب والسنة"، وفي الغذاء الصالح الذي وجده في تراث الصحابة والتابعين، استطاع إخراج فقه يلبي مصالح الناس، ويساير أحوالهم، ولا يتجافى عن شئون الحياة، ويأخذ بأيدي المجتمعات إلى المثل العليا من التهذيب الديني والخلق الحسن، والورع والتقى، والعفاف، والكمال![1].

وكان المحدث الفاحص للرجال، الممحص لما يتلقى، الذي يعمل على التوفيق بين المأثور عن النبي ﷺ - وبين كتاب الله - سبحانه -.

وكان في الفقه الإمام الذي يُرجَع إليه ويُهتدي بهديه، وتوزن الآراء على رأيه، يستنبط من كتاب الله، ثم من السنة، ثم من أقوال السلف وأقضيتهم، ويخرِّج عليها، ويدرس ما يجدَ من الوقائع على ضوء ما علم، بعقل فاهم، وبصيرة نافذة[2].

- والرأي الذي أُثر عن الصحابة والتابعين هو ما يراه القلب والعقل الرشيد، بعد فكر وتأمل، وطلب لمعرفة وجه الصواب، مما تتعارض فيه الأمارات.

ويرى الشيخ أبو زهرة أن من يراجع فتاوى الصحابة والتابعين ومن سلك مسلكهم يفهم من معنى الرأي ما يشمل كل ما يفتي فيه الفقيه في أمر لا يجد فيه نصًا، ويعتمد في فتواه على ما عُرف من الدين، بروحه العام، أو ما يتفق مع أحكامه في جملتها في نظر المفتي، أو ما يكون مشابهًا لأمر منصوص عليه فيها، فيلحق الشبيه بالشبيه، وعلى ذلك يكون الرأي شاملًا للقياس والاستحسان، والمصالح المرسلة والعرف[3].

٨ - تقديم فقه ينظم حياة الناس ويحقق مصالحهم.

لقد كان للإمام مالك مذهب فقهي متميز.

والمذهب في اللغة: مصدر ميمي، يُطلق على الطريقة ومكان الذهاب وزمانه، وفي

(١) "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ٩١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٧، و د/ الشكعة، "الإمام مالك"، ص ١٢٥.

(٣) "مالك، حياه وعصره، آراؤه وفقهه"، ص ١٤٩، ١٥٠، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص١٠٧.

الاصطلاح، قال الإمام القرافي[1]: "مذهب مالك ما اختص به من الأحكام الشرعية، الفروعية الاجتهادية، وما اختص به من أسباب الأحكام والشروط، والموانع، والحجاج المثبتة لها"[2].

وقال العلامة أحمد الدردير[3]: "مذهب مالك، ـ مثلًا ـ عبارة عما ذهب إليه من الأحكام الاجتهادية التي بذل وسعه في تحصيلها"[4].

إن مذهب الإمام مالك ـ الذي لزم المدينة لا يعدوها ـ مذهب خصب، يتسع في أصوله لمختلف البيئات والأزمنة، لأنه كان يأتيه في المدينة ـ زائرين ومتعلمين ـ الوفود من شتى البلاد، فيعلم أعراف الناس وأحوالهم، واختلاف مشاربهم، وتضارب منازعهم، وبذلك وجد الإمام المادة التي تغذي فقه الفقيه، وتمده بالعلم الغزير، ويعرف منها ما يصلح للناس، وما يطلب به لأدوائهم، وما يستقيم مع معاملاتهم.

وقد استفاد مذهب الإمام من وجوده في المدينة فائدة عظيمة أخرى، هي حب تلاميذه لجوار الرسول ـ ﷺ ـ بالمدينة، ولزومهم الإمام أتم ملازمة، وعندما فارقوه إلى بلادهم نشروا فتاويه ومسائله، وكانوا رسله إلى تلك البلاد النائية، يتصلون به فيما

---

(١) الإمام القرافي، هو شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن أبي العلاء، إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله، الصنهاجي، البهنسي المصري، ولد عام ٦٢٦هـ، ألف تآليف عديدة بديعة، تعد مراجع رئيسية في علوم إسلامية كثيرة، توفى ـ رحمه الله ـ عام ٦٨٤هـ، ودفن بمصر، انظر "شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ١٨٨، ١٨٩، و"الأعلام"، للزركلي، ج١، ص ٩٠.

(٢) الإمام القرافي، "الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام"، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية، بحلب، باعتناء العلامة أبو غدة ـ ~ ـ، ص ١٩٥.

(٣) الدردير: هو شيخ الإسلام، أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، أبو البركات، الشهير بالدردير، فاضل من فقهاء المالكية، ولد في بني عدي بمصر وتعلم بالأزهر وتوفى بالقاهرة، وكان من كبار الصوفية في عصره، له مصنفات عديدة وكتب أخرى مهمة في المذهب المالكي، منها "أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك". كان يصدع بالحق، ورعًا زاهداً، كريمًا، ولد عام ١٧١٥هـ، وتوفى عام ١٧٨٦هـ ـ ~ ـ. انظر "الأعلام"، للزركلي، ط٢، ص ٢٤٤، و"شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٣٣٥.

(٤) انظر: "حاشية الدسوقي على الشرح الكبير"، ص ١٩١.

يعرض لهم من مسائل، بالكتب يكتبونها، وبالمذاكرة إن جاءوا إليه في موسم الحج، فانتشر بذلك مذهبه في حياته، في مصر وبلاد المغرب.

إن مذهب الإمام قد استفاد من ذلك كما ـ في رأي الإمام أبو زهرة ـ، فائدتين محققتين ثابتتين:

إحداهما: أنه كان يحاول مع تلاميذه المواءمة بين أعراف الناس وفقهه.

ثانيتهما: تشعب مسائله، وكثرة فتاويه، وتوسع مسائل الاستنباط، وكثرة الفروع التي استنبطت.

لذا وجدنا فقه الإمام متصلًا ـ بقوة ـ بالحياة الواقعية، ومصالح الناس(١).

لقد بين الإمام منهجيته في الاستنباط ومعالمها، وأصلها ووضعها في كتبه كالموطأ، وفي رسائله إلى الإمام الليث، وفيما استفاض من المنقولات عنه، ودافع عنها، وتابعه عليها أئمة المذهب(٢).

ومما يبين ذلك سؤال وجه إليه عن ذلك، حيث قيل له: قولك في الكتب: الأمر المجمع عليه، والأمر عندنا أو ببلدنا، وأدركت أهل العلم، وسمعت بعض أهل العلم، ما معنى ذلك؟

أجاب الإمام موضحًا: ما أكثر ما في الكتاب برأيي؟، فلعمري، ما هو برأيي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم، الذين أخذتُ عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله، فكثُر عليَّ، فقلتُ: رأيي. وذلك رأيي إذا كان رأيهم مثل رأي الصحابة، أدركوهم عليه، وأدركتُهم أنا على ذلك، فهذا وراثة توارثوها قرنًا عن قرن إلى زماننا.

وأما قولي: وما كان أرى، فهو رأي جماعة ممن تقدم من الأئمة.

وما كان فيه " الأمر المجتمع عليه"، فهو مما اجتمع عليه قوم من أهل الفقه والعلم

(١) الشيخ/ أبو زهرة، "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، مرجع سابق، ص ١٨، ١٩، وص ١٠٦.

(٢) انظر في ذلك بحث د/ محمد بن حمادي، مرجع سابق، ص ١٠١ ـ ١٠٢، ١٠٤.

لم يختلفوا فيه.

وما قلتُ "الأمر عندنا" فهو ما عمل به الناس عندنا، وجرت به الأحكام، وعرفه الجاهل والعالم، لم يختلفوا فيه، وذلك ما قلتُ فيه "ببلدنا".

وما قلت فيه "بعض أهل العلم"، فهو شيء أستحسنه من قول العلماء، وأما ما لم أسمع منهم، فاجتهدتُ ونظرتُ على مذهب من لقيتُ، حتى وقع ذلك موقع الحق، أو قريبًا منه، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه، فنسبتُ الرأي إلى نص الاجتهاد مع السنة، وما مضى عليه أهل العلم، المقتدى بهم، والأمر المعمول به عندنا، منذ لدن رسول الله ـ ﷺ ـ، والأئمة الراشدين، مع من لقيت، فذلك رأيهم ما خرجتُ إلى غيرهم"(١).

وقد نهج الإمام في ترتيب الأدلة، من حيث الاعتماد عليها والأخذ منهجا متفردًا متميزًا، على النحو التالي:

أولًا: القرآن. ثانيًا: الإجماع. ثالثًا: الآثار المقرونة بعمل أهل المدينة. رابعًا:العمل (أي عمل أهل المدينة)،إذا كان معارضًا للآثار.

خامسًا: خبر الواحد. سادسًا: القياس والاعتبار(٢).

لقد تفرد الإمام بنهجه في الأدلة منهجًا متميزًا، "مرتبًا لها مراتبها ومدارجها، مقدمًا كتاب الله، ومرتبًا له على الآثار، ثم مقدمًا لها على القياس والاعتبار، تاركًا منها لما لم يتحمله عنده الثقاة العارفون بما تحملوه، أو ما وجد الجمهور والجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره، وخالفوه، ثم كان من وقوفه عن المشكلات، وتحريه عن الكلام في المعوصات ما سلك به سبيل السلف الصالحين، وكان يرجح الاتباع، ويكره

(١) انظر "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ،و"الديباج المذهب، ج١، ص.

(٢) د/ محمد فاتح زقلام، "الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها"، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٧٣، بتصرف.

الابتداع، والخروج عن سنن الماضين"(١).

وقد قال الإمام مبينًا عدم عصمة رؤاه، وأنه معتمد على الكتاب والسنة، لا يتجاوزهما،: "إنما أنا بشر، أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"(٢).

وقد بين الإمام للخليفة أبي جعفر المنصور هذه المنهجية الأصولية، لما طالبه بإلزام الناس بالموطأ، فقال له: "لا تفعل، فإن في كتابي هذا: حديث رسول الله ـ ﷺ ـ، وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأيًا هو إجماع أهل المدينة، لم أخرج عنهم"(٣).

وهذه جملة من أصول منهجية الإمام مالك الأصولية، وردت في مؤلفاته وتعليمه:

١ ـ سد الذرائع إلى المحرمات.

٢ ـ تقديمه العمل الظاهر، المتصل بالمدينة على حديث الآحاد، حال التعارض، وكان للإمام مستنده في رؤيته، وهو الوراثة والمعاينة والمشاهدة، ومما قاله في ذلك: "رأيتُ محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، ـ وكان قاضي المدينة ـ، قضي في قضية جاء فيها الحديث مخالفًا للحكم، فجاء أخوه يعاتبه، قائلًا له: ألم يأت في هذه حديث كذا؟، فيقول: بلى، فقال له أخوه: فمالك لا تقضي به؟، فرد محمد بن أبي بكر: فأين الناس منه؟"،يعني ما أجمع عليه من العمل بالمدينة،فهو يرى أن العمل به أقوى من الحديث(٤).

٣ ـ ترجيح رأي أهل المدينة واجتهادهم على اجتهاد غيرهم.

٤ ـ التأسي والتقيد بمنهاج أهل المدينة، وطريقتهم في الاجتهاد والاستنباط، والسبب ذكره الإمام، فقال: "انصرف رسول الله ـ ﷺ ـ من بعض مغازيه في كذا وكذا ألفًا

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٩.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) "المرجع السابق"، للقاضي عياض، ج١، ص ٧٢.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٤٥.

من الصحابة، مات منهم بالمدينة نحو من عشرة آلاف، وتفرق باقيهم في البلدان، فأيهما أحق وأحرى أن يُتبَعوا ويؤخذ بقولهم، ويُعمل بعلمهم؟: من مات عندهم النبي ـ ﷺ ـ، وأصحابه الذين ذكرتهم، أو من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحابه؟"(١).

٥ ـ القول بالعموم.

٦ ـ اعتبار كثرة القصد شرطًا في التهمة الموجبة للمنع من وسائل الممنوع.

٧ ـ الرسوخ في اللسان العربي شرط من شروط الاجتهاد والنظر.

٨ ـ وجوب النظر والاستدلال.

٩ ـ الصواب غير منحصر في رأي أي كان، إذ المجتهد غير معصوم عن الخطأ(٢).

❁❁❁

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٤٦.

(٢) د/ محمد بن حمادي التمسماني، "منهجية الإمام مالك الأصولية..."، مرجع سابق، ص ١٠٤، وص ١١٣، ١٤٤، وص ١١٩.

خصوصيات المذهب المالكي

خصوصيات المذهب على مستوى أصول الفقه

يمتاز المذهب المالكي على مستوى أصول الفقه بمزايا عديدة،وخصوصيات مهمة، من أهمها:

أولًا: وفرة مصادره، وكثرة أصوله:(١)

تمثلت في: الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، وعمل أهل المدينة، والقياس، والاستحسان، والاستقراء، وقول الصحابي، أي رأيه الصادر عن اجتهاده، وشرع من قبلنا، والاستصحاب، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع وفتحها، والعرف، والأخذ بالأحوط، ومراعاة الخلاف، وغير ذلك من أصول، بالإضافة إلى القواعد العامة المتفرعة عنها، والتي أنهاها بعض المالكية إلى ألف ومائتي قاعدة، تغطي جميع أبواب الفقه ومجالاته.

هذه الكثرة أغنت الفقه المالكي، وأعطته قوة وحيوية، ووضعت بين أيدي علمائه من وسائل الاجتهاد وأدوات الاستنباط، ما يؤهلهم لبلوغ درجة الاجتهاد، ويسهل عيهم ممارسته.

وإذا كانت بعض المذاهب شاركت المذهب المالكي في بعض هذه الأصول، فإن ميزة الفقه المالكي تكمن في الأخذ بجميع هذه الأصول، بينما غيره لم يأخذ إلا ببعضها، ورد الباقي.

ثانيًا: تنوع هذه الأصول والمصادر:(٢)

إذ تراوحت بين النقل الصحيح الثابت، والرأي الصحيح المستمد من الشرع،

---

(١) د/ محمد التاويل، "خصائص المذهب المالكي"، دراسة بالإنترنت، و"الإمام مالك، حياته، عصره، آراؤه وفقهه"، لأبي زهرة، ص ٢١٨، وانظر "الإمام مالك.."، د/ مصطفى الشكعة، ص ١٠٨ ـ ١١٠، ١٢٦، و"منهجية الإمام مالك الأصولية..."، ص ١٠٦، ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) "خصائص المذهب المالكي"، دراسة بالإنترنت.

والمستنِد إليه، كالقياس.

هذا التنوع في الأصول والمصادر، والمزاوجة بين العقل والنقل، والأثر والنظر، وعدم الجمود على النقل، أو الانسياق وراء العقل وحده، هي الميزة التي ميزت المذهب المالكي عن مدرسة المحدثين، ومدرسة أهل الرأي، وهي سر وسطيته، وانتشاره، والإقبال الشديد عليه، وضرب أكباد الإبل إلى إمامه في أيام حياته .

وقد شهد ابن تيمية لأصول الإمام مالك بأنها أصح الأصول، والقواعد، المأخوذة من أصول الإسلام وقواعد الشريعة، فقال: "من تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد"(١).

وقال الشافعي: أما أصول أهل المدينة، فليس فيها حيلة من صحتها"(٢). وشهد أئمة آخرون بمثل ذلك، وكانوا أشد الناس تعظيمًا لأصوله وقواعده، ومتابعة له فيها، وهم متفقون على أن مذهب أهل المدينة رأيًا ورواية أصح مذاهب أهل المدائن الإسلامية في ذلك الوقت(٣).

لقد تلقى مالك فقه الفقهاء السبعة بالمدينة، وفقه غيرهم، وتلقى الأحاديث منهم، ومن غيرهم، ثم مكث يعلم تلاميذه، ويفتي من يقصده، من مشارق الأرض ومغاربها بما سمع، فإن لم يكن فيما سمع وتلقي ما يجيب به، أفتى بشبيه ما سمع.

وإن فقد الشبيه فيما يعلم وتلقى اجتهد فاستخرج الحكم من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، من نص الخطاب أو فحواه، أو إشارته أو مفهومه، موازنًا بين النصوص؛ يزن السنة بما في الكتاب، ويستخدم القياس في استنباطه، إن لم يجد مسعِفًا من النص، واستطاع أن يحمل عليه.

وإن وجد مصلحة أفتى بما فيه المصلحة التي لا يشهد لها من الشارع نص، ولم

---

(١) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ج٢٠، ص ٣٢٨.

(٢) "ترتيب المدارك.." ج١، ص ٤٠.

(٣) انظر "منهجية الإمام مالك الأصولية.."، ص ١٣١، ١٣٢.

يُعرف ما يمنع الأخذ بها، لأن الأخذ بالمنافع هو الأصل العام في هذا الفقه، وهو في ذلك الفقيه الثاقب النظر الذي تنفذ بصيرته إلى الأمر الثاقب، بتوفيق الله ـ تعالى ـ(١).

ثالثًا: القابليـة للتطـور واستيعاب مشاكل العصـر

لقد مكن الفقه المالكي بأصوله، خاصة المصالح المرسلة، وسد الذرائع، والاحتكام إلى العرف والعادات الحميدة، علماء المسلمين، من اعتماد أقوال مرجوحة أو خارجة عن المذهب، تتناسب مع الظروف الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والأمنية التي كانوا يعيشونها، مما أغناهم عن الاستيراد والتبني والتقليد، والاقتباس من غير المسلمين، وساعدهم على المحافظة على الهوية الإسلامية، ومصالح المسلمين.

هذه القابلية للتطور والتجديد الفقهي محصورة ومحدودة في ساحة المسكوت عنه، أو المخيَّر فيه، أو المختلف فيه.

أما المنصوص عليه، أمرًا ونهيًا، فإنه من الثوابت التي لا تقبل التغيير، ولا يجوز المساس به، باسم المصلحة المرسلة، أو العادة المتجددة، لأن ذلك يعتبر نسخًا للشريعة!.

لقد توسع المذهب في استثمار الأصول المتفق عليها توسعًا كبيرًا، مما ساعد ويساعد على سد الفراغ الذي يمكن أن يحس به المجتهد عند ممارسته الاجتهاد والاستنباط، وقد توسع في باب القياس، فقبل أنواعًا من القياس، لا يقبلها غيره.

بينما نجد كثيرًا من الفقهاء يردون بعض أنواع القياس، ويضيقون مجالات المقبول منه عندهم، فلا يقبلون القياس على ما ثبت بالقياس، ولا القياس المركب، والقياس على مخصوص، وقياس العكس، ولا يجيزون القياس في الحدود والكفارات، والرخص، والتقديرات، والأسباب والشروط والموانع(٢).

---

(١) "مالك، حياته، عصره..."، ص ٢١٨.

(٢) د/ محمد التاويل، "خصائص المذهب المالكي.."، مرجع سابق، و د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك...."، ص ١٢٨، و د/ محمد بن حمادي التمسماني، "منهجية الإمام مالك الأصولية..."، مرجع =

خصوصيات المذهب على مستوى الأحكام الفقهية

أولًا: رحابة صدره، وانفتاحه على غيره من المذاهب الفقهية، والشرائع السماوية السابقة.

لقد كان مستعدًا للتعايش مع الجميع، والاعتراف به، والاستفادة منه.

وانطلاقًا من إيمان الإمام بحرية الاجتهاد ووجوبه، وأنه لا يقلد مجتهد غيره، رأى ما يلي:

١ ـ اتخاذ شرع من قَبلنا شرعًا لنا، ما لم يرد ناسخ، وبهذا أخذ المالكية بمشروعية الجعالة، والكفالة، من شريعة يوسف ـ عليه السلام ـ، كما حكاه الله عنه في قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ ﴿يوسف: ٧٢﴾.

كما استدلوا على مشروعية القسمة بقول نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ ﴿الشعراء: ١٥٥﴾، وعلى جواز الإجارة والنكاح على منافع، بقول صاحب مدين لنبي الله موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ ﴿القصص: ٢٧﴾.

٢ ـ إباحة الاقتداء بالمخالف في الفروع، ولو ترك شرطًا من شروط الصلاة، أو ركنًا من أركانها في الفقه المالكي، إذا كان الإمام لا يراه شرطًا ولا ركنًا في مذهبه، مثل الصلاة وراء من نام ولم يتوضأ، أولا يقرأ الفاتحة في الصلاة، أو يفتتح الصلاة بغير تكبيرة الإحرام، على مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ(١).

٣ ـ رفض الإمام تكفير المسلمين بالذنب والهوى.

٤ ـ تصحيح المذهب حكم المخالف لمذهب مالك، ومنع نقضه، وإن خالف المشهور أو الراجح في المذهب المالكي، وهي القاعدة المعروفة بـ "حكم الحاكم يرفع الخلاف، ما لم يحل حرامًا".

= سابق، ص ١٠٤، ١٠٥.

(١) د/ محمد التاويل، "خصائص المذهب المالكي..."، مرجع سابق، بالإنترنت.

٥ ـ تقرير المذهب المالكي في باب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، أن المختلف فيه لا يجب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي قاعدة من أهم القواعد التي حققت التعايش بين المذاهب والطوائف المختلفة، وتحفظها من الصراع المذهبي والطائفي(١).

٦ ـ قرر المذهب أنه إذا لم يوجد نص للمالكية في النوازل المعروضة، فإنه يعمل فيها بالفقه الشافعي، أو الحنفي، أو غيرهما.

٧ ـ رفض مالك فرض مذهبه وموطئه على جميع الأئمة، حين عرض عليه خلفاء عباسيون ذلك، واعتذر عن ذلك!.

٨ ـ استحسانه العمل برأي المخالف، له في بعض مواطن الخلاف، من باب الورع، والخروج من الخلاف وعند الحاجة، أو لغير ذلك من الأسباب، مثل: قراءة البسملة سرًا، وقراءة الفاتحة خلف الإمام، للخروج من خلاف الإمام الشافعي، لذا، رُوي عن مالك أنه دخل المسجد بعد صلاة العصر، وجلس، ولم يصل تحية المسجد، فقال له صبي ـ (لا يعرف الإمام)،: قم يا شيخ، فاركع ركعتين!، فقام، فصلاهما، فلما سئل في ذلك، قال: خشيتُ أن يصدق عليَّ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ﴿المرسلات: ٤٨﴾.

٩ ـ قبول رواية المبتدع، إذا لم يكن داعيةً لمذهبه، ولم يكن ممن يستحل الكذب(٢).

هكذا يتضح مدى انفتاح الفقه المالكي على غيره، ومصالحته له، وتعايشه مع باقي المذاهب في سلام وتفاهم ووئام، وإمكان الأخذ عنه، والاقتباس منه .

ثانيًا: رعاية الإمام لمصالح الناس

المصلحة في اصطلاح الأصوليين هي: ما اتفق مع مقاصد الشريعة، من جلب نفع، أو دفع ضرر.

(١) المرجع السابق.

(٢) "خصائص المذهب المالكي..."، مرجع سابق، بالشبكة العنكبوتية.

وقد أكثر الإمام مالك من الاعتماد على المصلحة المعتبرة،ويعتبر حامل راية العمل بالمصلحة المرسلة. ووضع مع أصحابه الضوابط لها.

وقد برزت المصلحة واضحة بقوة في كل مناحي حياته الفكرية والسياسية، فلم يستعد السلطة السياسية، ولم يتعامل بقسوة معها، واختار سبيل الإصلاح، الذي رآه أوفق وأسلم للأمة والدين، حاضرًا ومستقبلًا.

وكانت المصلحة ـ أيضًا ـ مستنده في دخوله على الأمراء قبل أن يتسلم منصب الرقابة عليهم، على الرغم مما أخذه الناس عنه في ذلك.

إن منهج الإمام مالك في الاستناد إلى المصلحة المعتبرة لجدير أن يتبعه القائمون على مدارس الفكر السياسي المعاصر، والأحزاب السياسية الإسلامية في مسألة المشاركة السياسية، والخطاب السياسي الإسلامي .

إن الإمام كان يسير في استنباطه ونظرته على أساس معالجة شئون الجماعة، بما يكون فيها خيرها، وصلاحها، وأن تكون أمورها ميسرة، لا عنتَ فيها ولا ضيق، ولا حرج ولا مشقة(١).

وقد حرص الإمام على أن تتم الملائمة بين المصلحة التي أخذ بها وبين مقاصد الشرع في الجملة، بحيث لا تنافي أصلًا من أصوله، ولا دليلًا من أدلته القطعية، مع تلقي العقول لهذه المصالح بالقبول والرضا، وضمان تحقيقها رفع الحرج، والمشقة عن الناس.

إذن لا سير للأمور على مقتضي الهوى والشهوات في أمر المصالح.

وقد سلك الإمام مالك في نظرته للمصلحة مسلكًا وسطًا بشأن الموقف من النص، وتدخل العقل في إدراك المصلحة، فلم يجعل أحكام العقل في المصالح تعدو طورها، وتجوز موضعها، فلم يجعلها معارضةً للنصوص القاطعة، والأحكام الإجماعية، ولم يضيق على العقل، فيحجر عليه أن يدرك المصالح إلا عن طريق النصوص، بل كان

(١) "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٨٠١، ٨٠٢.

مسلكـه بين ذلك قوامًا، من غير إفراط ولا تفريط، فكان المذهب الخصب الثري بالمعاني(١)، من غير شطط ولا مجاوزة للاعتدال، وكان فيه علاج لأدواء الناس، ومرونة تجعله يتسع لأعراف الناس، وأحوالهم على اختلاف منازعهم وبيئاتهم، من غير ابتداع ولا خروج، فلم يخرج عن نطاق الاقتداء والاتباع(٢).

ثالثًا: المرونـة في معالجة كثير من القضايا الشائكة، والحالات المستعصية:

بفضل مبدأ مراعاة الخلاف الذي اتخذه أصلًا من أصوله الفقهية التي بني عليها فقهه، تمكن من حل المشاكل الطارئة، ويتجلى ذلك فيما يلي:

١ ـ تصحيح المذهب المالكي بعض العقود الفاسدة بعد وقوعها، مراعاة لقول المخالف، بشرط أن يكون ذلك القول مؤسسًا على دليل قوي في نفسه.

٢ ـ ترتيب آثار العقود الصحيحة على العقد الفاسد المختلف فيه أيضًا، وكمثال على ذلك، الأنكحة الفاسدة المختلف فيها، فإن الفقه المالكي يصحح بعضها بعد الدخول، ويلحق فيها الولد بالزوج، ويوجب فيها التوارث بين الزوجين، ويعتد بالطلاق الواقع فيها.

وفي البيوع الفاسدة ينتقل فيها الضمان للمشتري بالقبض، وإذا فات المبيع يمضي بالثمن، بينما الفقه الشافعي يرى فسخ البيع الفاسد، ولو تداولته الأيدي، كما يرى فسخ الأنكحة الفاسدة، ولو ولدت الزوجة الأولاد،... إلخ(٣).

رابعًا: السماحـة والتيسير في أحكامه وآرائه

كان رائده في ذلك الكتاب والسنة، وما استنبطه منهما، من قواعد أصولية، ومبادئ فقهية، ساعدته على اتخاذ أيسر الحلول، وأخف الحكام وأسهلها، من هذه القواعد قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿الحج: ٧٨﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ

(١) "مالك، حياته، عصره، آراؤه وفقهه"، مرجع سابق، ص ٣٤٢.

(٢) المرجع سابق، ص ٣٤٢ـ٣٤٥.

(٣) "خصائص المذهب المالكي..."، مرجع سابق، بالإنترنت.

بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ ﴿البقرة: ١٨٥﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾، وقوله ﷺ: "يسروا ولا تعسروا"(١)، وقوله: "إياكم والغلو في الدين"(٢).

أما المبادئ الفقهية، فعديدة، منها: المشقة تجلب التيسير، والضر يُزال، والضرورات تبيح المحظورات، والأصل في الأشياء الطهارة والإباحة، وغير ذلك من المبادئ والقواعد التي كان لها انعكاس إيجابي في مختلف أبواب الفقه، في العبادات والمعاملات والمنازعات، وشئون الأسرة، وغير ذلك من أبواب الفقه التي جاء فيها المذهب المالكي أكثر تيسيرًا وتسامحًا، وأكثر استجابة لحاجات الناس في عبادتهم ومعاملاتهم، وأرفق بهم، وأصلح لهم في دينهم، ودنياهم، مما جعل الإمام أبا حامد الغزالي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ بعد المقارنة بين المذاهب الفقهية في باب المياه، يقول: "وددتُ لو كان مذهب الشافعي في المياه كمذهب مالك"(٣).

إن الإمام كان له طريقة ومنهج في التفكير، بناه على دعامتين كبيرتين هما:

١ ـ تحقيق مصلحة الناس.

٢ ـ التيسير على الناس.

وكان يضع نفسه مكان الآخر، وهذا هو صميم التعايش، إننا نفكر في أنفسنا وفي آرائنا واحتياجاتنا فقط! ـ في الغالب ـ.

إن أفضل شخص هو الذي يضع نفسه مكان الآخر، وينظر من زاوية الآخر، الأفضل هو الأب الذي يضع نفسه مكان ابنه المراهق، ليعلم طريقة تفكيره، واحتياجاته، والزوج الذي يضع نفسه مكان زوجته، ليعلم سبب اختلافهما!.

---

(١) صحيح البخاري، ج١، ص ٦٩، وصحيح مسلم، ج١، ص ١٧٣٤.

(٢) صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، باب: رمي جمرة العقبة، ج٩، ص ١٨٣، ط ٢، ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٣) "خصائص المذهب المالكي..."، مرجع سابق.

ـ لقد بني مالك فقه على قاعدتين عظيمتين شهيرتين، هما: حيث المصلحة تجد الشرع"، و "الأصل في الأشياء الإباحة".

هاتان القاعدتان العظيمتان، استنبطهما من آيات قرآنية عديدة، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿الحج: ٧٨﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ﴿البقرة: ١٨٥﴾، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ ﴿النساء: ٢٨﴾.

إن على الدعاة والمصلحين أن يفكروا في مصلحة الناس، قبل مصلحتهم![1].

إن من يطالع مذهبه في حكم الماء والمطاعم، وما يتعلق بالنجاسة يجده مبنيًا على التوسعة والتيسير والتساهل من غير تعسير.

أما الأيمان والعقود فقد جعلها عند إطلاقها متقيدة بالعرف والعوائد، بحيث تُعقَد عنده العقود بكل قول أو فعل يفيد المقصود.

لكنه كان يشدد في سد أبواب الربا والمحرمات، ويمنع فتح كل باب يؤدي إلى الممنوعات، في حين يوسع في باب الغرر أكثر من غيره، ويقيد ذلك بالعرف عند أهله، ويطالب بأن يُستفهَم الخصم في المحاكمة، ويُسأَل عن سبب المخاصمة، وتشهد عنده العوائد كالبينة.

وكان يشدد على ذي الشر والنكاية، وليس للتعزير عنده نهاية، في حين أنه يتجافى على ذي العلة والزلة، لاسيما من كان من ذوي المروءة والعفة[2].

إن الفقيه هو ـ كما قال الإمام ـ: "الذي يبيح بدليل، أما التحريم فالكل يحسنه".

إن منهج الإمام كان التيسير على الناس، بناءً على قاعدته العظيمة، "الإباحة بدليل"، وبناء على رسالة عاش لها، عبر عنها بقوله: "نذرت نفسي، أفرج كربات المسلمين".

وقد سمى كتابه "الموطأ"، أي المعبَّد والمذلل للمسلمين، فجاء عنوان الكتاب دالًا

(١) "دعوة للتعايش..."، ص ٩٨.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للعلامة الزواوي، ص ٩٨، ٩٩.

على رسالته، ومنهجه الباحث عن سعادة وراحة الناس[1].

خامسًا: الوسطية، والاعتدال في أحكامه ومواقفه، وفي أصوله وفروعه:

حيث لا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تشديد، ولا غرابة ولا شذوذ، ولا تعقيد، ولا تمرد ولا تكفير بغير حق، يقول بالقياس، ويحبذ الأخذ بالرخص، ويكره الأخذ بغرائب الأقوال، وشواذ الحكام، يحب الاتباع، ويكره الابتداع، ويحرم اتخاذ الحيل للتخلص من الواجبات، أو التوصل إلى المحرمات، ويرفض نتائجها، ويؤاخذ المحتال بنقيض قصده، ويحرمه من الاستفادة من حيلته، وينزل به العقوبة على فعلته!، ومثالًا على ذلك، الفرار من الزكاة، والطلاق في مرض الموت، ونكاح المحلل[2].

(١) "دعوة للتعايش"، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٢) "خصائص المذهب المالكي"، مرجع سابق.

عناية الإمام
بترسيخ الجانب الأخلاقي في فقهه.

إن الفقه المالكي يعتبر من أعمق المذاهب الفقهية فهمًا لروح الشريعة الإسلامية، ومقاصدها، وأبعدها نظرًا، واعتبارًا لمآلاتها، وأكثرها التزامًا بمراعاة حكمها وأسرارها عند استنباط الأحكام من نصوصها، وتفريع الفروع عليها، وخاصة فيما يتعلق بالضروريات الخمس: الدين والنفس والمال والعرض، والعقل؛ فقد تفوَّق على كثير من المذاهب الفقهية في العناية بها،والمحافظة عليها،ومنع المساس بها من قريب أو بعيد، وبأي وجه من الوجوه(١).

ومنهجه في ذلك مستمد من منهج السلف ـ ﷺ ـ، خصوصًا زمن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ـ

وقد قام أحد علماء المقاصد بتلخيص مظاهر المقاصد المستفادة من الأدلة الأصلية لدى المالكية، فذكر منها:

١ ـ إقرار كبرى غايات الوجود الكوني، وأهداف الحياة الإنسانية العامة، المتمثلة في تثبيت الامتثال الكلي، والانصياع التام لتعاليم المشرع الحكيم، وفي تحقيق صلاح الخلْق، وسعادتهم في الآل والمآل.

٢ ـ إقرار الكليات الخمس: حفظ الدين والنفس والعقل، والعرض والمال، هذه الكليات روعيتْ في كثير من أحكام الكتاب والسنة، وقضايا الإجماع والقياس.

٣ ـ إقرار علل الأحكام، وحِكمها الجزئية التي أنيطت بها أحكامها، من حيث الوجود والعدم.

٤ ـ إقرار وجوب الالتفات إلى المعنى والمقصد والروح، وعدم الاقتصار على الظاهر والشكل، والمبنى.

٥ ـ إقرار كثير من المقاصد الإجمالية مثل: التيسير، التخفيف، رفع الحرج، التي

(١) "خصائص المذهب المالكي..."، مرجع سابق.

تضافرت كثير من النصوص والاجتهادات الشرعية على تثبيتها والاعتداد بها[1].

إن الأخلاق الفاضلة أساس كل مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، ومكارم الأخلاق مقياس كل مصلحة عامة[2]، والمقاصد الشرعية تركز على الطابع الخلقي في السلوك والتصرف الإنساني، وهي "التي تجسد أخلاقية الشريعة، وقيامها على كبريات القيم وعظيم الفضائل، وسعيها إلى تمكين مكارم الأخلاق في النفوس، ومبادئ العدل والحرية، والمساواة والتسامح، والأمانة والمحبة والتعاون، واستهجانها لمظاهر الظلم والخيانة، والغدر، والاستغلال،...، وغير ذلك"[3].

إن المقاصد الشرعية "تجعل من أعظم موضوعاها تخليص النيات من شوائب التغرير والغش، والإيقاع في الظلم والإضرار،وتطهير البواطن من الرياء والحسد، والبغضاء، واستحضار الجانب الديانى في العمل القضائي،..."[4].

لقد كان الإمام من الرجال الكبار الذين شاركوا مشاركة فعالة في صنع الحاضر، العقلي والخلقي والعملي، مشاركة إيجابية في الحياة، في تنسيقها بالقانون العملي، وضبطها بالفقه الشرعي، وتوجيه نشاطها العامل، بهذا التنظيم والتنسيق القانوني، وتحديد خليقتها وسلوكها، بحدود التحريم والتحليل التشريعي[5].

لذا، كان الإمام مالك يهتم في تفكيره العام بالجانب العملي، وقد أقام بناء فكره في المجال الأخلاقي على ربط العلم بالخلُق، كما ربط الإيمان بالعمل، ومن ثَم ركز في

---

(١) د/ نور الدين الخادمي، "المقاصد في المذهب المالكي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين"، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٢) العلامة علال الفاسي،"مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها"، ط/ ٤، ١٩٩١م، مؤسسة علال الفاسي، ص ١٩١.

(٣) د/ نور الدين مختار الخادمي، "الاجتهاد المقاصدي، حجيته، ضوابطه، مجالاته"، سلسلة كتاب الأمة، رقم: ٦٥، ٦٦، ط/ ١، ١٩٩٨م، قطر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ج٢، ص ٣٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١.

(٥) الأستاذ/ أمين الخولي، "مالك، تجارب حياة"، مرجع سابق، العرب"، ص ٣٧.

عرضه للقيم الأخلاقية على النماذج العملية، من خلال مروياته في الموطأ، لكي تكون فيها الأسوة، مع جمعه بين الأخلاق الاجتماعية، والآداب الفردية.

أولًا: اهتمام الإمام بالأخلاق الاجتماعية:

لقد تناول الإمام في "الموطأ" مجموعة من قضايا هذا المجال المهم، فبعد إنهائه كتاب: "القدر" من "الموطأ"، انتقل إلى مجموعة من الكتب ذات الطابع الأخلاقي الأدبي، مبتدئًا ذلك بـ (كتاب حسن الخلق)، وأتبعه بمجموعة من الكتب، لتكون فيها العبرة، ويتخذها المكلف أسوة في مجال تعامله مع الآخرين، وسلوكه الاجتماعي، الأخلاقي(١).

بدأ إمامنا كتاب "حسن الخلق"، بإيراده مجموعة من الأحاديث والآثار، بالباب الأول، المتعلق بـ (ما جاء في حسن الخلُق)، لبيان أهمية الخلاق الحسنة وفضلها على الفرد والمجتمع.

ومما رواه الإمام في ذلك أن معاذ بن جبل قال: "آخر ما أوصاني به رسول الله ـ ﷺ ـ حين وضعتُ رجلي في الغرز أن قال: أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل"(٢).

وروي أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"(٣).

كما روى حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي قال رسول الله ـ ﷺ ـ في آخره: "إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره"(٤).

وروى عن يحيى بن سعيد أنه قال: "بلغني أن المرء ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل، الظامي بالهواجر"(٥).

---

(١) د/ محمد نصيف العسيري، "الفكر المقاصدي عند الإمام مالك، وعلاقته بالمناظرات الأصولية الفقهية في القرن الثاني الهجري"، ط. مركز التراث الثقافي المغربي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٥٨.

(٢) "الموطأ"، كتاب: حسن الخلُق، باب: ما جاء في حسن الخلُق، ج٢، ص ٦٨٨.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص ٦٨٩، وأخرجه الترمذي في كتاب الزهد، وابن ماجه في كتاب الفتن.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص ٦٨٩، وأخرجه الشيخان في كتاب الأدب.

(٥) "الموطأ"، ج٢، ص ٦٨٩، وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب: في حسن الخلُق.

وروى عنه ـ أيضًا ـ أنه قال: "سمعتُ سعيد بن المسيب يقول: ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البيْن، وإياكم والبغضة، فإنها هي الحالقة"(١).

هذه الأحاديث ـ وغيرها كثير ـ قد تضمنت مجموعة من الأخلاق الاجتماعية المهمة، والمؤثرة في سعادة المجتمع وقوته وتقدمه، مثل: إحسان الخلُق للناس عامة، وإصلاح ذات البيْن، والتودد إلى الناس، والتحاب في الله، والسلام، ذكرها في باب"ما جاء في المهاجرة"(٢)، ثم فصَّل الكلام عن السلام، وأحكامه في "كتاب السلام"(٣).

وقد أورد الإمام بعد ذلك مرويات تتناول أخلاقًا اجتماعية سلبية، نهى عنها الشرع، مثل: ترك الإنسان ما لا يعنيه، وبغض الناس بغير حق، والغضب(٤).

وعقد لموضوع "الكلام"، كتابًا ضمَّنه اثني عيشر بابًا، أهمها: الباب الأول فيما يُكره من الكلام، والثاني فيما يؤمر به من التحفظ في الكلام، والثالث فيما يكره من الكلام بغير ذكر الله، والرابع فيما جاء في الغيبة، والخامس فيما جاء فيما يُخاف من اللسان، والسادس فيما جاء في مناجاة اثنين دون واحد، والسابع فيما جاء في الصدق والكذب، والثامن فيما جاء في إضاعة المال، وذي الوجهيْن... إلخ(٥).

وكذا، عقد للصدقة كتابًا، ضمَّنه ثلاثة أبواب، الأول في الترغيب في الصدقة، وذكر فيه بعض الأحاديث والآثار الحاثة على التضامـن الاجتماعي، لسد حاجة المساكين(٦)، والباب الثاني في التعفف عن المسألة، وقد أورد فيه حديثًا للنبي ـ ﷺ ـ هو قوله: "ومن

(١) "المرجع السابق"، ج٢، ص ٦٩٠.
(٢) "الموطأ"، ج٢، ص ٦٩٢، ٦٩٣.
(٣) "الموطأ"، ج٢، ص ٧٣١ ـ ٧٣٣، وانظر رسالة "الفكر المقاصدي عند الإمام مالك وعلاقته بالمناظرات الأصولية والفقهية في القرن الثاني الهجري"، د/ محمد نصيف العسري، ص ١٥٨، ١٥٩.
(٤) "المرجع السابق"، الموطأ، ج٢، ص ٦٩٢.
(٥) المرجع السابق، ص ٧٥٧.
(٦) "الموطأ، ج٢، ص ٧٦١.

يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله،..."(١).

ومما يساعد على التعفف عن سؤال الناس ممارسة عمل يدر رزقًا ومالًا، لذا روى الإمام حديث الاحتطاب الحاض على العمل، ونقل الإمام بموازاة ذلك نهي الرسول ـ ﷺ ـ عن أخذ الصدقة، بالنسبة لغير مستحقيها(٢).

أما معاملة المملوك، فقد تكلم فيها الإمام، في الباب السادس عشر، من كتاب الاستئذان، الذي عنونه بـ "باب الأمر بالرفق بالمملوك"(٣).

ومما يؤكد الصبغة العملية التطبيقية للإصلاح الأخلاقي عند الإمام مالك ما يلي:

١ ـ ختم الإمام للموطأ بكتاب الأدب بعد التوسع في الفقه، يربط تعامل الإنسان المسلم بالأدب الرفيع، والخلُق الفاضل، ويجنبه الجفاف والفظاظة في حياته وعلاقته بغيره، كما يبعده عن التحايل والخديعة في معاملاته، إدراكًا من الإمام أن المبادئ القانونية الفقهية لا تجدي إن لم يُلتزم معها بقواعد راسخة من حسن الخلق!.

وتأكيد الإمام على ضرورة اكتساب أخلاق اجتماعية فاضلة، يؤدي إلى طبع حياة المسلم العملية بطابع الفضيلة والخير والرشد، الذي هو ثمرة من ثمرات العقيدة الحية، والعبادة الخاشعة، كما يدفع إلى تغلغل الفضائل في جميع مرافق المجتمع الإسلامي، الذي أراد وأمر الله أن يكون خير المجتمعات الإنسانية!.

٢ ـ إن كثرة المرويات المرفوعة من حديث رسول الله ـ ﷺ ـ، وقلة المرويات من آثار الصحابة وتابعيهم، مع تخليل ذلك بصفة الرسول ـ ﷺ ـ، وأخلاقه أثناءها، ينبئ عن ثروة "الموطأ" بتلك المرويات، كما يثبت أن المثل الأعلى هو رسول الله ـ ﷺ ـ وأنه الأسوة الفاضلة ـ ﷺ ـ(٤).

---

(١) "الموطأ"، ج٢، ص ٧٦٢، وأخرجه البخاري ومسلم في كتاب: الزكاة.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٦٣.

(٣) "الموطأ"، ج٢، ص ٧٤٧.

(٤) "الفكر المقاصدي عند الإمام مالك"، ص ١٦٥.

٣ ـ إن ندرة تعقيبات الإمام على المرويات من الحديث والآثار، ـ وذلك على غير عادته، حيث لا نجد في هذا القسم الكبير من "الموطأ" إلا النزر القليل منها، حتى أنه إذا ذكرها فلإيضاح معنىً، أو تأكيد أدب، ـ هذه الندرة تبين ضرورة الاهتمام بالجانب التطبيقي العملي، الأخلاقي في حياة المسلم والمجتمع والأمة، فلا يكفي القول فقط، بل لابد معه من عمل وتطبيق!.

إن الإمام قد اتسمت آراؤه بالواقعية، الملامسة للحياة المعيشية، والمعتمدة على الفهم الصحيح للعقيدة، والسلوك الأخلاقي، ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ[١] وما أحوجنا إلى هذه الواقعية وحسن الفهم، والتطبيق الحي للفقه الممتزج بالسلوك والأدب الجميل.

العناية بالآداب الفرديـــة:

إن الإمام قد اعتنى في "موطئه" بالأدب والسلوك الفردي، لذا جعل من موضوعاته التي تكلم فيها: اللباس، والطعام، والشعر،..، والكلام المأمور به في السفر، وما يُكره من الأسماء، وما جاء في النرد والرؤيا،... إلخ.

ففي كتاب "اللباس"، ذكر مالك من النصوص ما يدل ـ في الأدب والعادة ـ على الترغيب في لبس الأبيض من الثياب، وغير ذلك من قضايا[٢].

وفي كتاب صفة النبي ـ ﷺ ـ، أورد مالك مجموعةً من الأبواب، ذات الصلة بالتربية السلوكية والأدب الفردي، ومن ذلك باب النهي عن الأكل بالشمال، وباب النهي عن الشراب في آنية الفضة، والنفخ في الشراب، وباب ما جاء في الطعام والشراب، الذي روى فيه الإمام عدة نصوص، في بعض السلوكيات الأدبية التي تهم الإنسان، ومصلحته، من ذلك حديث" "أغلقوا الباب، وأوكوا السقاء، وأكفئوا الإناء، أو خمروا الإناء، وأطفئوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقًا، ولا يحل وكاءً، ولا يكشف إناء، وإن الفويسقة

(١) "المرجع السابق"، ص ١٦٦.

(٢) "الموطأ"، ج٢، ص ٦٩٥.

تضرم على الناس بيوتهم"(١).

وفي كتاب العين، ذكر الإمام بابًا في ضرورة العلاج والتداوي، فقد "أنزل الدواء الذي أنزل الداء"(٢).

أما كتاب الشَّعر، فقد ساق فيه الإمام بابًا في إصلاح الشعر، حيث نقل عن أبي قتادة سؤاله للرسول ﷺ: "إن لي جمة، أفأرجّلها؟، فقال: نعم، وأكرِمْها". فالتزم أبو قتادة بأمر الرسول، فكان ـ ربما ـ دهنها في اليوم مرتين(٣).

ومن الأدب الفردي الفاضل ما ذكره مالك عن ابن عباس، أنه كان يقول: "القصد، والتؤدة، وحسن السمت، جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة"، وهناك أحاديث وآثار كثيرة في هذا المجال، في "الموطأ"(٤).

إن الإمام قد اعتنى بقوة بالجانب العملي، الذي يشمل الإصلاح الاجتماعي العام، والتربية الفردية الخاصة، من خلال بعض القيم الأخلاقية، والأنماط السلوكية، في خلق الإنسان المسلم مع الآخرين، وأدبه مع نفسه، مما يعطي صورة جلية عن المسئولية الأخلاقية السلوكية، التي يتحملها المكلف، بما يحقق مصلحته، ومصلحة مجتمعه وعموم الأمة.

ولم يكتف الإمام بالبيان العلمي والفكري، بل كان يتمثل تلك القيم والسلوكيات المذكورة، وغيرها في حياته؛ فكان ـ على سبيل المثال ـ يعمل بمبدأ مداراة الناس، ولا يهتم بما لا يعنيه، ويبتعد عن الجدل العقيم، وكان زاهدًا فيما في أيدي الناس، مع إيمانه بمبدأ الاعتماد على النفس، وطلب الكسب بالعمل.

كما كان معتنيًا بمظهره، واشتهر بثوبه النظيف، الذي كان يراه شكرًا لنعمة الله، ومن

(١) "الموطأ"، ج٢، ص ٧٠٨، وأخرجه مسلم في كتاب: الأشربة، باب: الأمر بتغطية الإناء.

(٢) "المرجع السابق"، ج٢، ص ٧١٩، وأخرجه البخاري في كتاب: الطب، ومسلم في كتاب: السلام.

(٣) "الموطأ"، ج٢، ص ٧٢٣.

(٤) "الموطأ"، كتاب: الشعر، باب: ما جاء في المتحابين في الله، ج٢، ص ٧٢٧، وأخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن سرخس مرفوعـًا.

الدين، مع اعتنائه بأثاث مسكنه، وبمطعمه، ومشربه.

هذا الجمع بين الجانبين النظري والعملي، كان وعيًا من الإمام بمسئوليته الأخلاقية والسلوكية، وأثرها في تحقيق المصالح الخاصة والعامة(١).

إن المالكية لم يقتصروا في دراسة الفقه على فقه العبادات والمعاملات، والأقضية، والحدود، والجنايات، وإنما اعتنوا كذلك بفقه السلوك والآداب والأخلاق، ولذلك وجدنا لديهم ـ اقتداء بإمامهم ـ سنة وضع باب جامع في هذه الجوانب، وغيرها في أواخر كتبهم الفقهية(٢).

(١) د/ محمد نصيف العسيري، "الفكر المقاصدي عند الإمام مالك"، ط.١، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٦٤.

(٢) د/ محمد المختار محمد المامي، "المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته، خصائصه، وسماته"، ط.١، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠٢م، عرض لرسالة ماجستير، من جامعة الإمام محمد بن سعود، قسم الفقه، عُرض لها في موقع: ملتقي المذاهب المالكية بالإنترنت.

المبحث الثالث

منهج الإمام في توريث العلم، وإعداد العلماء

إطلالة على مجلس مالك، وآدابه الجميلة

كان مجلس الإمام إذا حدث أو أفتى مجلسًا ملأه السكينة والوقار، ويسوده المهابة والهدوء، ويصف الواقدي مجلس الإمام وصاحبه فيقول: "كان مجلسه مجلس وقار وعلم، وكان رجلًا مهيبًا نبيلًا، ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط، ولا رفع صوت، وإذا سئل عن شيء فأجاب سائله لم يقل له (السائل)، من أين رأيت هذا؟".

وقال أحد طلابه: "كان جلساء مالك كأنما على رؤوسهم الطير تسمتًا وأدبًا، وكان إذا أراد التدريس جلس على صدر فراشه وسرح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة".

وظل الإمام في مجلسه على هذا الأدب العالي والتربية الزاكية أكثر من خمسين عامًا، لم يؤخذ عليه لغو في قول أو مزاح أو تندر - رَحِمَهُ اللَّهُ -.

وكانت رقته ومودته سائدة مع طلابه، يقول أحدهم عن ذلك: "كان مالك إذا جلس معنا، فكأنه واحد منا، يتبسط معنا في الحديث، وهو أشد تواضعًا منا له، فإذا أخذ في حديث رسول الله - ﷺ - تهيبنا كلامه، فكأنه ما عرفنا، ولا عرفناه"(١).

وكان يحرص على ضرورة أدب الاستماع في درسه، فإذا خالف أحد هذا الدستور، أو أخل بالسكينة أُخرج على الفور من الدرس. ويحكي تلامذته أنه كان كالسلطان له حاجب يأذن عليه، فإذا اجتمع الناس ببابه أمر آذنه، فدعاهم، فحضر أولًا أصحابه، فإذا فرغ منهم أذن للعامة .

وكان لا يوسع لأحد في حلقته، ولا يرفعه، يدعه يجلس حيث انتهى به المجلس، ويقول إذا جلس للحديث: ليليني منكم ذووا الأحلام والنهى"(٢).

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٢، ٧٣، و"الديباج المذهب، ج١، ص ١٨، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٧٩.

(٢) "الديباج المذهب"، ص ١٨.

وكانت للإمام تقاليد اختص بها لنفسه، وعادات اتبعها، لم يحد عنها، بحيث تجعل منه مثلًا أعلى لمعاصريه من الناس عامة، وأنداده من العلماء خاصة.

ومن هذه العادات: دوام لبسه العمامة، فلا يراه أحد من أهله، أو أصدقائه إلا متعممًا، لابسًا ثيابه، وما رآه أحد يأكل أو شرب حيث يراه الناس.

وكان مالك يرى أنه لا يجمل بالعالم الذهاب إلى السوق، لشراء حاجاته وحاجات بيته، حفاظًا على هيبته ومكانته وقدره، وإن تسبب ذلك في نقص في ماله(١).

كان الإمام يرفض أن يحدث من لا حشمة لهم ولا وقار، فعندما التف به بعض طلبته بالحرم المكي، وأحاطوا به في غير نظام، قام مغضباً، ولما عادوا إليه الغداة في حشمة ووقار، حدثهم وأنكر عليهم ما صنعوه أمس، وقال لهم: "الذي فعلتم أمس فعل السفهاء"(٢).

وقد كان في مجلسه العام لا يحب أن يراجَع، ولا يكرر، حتى لا يقطع على نفسه سلسلة تفكيره، بهذه المراجعة، ولكيلا يذهب وقار مجلس علمه.

أما إذا خلا به خلصاؤه من تلاميذه راجع عليهم ما يريدون التثبت فيه من مسائل العلم(٣).

وكان للإمام مالك كتبة، يكتبون له رسائله وإجازاته لبعض التلاميذ، وربما قرأوا كتبه بين يديه، للعرض على الطلبة، ومنهم، حبيب بن أبي حبيب(٤)، ويحيى بن ثابت

(١) "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، لابن فرحون، ص ١٤، و د/ مصطفة الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٣٩، ٤٠.

(٢) انظر: عبد الكريم التواتي، "المنهجية في مدرسة مالك بن أنس، وفي أصول مذهبه"، بحث مقدم للندوة التي أقامتها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، عن الإمام مالك، مكتبة الشريف أحمد الحسيني، ج٢، ص ٣٠٦.

(٣) الإمام محمد أبو زهرة، "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ٢٠٢.

(٤) هو أبو محمد، حبيب بن أبي حبيب، واسم أبيه مرزوق، ويقال: زريق، أو رزيق، كاتب مالك وقارئه، وبقراءته سمع الناس الموطأ، مدني، انتقل إلى مصر، وتوفى بها عام ٢١٨هـ، روى عن مالك غير شيء: الموطأ والفقه، وكثيراً من الحديث وغيره. انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، و"ميزان =

الجندي اليمني(١)(٢).

١ ـ إعداد تلاميذ يرثون العلم والفقــه

لقد كان للإمام دولة، لكنها دولة من نوع آخر، إنها دولة العلم، وكان مالك سلطان هذه الدولة، التي كانت ارفع قدرًا من دولة السلاطين والحكام.

إن وفود طلاب العلم كانوا يأتون أفواجًا على الإمام، من آفاق البلاد الإسلامية مشرقًا ومغربًا، من عراق وشام ويمن، ومصر ومغرب وأندلس، فيستقبلهم حاجب الإمام، وينادي عليهم فينظم دخولهم إلى مجلسه العلمي(٣)، يحكي ذلك أحد معاصريه، فيقول: كنتُ على باب مالك، فنادي مناديه: ليدخل أهل الحجاز، فما يدخل إلا هم، ثم نادي في أهل الشام، ثم في أهل العراق...".

ولم يعرف أن إمامًا من الأئمة كان له من التلاميذ مثل عدد تلاميذ الإمام مالك، فقد كان تلامذته كثيرين جدًا، وتباعدت أقطارهم، فله تلاميذ من خراسان، والعراق، ومن الشام، وأكثر تلامذته من المدينة ومصر، وشمال أفريقية، وبلاد المغرب، وذلك لأسباب عديدة، منها:

١ ـ ملازمته المدينة المنورة، وإقامته الدائمة فيها، والناس جميعًا ـ خاصة العلماء وطلاب العلم ـ يقصدونها، لزيارة النبي ـ ﷺ ـ.

٢ ـ طول عمره ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، فقد عمَّر نحو ست وثمانين سنة.

٣ ـ دوام إلقاء الدروس، ما يقارب الستين من السنين(٤).

= الاعتدال"، ج١، ص ٤٥٢، ٤٥٣.

(١) هو يحيى بن ثابت، من قدماء أصحاب مالك، كان كاتب مالك، وهو من أهل اليمن، وروى عنه أهل اليمن. انظر "الثقات"، لابن حبان، ج٩، ص ٢٥٩، وانظر "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ٣٥.

(٢) مشعل الحدادي، "الإمام مالك، وأثره في علم الحديث النبوي"، ط. مكتبة غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان، ص ٣٤ ـ ٣٧.

(٣) "الإمام مالك"، د/ مصطفى الشكعة، ص٩٤.

(٤) "مالك، حياته، عصره، آراءه وفقهه"، ص ٢٠٠.

وقد بذل غاية جهده في تعليم الناس وتزكية نفوسهم، وأعلن لهم: "ألستُ فرغت لكم نفسي، وأقمت وسطكم"[1].

لقد كان للإمام مالك تلاميذ كثيرون، تفرقوا في الأمصار الإسلامية شرقًا غربًا، فضلًا عمن آثر البقاء منهم في المدينة، أو طوف في الأمصار، ثم ما لبث أن عاد إلى قواعده، وكل منهم حامل لفقه مالك، أينما حل، وحيثما ذهب، يعلمه ويرويه، ويعمل على نشره.

إن من أصحاب مالك وتلاميذه من سكن المدينة واستقر فيها، منهم محمد بن إبراهيم ابن دينار[2]، وكان فقيه المدينة على أيام مالك، وتوفى عام ١٨٢هـ، وعبد العزيز بن أبي حازم[3]، المتوفى عام ١٨٥هـ، وعثمان بن عيسى[4]، وتوفى في السنة ذاتها، والمغيرة بن عبد الرحمن، الذي توفى في عام ١٨٦هـ، ومعن بن عيسى، توفى عام ١٩٨هـ، وعبد الملك ابن عبد العزيز الماجشون[5]، لقي ربه عام ٢١٢هـ، وأبو مصعب الزهري[6]، مات عام ٢٤١هـ، وعبد الله بن نافع الزبيري[1]، المتوفى عام ٢١٥هـ.

---

(١) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٧٩.

(٢) هو أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن دينار، الجهني، الفقيه، الإمام، الثقة، مفتي المدينة، صحب مالكًا وابن هرمز وغيرهما، وروى وأخذ عنه ابن وهب ومحمد بن مسلمة، وغيرهما، توفى عام ٢١٧هـ. انظر "شجرة النور الزكية..."، مرجع سابق، ج١، ص ٥٧.

(٣) عبد العزيز بن أبي حازم، سلمة بن دينار، الفقيه الأعرج، أبو تمام، تفقه مع مالك على ابن هرمز، وكان من جلة أصحاب مالك، صدوق، ثقة، صالح الحديث، كان إمام الناس في العلم بعد مالك، خرج عنه البخاري ومسلم، توفى بالمدينة في سجدة سجدها بالروضة الشريفة، سنة ١٨٥هـ، وقيل غيرها ـ رحمه الله ـ انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٩ ـ ١٢.

(٤) عثمان بن عيسى بن كنانة، أبو عمرو، كان من فقهاء المدينة، أخذ عن مالك، كان أَضبط تلامذة مالك، وهو الذي قعد في مجلس مالك بعد وفاته، توفى عام ١٨٦هـ، بمكة وهو حاج.انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢١، ٢٢.

(٥) ابن الماجشون، عبد الملك: هو أبو مروان، عبد الملك بن عبد العزيز، بن الماجشون، القرشي، الفقيه، البحر، مفتي المدينة، من بيت علم بها وحديث، تفقه بأبيه ومالك وغيرهما، وبه تفقه أئمة، كابن حبيب، وسحنون وغيرهما، توفى على الأشهر، سنة ٢١٢هـ. انظر "شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٥٦.

(٦) أبو مصعب، أحمد بن القاسم، بن الحارث، بن زرارة بن مصعب بن عوف، الزهري، قاضي المدينة، =

وكان لمصر نصيب جليل القدر، من بين أصحاب مالك، فقد كان فيها أعلم أصحاب الإمام، وعلى أيديهم انتشر المذهب المالكي، من أهمهم: عبد الرحمن بن القاسم، وعبد الله بن وهب(٢)، وأشهب بن عبد العزيز(٣)، وعبد الله بن الحكم بن(٤) أعين.

وفي تونس (أفريقية)، استوطنها علي بن زياد التونسي(٥)، وعبد الله بن غانم الأفريقي.

واستقر في الأندلس أبو محمد يحيى بن يحيى الأندلسي(٦)، الذي نقل الموطأ إليها،

= وعالمها، الفقيه، الثبت، الثقة، روى عن مالك الموطأ وغيره، روى عنه البخاري ومسلم والذهبي، والزيان وغيرهم، مات بالمدينة سنة ٢٤٢هـ، انظر "شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٥٧.

(١) عبد الله بن نافع، مولى بن مخزوم، أبو محمد، روى عن مالك وغيرهن كان صاحب رأي مالك، ومفتي أهل المدينة برأي مالك، له تفسير في الموطأ، ثقة صالح، توفى بالمدينة سنة ١٨٦هـ، انظر "ترتيب المدارك"، ج٣، ص ١٢٨ ـ ١٣٠.

(٢) ابن وهب: هو أبو محمد، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، مولاهم، إمام جمع بين الفقه والحديث، أثبت الناس في الإمام مالك، حافظ، حجة، روى عن أربعمائة عالم، منهم الليث، ومالك، وبه تفقه، صحبه عشرين سنة، له تآليف حسنة، عظيمة المنفعة، روى عنه كثيرون، خرج له البخاري وغيره، ولد عام ١٢٥هـ، ومات عام ١٩٧هـ. انظر "شجرة النور الزكية..."، ج١، مرجع سابق، ص ٥٩.

(٣) أشهب، هو أبو عمر، بن عبد العزيز بن داود، القيسي، العامري، المصري، الفقيه، انتهت إليه رئاسة مصر بعد موت ابن القاسم، روي عن الليث والفضيل ومالك، وبه تفقه، وعنه روى وأخذ كثيرون، خرج عنه أصحاب السنن،ولد عام ١٤٠هـ، وتوفى بمصر عام ٢٠٤هـ. انظر "شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٥٩.

(٤) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين، الفقيه، الحافظ، الحجة، سمع من ابن عيينة، والقعنبي والليث، ومالك، وروى عنه الموطأ، وكان من أعلم أصحابه بمختلف قوله، له تآليف نافعة مهمة في الحديث والفقه، ولد عام ١٥٥هـ بمصر، وتوفى عام ٢١٤هـ، وقبره بجانب قبر الإمام الشافعي. انظر" شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٥٩.

(٥) هو أبو الحسن، علي بن زياد، التونسي، الثقة، الحافظ، المفتي، روى الموطأ عن مالك، وهو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب، ومنه سمع سحنون وأسد بن الفرات، وغيرهم، مات سنة ١٨٣هـ، وقبره بتونس. انظر "شجرة النور الزكية..."، مرجع سابق، ج١، ص ٦٠.

(٦) أبو محمد، يحيى بن يحيى بن كثير، الليثي، القرطبي، الإمام الحجة، الثبت، رئيس علماء الأندلس، وفقيهها، وكبيرها، سمع الموطأ من مالك، وروايته أِهر الروايات، توفى سنة ٢٣٤هـ، عن ٨٢ سنة. انظر =

وتوفى عام ٢٢٣هـ[١].

لقد كان للإمام درسه العام للفقه، حيث يحضره الآلاف، ومع تزايد أعداد الناس كان لابد من حل لذلك، لأن المسجد لم يعد يتسع لهم.

فأوجد الإمام مالك فريق عمل على خبرة بالجنسيات، لينظموا دخول الناس للدروس!، وكان الدرس يبدأ كالآتي: "ليدخل أهل المدينة، ولا يدخل إلا هم":، فيدخل أهل المدينة لدرسه، ثم يخرجون، بعدها ينادي: "ليدخل أهل الحجاز، ولا يدخل إلا هم!"، ثم "ليدخل أهل العراق"، و"ليدخل أهل الشام"، "ليدخل أهل مصر"، "وبعدها: ليدخل أهل الأندلس".

إن تلاميذ الإمام كانوا من ثلاث قارات" أسيا وإفريقيا وأوربا، فالشافعي ـ مثلًا ـ من مكة، ويحيى بن يحيى من الأندلس، وأسد بن الفرات من تونس، وشبطون من الأندلس، وبن الأشهب من مصر، والعتيقي من فلسطين.

إن جامعات أوربا لم تعرف اختلاط الأجناس داخلها سوى في القرن الأخير[٢].

وقد كان لمالك مجلس علمي خاص، يلتقي فيه بالنابهين من العلماء المقيمين بالمدينة، سواء كانوا من أهلها أم وفدوا عليها، واتخذوها مقامًا، طلبًا للعلم، والتثبت فيه، وكانوا يتذاكرون ما عندهم من الفقه[٣]، وقد لازمه محمد بن الحسن ثلاث سنوات، ومحمد بن الحسن راوية الفقه العراقي، فتعرف من خلاله مالك على ما ورثه من علم أبي حنيفة وأصحابه، ومن سبقه من فقهاء العراق وقضاته[٤].

إن الإمام كان يرعى تلاميذه، ويخص تلامذته النجباء باجتماع خاص بهم ـ كما سبق،

= "شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٦٤، و"ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٣٧٩ ـ ٣٩٤.

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك..."، ص ١٣٥ ـ ١٣٧.

(٢) "دعوة للتعايش"، مرجع سابق، ص ٩٤، و"تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ١٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٤) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٥.

يدونون فيه مسائل وأحاديث، ويراجع ما يكتبونه، يصححه وينقيه، ويبين جيده من رديئه.

ومما يدل على ذلك ما ذكره بن وهب من إتيانه للإمام مالك، فيأخذ كتابه ويقرأ الإمام منه، فإذا وجد خطأ، "يأخذ خِرقة بين يديه، فيبلها بالماء، فيمحوه، ويكتب لي الصواب"(١). وقال ابن وهب في ذلك ـ أيضًا ـ: " لولا أن الله أنقذني بمالك والليث لضللت".

فقيل له: كيف ذلك؟ قال: أكثرتُ من الحديث، (حفظه وجمعه)، فكنتُ أعرض ذلك على مالك والليث، فيقولان: خذ هذا، ودع هذا!"(٢).

إن دروس الإمام كانت ذات مستويين: المستوى الأول: خاص بتلامذته، المواظبين على حلقته المنتظمين في مجلسه، وكان هذا المستوى يتميز بالعلم الرفيع العميق، والقضايا الفقهية العميقة، والتزكية المتميزة الراسخة.

والمستوى الثاني: مستوى العلم العام، لجمهور الناس دون الغوص إلى أعماق القضايا الفقهية التي لا يمكنهم استيعابها، أو يفهمونها على غير وجهها، مثل: الرد على المبتدعة وأهل الأهواء، والاختلافات بين الفقهاء... إلخ(٣).

لقد كان الإمام يعتبر عدم طلب العلم والإقبال عليه تسفلًا ورذالة، يبين ذلك إجابته عن سؤال عن السفلة،فقال:إن لم يكن طالب علم فهو سفلة، لأنه روى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: "إذا استرذل الله عبدًا حظر عنه العلم"(٤).

ولما سئل عن أفضل ما يصنع العبد، قال" طلب العلم(٥).

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ص ٦٠٥.

(٢) "المرجع السابق"، ص ١٣٣.

(٣) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٩٣، ٩٤، وانظر: د/ محمود عبد المتجلي، "الإمام مالك، حياته آراءه، فقهه"، هدية مجلة الأزهر، شوال ١٤١٣هـ، ص ١٨.

(٤) "تنوير الحوالك..."، للسيوطي، ج١، ص ١١.

(٥) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٩٦.

وبين أصناف الناس في طلب العلم والعمل به، فذكر أن "الناس في العلم أربعة: رجل علم فعمل به، فمثله في كتاب الله قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ ﴿فاطر: ٢٨﴾.

ورجل علم به ولم يعلمه، فمثله في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ ﴿البقرة: ١٥٩﴾.

ورجل علم علمًا وعلَّم ولم يعمل به فمثله في كتاب الله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ﴿الفرقان: ٤٤﴾(١)".

وأوصى صاحبه، وتلميذه ابن القاسم، بتقوى الله، ونشر العلم، فقال: "اتق الله، وعليك بنشر هذا العلم"(٢). وأمر أن لا يؤخذ العلم إلا عن الموثوق بهم في دينهم،(٣) وقال لابن وهب: "اتق لله، وانظر عمن تنقل"(٤).

ولما طلب منه تلميذه يحيى بن يحي الليثي النصيحة عند وداعه له قال الإمام: "عليك بالنصيحة لله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم"(٥).

وطالب كل مسلم بالعناية بنفسه قبل ومع العناية بالغير، "لأن نفسه أوْلى الأنفس كلها، فإذا ضيعها فهو لما سواها أضيع، من أحب نفسه حاطها وأبقى عليها"(٦).

وقد حث كل طالب علم إلى العناية بتحصيله العلم لإصلاح نفسه أولًا وإنارة قلبه، وبين أنه صنع ذلك بنفسه، فقال: "ما تعلمتُ العلم إلا لنفسي، وما تعلمتُ ليحتاج

(١) "المرجع السابق"، ج١، ص ١٠٠.
(٢) "ترتيب المدارك...."، ج٣، ص ٢٤٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٣١١، و ص ٣٢٢.
(٤) المرجع السابق، و"ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٣٢٢.
(٥) "ترتيب المدارك...."، ج٣، ص ٣٨٣.
(٦) "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣٣١.

الناس، وكذلك كان الناس"[١] يقصد أساتذته العظماء.

وقال موجهًا طلابه: "تحفظون وتفهمون، حتى تستنير قلوبكم"[٢].

وقال ـ أيضًا ـ:"لا ينبغي لأحد عنده علم أن يترك التعليم"[٣].

لذا حث طلابه على نشر العلم وعدم كتمانه، وحذرهم من تضييعه، وفي ذلك قال ابن القاسم ـ أحد طلابه ـ: "كنا إذا ودعنا مالكًا يقول: اتقوا الله، وانشروا هذا العلم، وعلموه، ولا تكتموه،.. ولا تنزلوا به دار مضيعة، وبثوه..".

وقد حذر العالم من القرب من أهل الباطل، ومن القول به ومن ظهور الباطل على الحق، وفي ذلك قال: " الدنو من أهل الباطل هلكة، وقليل الباطل وكثيره هلكة، والقول بالباطل يصد عن الحق، وإن لزوم الحق نجاة".

وبشأن ظهور الباطل قال:"إذا ظهر الباطل على الحق كان الفساد في الأرض"[٤].

وقد حذر طالبه ابن وهب من اللعب بدينه وعمله، إشباعًا لهوى، أو رغبة في مصلحة تافهة، وفي ذلك قال: "يا عبد الله، لا تحملن الناس على ظهرك، وما كنت لاعبًا به من شيء فلا تلعبنَّ بدينك"[٥].

وحذره من ارتكاب سوء أو سلوك أو موقف، يتخذه المغرضون والكارهون للدين حجة عليه، لصد الناس عنه،وتنفيرهم من الدعاة، فقال له: "لا تمكن الناس من نفسك"[٦].

وطالب الإمام طالب العلم بعدم الإكثار من تحصيله دون فهم، وتعقل واستيعاب،

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٦.

(٢) الشاطبي، الموافقات"، ج١، ص ٦٣.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٩.

(٤) "ترتيب لمدارك..."، ج١، ص ٩٩، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٨٥، و"الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة"، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٥) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٩٨.

(٦) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٥.

وفي ذلك قال لطالبي علم: أراكما تحبان هذا الشأن، إن أردتما أن ينفعكما الله به (العلم)، فأقِلاَّ منه، وتفقها فيه"(١). وحذر من الفشل والخسران إن لم يلتزم الطالب بذلك فال: "ما أكثر أحد قط فأفلح"، بل رأى أنه "فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع"(٢).

وطالب بالتوسع في طلب العلم والاهتداء به، والالتزام بنوره في كل شؤون الحياة، وفي ذلك قال: "تعلموا من العلم حتى لبس النعل"(٣)، وذكر أن ذلك الاهتداء هو غاية الحكمة وثمرتها، فقال: "الحكمة: المعرفة بالدين، والفقه فيه، والاتباع له".

وقال ـ أيضًا ـ: "ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور، يضعه الله في القلوب" .

إنه كان يعتقد أن نور العلم لا يؤنس إلا من امتلأ قلبه بالتقوى والإخلاص، ولذلك أثر عنه قوله: "العلم نور، لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع"(٤).

وذكر "أن الإخلاص وترك ملاذ الدنيا وشهواتها ينير السبيل لطالب العلم، فيهبه الفهم والتوفيق، والسداد، وفي ذلك قال: "ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة"(٥).

وقد طالب كل مسلم بإحسان سريرته، وإصلاح باطنه، مع إصلاح ظاهره، وحذر من سوء الطوية، وعقاب الله لصاحبها فإنه ـ سبحانه ـ رقيب شهيد، وفي ذلك قال: "ما أسر عبد سريرة خير،إلا ألبسه الله رداءها،ولا أسرّ سريرة سوء إلا ألبسه الله رداءها"(٦).

وقد حث الإمام على استمرار العالم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان مقصرًا في بعض المعروف، أو آتيًا لشيء من المنكر، مبينًا أنه "لو كان المرء لا يأمر

(١) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٩٨، وج٣، ص ١٥٥.
(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧١.
(٣) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ١٠٠.
(٤) "المرجع السابق"، ج١، ص ٩٦، ٩٧، و"الإمام مالك... إمام دار الهجرة"، ص ٣٢٧، ٣٢٨.
(٥) "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ١١، و"مالك، حياته وعصره..."، ص ٨١.
(٦) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٨، و"تزيين الممالك..."، ص ١٥، ١٦، و"الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣٣١.

بمعروف ولا ينهى عن منكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر"، وعقب بقوله: "ومن الذي ليس فيه شيء!"(١).

وطالب كل داعية بالرفق واللين في دعوته، وفي ذلك قال" الفظاظة مكروهة، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ﴿آل عمران: ١٥٩﴾، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿طه: ٤٤﴾(٢)".

وحث على أهمية اكتساب الحلم مع العلم، بل قبله، وفي ذلك قال: "تعلَّموا الحلم قبل العلم".

وطالب كل من "خُول علمًا، وصار رأسًا يشار إليه بالأصابع، أن يضع التراب على رأسه، ويمتهن نفسه إذا خلا بها، ولا يفرح بالرئاسة"(٣)، إشارة إلى أهمية تقوى القلب والإخلاص لله في تعليم العلم، والفزع من فتنة الشهرة وخطرها، مع محاسبة النفس ورعاية خواطرها.

وكان يعني بتربية تلاميذه على العفة والنزاهة في القول والفعل، وفي ذلك قال: "لا ينبغي أن تتكلم بشيء تستحي منه، ولا تمشي في حاجة تستحي منها".

وأهاب بالعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه، إن كان لا يعرف العامة قدره!.

ومما قال: "أظهر اليأس عما في أيدي الناس، فإنه الغنى،...، وإياك وما يعتذر منه"(٤).

وطالب طالب العلم بالعناية بتعلم الأدب والسلوك الراقي، قبل تعلم العلم، فقال

---

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٦، ٩٧.

(٤) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٨، و"تزيين الممالك.."، للسيوطي، ص ١٦، و"ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٩٧..

لفتى من قريش: "تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم"(١).

ولما جاءه رجل يسأله: ما تقول في طلب العلم؟، أجابه الإمام: "حسن جميل، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي، فالزمه"، وقال لبعض بني أخيه: " إذا تعلمتَ علمًا من طاعة اللَّه فليُر عليكَ أثره، ولير فيك سمته، وتعلَّمْ لذلك العلم الذي تعلمته السكينة والحلم والوقار، والخشية..".

وكان يطالب أهل العلم بأن "يظهروا مروآتهم في ثيابهم، إجلالًا للعلم"، وقد قال عمر ابن الخطاب ـ ﷺ ـ: "إني لأحب أن أنظر إلى القارئ أبيض الثياب"، تنبيهًا على أهمية الأناقة والتجمل والأدب.

وطالبهم بالتعامل الجاد مع الناس، وتعويدهم احترام مجالس العلم وتقدير العلماء، وفي ذلك قال:"ينبغي لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح، وخصوصًا إذا ذُكر العلم"(٢).

وبين أن من "آداب العالم أن لا يضحك إلا تبسمًا"(٣).

وكان يحضهم على السكينة والتزام الدب في مجالس العلم، خاصة مجالسهن وشهد بهذا تلميذه ابن قعنب، حين قال: "ما رأيتُ قط أشد وقارًا من مجلس مالك، لكأن الطير على رؤوسهم"(٤) وكان عندما يرى ازدحام طلابه على مجلسه في بيته يوجههم قائلًا: "توقروا، فإنه عون لكم، وليعرف صغيركم حق كبيركم"(٥).

ومن نصحه لطلاب العلم في انتقاء الأصحاب قوله: "عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله، ويدعوك إلى الآخرة فعله، وإياك ومجالسة من يعلّمك قوله، ويعيبك دينه،

---

(١) "تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٩، و"تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ١٤.

(٤) المرجع السابق، صج١، ص ٧٣.

(٥) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٣.

ويدعوك إلى الدنيا فعله"(١).

ونصح كل طالب علم بأن "لا تجلس في مجلس لا تستفيد منه علمًا"(٢).

وقد كان للإمام بركاته العظيمة على تلامذته، تزكية وتعليمًا وسمعة، وتوفيقًا، مثال ذلك: عندما رحل محمد بن الحسن إلى المدينة المنورة، ولزم الإمام مالكًا أكثر من ثلاث سنين، وسمع من لفظه أكثر من سبعمائة حديث، ثم عاد إلى بلده العراق، فكان إذا جلس وحدَّث عن الإمام مالك امتلأ منزله، وإذا حدث عن غيره من الكوفيين لم يجئه إلا اليسير من الناس!!(٣).

وقد كان الإمام يتابع طلابه ويدربهم على الدعوة والمناظرة، ويقدم لهم ملاحظاته وخبراته، ومثالًا على ذلك، لما أبى مالك المناظرة مع أبي يوسف، أمام الرشيد، قام المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، تلميذ الإمام يطلب مناظرة أبي يوسف، فأذن أمير المؤمنين، فتناظرا إلى المغرب، حتى خرجوا، وقويت حجة المغيرة على أبي يوسف، وقد سأل المغيرة إمامه مالك،: كيف رأيتَ مناظرتي للرجل؟. قال مالك: "رأيتك مستعليًا عليه، غير أنك تترك شيئًا"، قال المغيرة: وما هو؟، قال: كنت إذا ظهرت عليه في المسألة فضاقت به، أخرجك إلى غيرها، وتخلص منها بذلك، وكان ينبغي أن لا تفارقه فيها حتى يفرغ منها"(٤).

إن الإمام، يقدم بعض تلامذته لينظروا بعض العلماء، وهو حاضر، دون أن يخوض بنفسه في تلك المجادلات، وإن كان يتدخل ـ أحيانًا ـ للإجابة عن سؤال، أو التعقيب على رأي، وتصحيح الخطأ الواقع من المخالف(٥).

ومن أمثلة ما سبق، تقديمه تلميذه المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي لمناظرة

(١) "المرجع السابق"، ج١، ص ٩٨.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٧.

(٣) انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٦، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٦٤.

(٤) "ترتيب المدارك...."، ج٣، ص ٤، ٥.

(٥) انظر "الفكر المقاصدي عند الإمام مالك"، ص ٥٢٠.

القاضي الإمام أبي يوسف، صاحب أبي حنيفة، بأمر هارون الرشيد الذي استدعى المغيرة للمناظرة.

وهذا ما حدث فيها: قال المغيرة لأبي يوسف: كلمني بما بدا لك أجاوبك.

قال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء (يعني مالكًا وأصحابه)، يقضون بغير ما في كتاب الله، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾؛ ويقول: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد، ولا نسمع أن الله ـ تعالى ـ ذكر إلا شاهدين، أو أربعة شهداء، ولم يصح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قضى باليمين مع الشاهد.

قال المغيرة: قضى به النبي ـ ﷺ ـ، وقضى به علي بالكوفة.

قال أبو يوسف: أنا أكلمك بالقرآن، وأنت تكلمني بأفعال الناس؟، تعرفني بهذا وما قضى به علي وغيره؟.

قال المغيرة: فأنت كافر بنبي، قضى باليمين مع الشاهد أو مؤمن به؟!.

فسكت أبو يوسف، وأمر الرشيد للمغيرة بألف دينار(١).

وكان الإمام يراسل بعض تلامذته، في المسائل، ويكاتبهم، ويجاوبهم، ومنهم عبد الله ابن فروخ. وكان مالك يعظمه ويكرمه، ولما قدم المدينة أتى قبر النبي ـ ﷺ ـ، فسلم عليه، وأتي مالكًا، فتلقاه بالسلام، وقام إليه، وكان لا يفعل ذلك بكثير من الناس، وكان لمالك موضع من مجلسه يقعد فيه، وإلى جنبه تلميذه المغيرة المخزومي، حيث يجلس دائمًا، ولا يسمح مالك لأحد أن يقعد مكان المخزومي، لكنه أذن لابن فروخ بالجلوس فيه، وسأله عن أحواله ومتى كان قدومه، فلما أخبره بأنه أتى في الحال، قال له مالك: "صدقتَ، لو تقدم قدومك لعلمت به ولأتيتك!". وجعل مالك لا ترد عليه مسألة، وابن فروخ حاضر، إلا قال له: أجب يا أبا محمد، فيجيب ثم يقول مالك: هو كما قال. ثم التفت مالك إلى أصحابه، وقال: "هذا فقيه المغرب"(٢).

---

(١) أ/ عبد الحليم الجندي، "مالك بن أنس"، ص ٢٦١.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، طبع وزارة الأوقاف المغربية، ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

وقد كثر تقديم الإمام مالك لابن فروخ في الإجابة على الأسئلة والمشاركة في العملية التعليمية بحضرته، تدريبًا له، وإعدادًا.

ولما جاءته مسائل، قال مالك لمن جاءه بها: ما قال فيها المصفر؟ (يعني البهلول ابن راشد)، وما قال الفارسي (يعني ابن فروخ)؟. ثم كتب مالك الأجوبة، وكتب في آخر الكتاب: "ودين الله يسر، إذا أقيمت حدوده"(١).

وذات مرة أتى عبد الله بن فروخ، إلى الإمام، فأجلسه معه على دكان، مكان مرتفع، فأتاه سائل من أهل المغرب، بمسائل في الجنايات، فقرئت عليه، فقال له مالك: أجبهم يا أبا محمد، فهم أهل بلدك، فقال له ابن فروخ: بحضرتك؟ قال: "نعم، عزمتُ عليك".

وقد تابع موقف تلميذه بن فروخ في مواجهته لبدع في بلده، وتأليفه كلامًا يرد عليها، ونصحه بعدة أمور مهمة، أهمها: قيام الكفء القادر على الرد والحجاج بعلم وحجة وإقناع، أما الضعيف علمًا وبيانًا وصبراً فعليه الحذر من التصدي بنفسه لهذه المهمة، وقد جاء هذا في رسالته لتلميذه، فقال: إن ظننتَ ذلك بنفسك خفتُ أن تزل أو تهلك!، لا يرد عليهم إلا من كان ضابطًا عارفًا بما يقول لهم، لا يقدرون أن يعرجوا عليه! (أي يخدعوه)، وأما غير ذلك فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ، فيمضوا على خطئه، أو يظفروا منه بشيء، فيطغوا، ويزدادوا تماديًا على ذلك"(٢).

وكان بينه وبين طلابه تفاعل، وتجاوب، وقرب، وتناصح، أدى إلى حسن إرشادهم وتزكيتهم، وجمال طلبهم العلم.

يبين ذلك ما صنعه مع تلميذه المغيرة المخزومي، فقد كان المغيرة يسأله عن القول يقوله أستاذه مالك، من أين قاله؟!، وهذا إحراج وإرباك، فما كان من الإمام إلا أن نصحه، فيما بينه، وعلمه أدبًا عاليًا في السؤال والتعلم، قال له: "يا أبا هاشم!، إنك تكرم عليَّ، وتسألني عما لا أجيب فيه الناس، فإن أجبتك اجترأوا عليَّ، وأحب ألا تفعل،

(١) المرجع السابق، "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٠٣.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١١٠، ١١١.

ولكن اكتب ما تريد من المسائل، وابعث بها تحت خاتمك، أجبك فيما أمكنني إن شاء الله".

ويعلق المغيرة على هذا النصح والتربية الراقية: فانصرفت مسرورًا، وقلت لأصحابنا: اكتبوا مسائل، فكتبناها، وختمت عليها ووجهتها إليه، فأقامت عنده أربعة أشهر، فجاءتني بخاتمه بعد ذلك، وقد أجاب في ثلث تلك المسائل، وقال في باقيها: لا أدري"(١).

ـ ولما حج هاشم بن جريج ـ وهو حدث ـ، أتى مالك بن أنس، ـ وقد رحل الناس ـ، بورقتين من حديث، فقال للإمام: "أقرأُ هذه الأحاديث، فقد مضى الناس؟!". فرفض الإمام قائلًا: "ينتظر أحدكم، حتى إذا رحل الناس جاء فقال: أقرئني، فقد رحل الناس!".

فالتفت هاشم إلى الإمام مالك، فقال مجيبًا: أصلحك الله، إن تكن حاجة أو أمر تأمر به انتهيتُ إلى طاعتك، ووقفتُ عند أمرك، وفرحتُ بذلك في نادي قومي، وسدتُ به على عشيرتي، أستودعك الله، فإن طاعتك فرض، وقولك حكم، أستودعك الله".

لما رد هاشم بهذا الأدب، وانصرف، أمر الإمام برده وأتى به، وأعجب به وقال: "مثل هذا طلب العلم.." وقرأ الإمام له، وانصرف هاشم(٢).

وقد تلقى الإمام علمًا أفاده من أحد تلاميذه، هو عبد الله بن نافع، فقد سأل تلميذه عن حديثه عن حسين بن عبد لله بن ضميرة في القراءة في ركعتي الفجر، فحدثه به، فأعجب مالكًا، واستحسنه، وقال: قد كنا على هذا، ولم يبلغني فيه شيء"(٣).

رأينا الإمام مالكاً يرغب في المزيد من العلم، ويستحسنه، ويشيد بصاحبه، ويقر بجهله بما تعلمه!.

وهناك موقف للإمام مع تلميذه أسد بن الفرات، يبين قوة إخلاص الإمام لربه، وحبه

(١) "المرجع السابق"، ج٣، ص ٧، و"الإمام بعيون مغربية"، دراسة بالإنترنت.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٨، ٧٩.

(٣) "المرجع السابق"، ج٣، ص ١٢٩.

لتلاميذه، وحسن إرشاده لهم.

فقد ذهب أسد بن الفرات إليه، وأخذ يلقي عليه المسائل، يتعرف أحكامها، حتى عرف مالك فيه رغبته في التفريع فأوصاه بأن يذهب إلى العراق.

فقد سأل أسد شيخه الإمام عن مسألة فأجابه، ثم أخرى فأجابه، وقال له: "حسبك يا مغربي، إن أحببت الرأي فعليك بالعراق"، فارتحل إلى محمد بن الحسن، ولازمه، وفي رواية أن ابن القاسم وغيره كانوا يحثون أسدًا على سؤال الإمام كثيرًا، فإذا أجابه قالوا له: قل له: "فإن كان كذا وكذا"، (أي أسئلة افتراضية)، فضاق الإمام يومًا بهذه الأسئلة، وقال لأسد: "هذه سلسلة بنت سلسلة، (إن كان كذا كان كذا)، إن أردت فعليك بالعراق"(١) .

ولما طلب أسد من الإمام وصية له عندما هم ـ مع غيره ـ بوداعه، قال له شيخه: أوصيك بتقوى الله والقرآن ومناصحة هذه الأمة"(٢)، وهذه فراسة من مالك فيه، فولي أسد بعد هذا القضاء.

إن الإمام مالك لما رأى في تلميذه نزعة التفريع والتقدير والفرض، أرشده إلى المعلم والشيخ المناسب، ومحَّضه نصيحة المؤمن التقي(٣).

ومن صور رعايته لتلاميذه ما صنعه مع تلميذه ابن وهب، حين غاب عن مجلس مالك أيامًا، فسأله عن السبب، فذكر له أنه أرمد، (أي أصيب في عينه)، بسبب كتابته فقه وعلم مالك بالليل، فأمر الإمام جاريته: "هاتي من ذلك الكحل لصديقي المصري ابن وهب"، علاجًا وتطبيبًا له، وأعطته أنبوبة أو أنبوبتين، وكانت تأتي الهدايا إلى مالك بالنهار، فيهديها إلى ابن وهب بالليل(٤).

وذكر مصعب بن عبد الله أنه ما أتى الإمام مالكًا إلا أخرج الإمام الوسادة من تحته،

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٢.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٩٢.

(٣) "مالك، حياته، عصره، آراءه وفقهه"، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٤) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ٢٣٦، وموقف له رائع مع تلميذه عبد الله اليحصبي، ص٣١٠، ٣١١، في "ترتيب المدارك"، ج٣، ص.

ويجعلها تحته، إكرامًا له وتحببًا![1].

وكان الإمام يخدم تلامذته ويدعوهم لبيته، ويهيئ لهم الطعام والشراب ويدعهم على حريتهم، وفي ذلك قال عبد الله بن الحكم: "هيأ مالك بن أنس دعوة للطلبة، وكنتُ فيهم، فمضينا معه إلى داره، فلما دخلنا الدار، قال: "هذا المستراح، وهذا الماء"، (دورة المياه، والحمام)، ثم دخلنا البيت، فلم يدخل معنا، ودخل بعد ذلك، فأتانا بالطعام، ولم يأت قبله بالماء لغسل أيدينا، ثم أتى به بعده، فلما خرج الناس سألتُه عما رأيتُ، قال الإمام: "أما إعلامي لكم بالمستراح والماء، فإنما دعوتكم لأبركم، ولعل أحدكم يصيبه بول أو غيره، فلا يدري أين يذهب، فيصل إليه الضرر، وأما تركي الدخول معكم في البيت، فلعلي أقول ها هنا أبا فلان اجلس، وها هنا أبا فلان اجلس، وقد أنسى بعضكم، فيظن ذلك نقصًا فيه، فتركتكم حتى أخذتم مجالسكم، ودخلتُ عليكم، وأما تركي الماء قبل الطعام فإن الوضوء قبله من سنة الأعاجم، وأما بعده فقد جاء ذلك في حديث"[2].

(١) "المرجع السابق"، ج١، ص ٩١، ٩٢.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٤٦.

ثناؤه الصادق على تلاميذه، وأصحابه

شاع ذلك منه، وكثر، تعليمًا لطلابه الوفاء والتقدير، وإذاعة الخير في الأمة، ليقتدي به، ومن أمثلة ذلك عندما ذُكر عبد الرحمن بن القاسم العتقي أمامه، دعا له وقال: "عافاه الله، مثله كمثل جراب مملوء مسكًا"(١).

وقال عن تلميذه القعنبي، الذي لازمه عشرين سنة،: "هو خير أهل الأرض"(٢).

وقد قال الإمام كلامًا طيبًا، في حق صاحبه في طلب العلم والدعوة، عبد العزيز بن أبي حازم، فذكر أنه لفقيه، وقال: "قوم فهيم ابن أبي حازم لا يصيبهم العذاب". وقال مظهرًا فضله وصدقه،: "ما يدفع عن المدينة إلا بابن أبي حازم".

ولما احتضر مالك سئل إلى من نفْزع، ومن نشاور بعد مماتك؟ قال: "إن قومًا فيهم ابن أبي حازم، فيصدرون عن رأيه، أرجو أن يوفقوا".

وعندما سأله رجل، من نسأل (في العلم)، يا أبا عبد الله؟ قال له: "سل ابن أبي حازم، فإنه نعم المرء"(٣).

أما ابن أبي ذئب فقد كان صاحب الإمام مالك، وكانت بينهما ألفة قوية، ومودة صادقة، وكان له قدره ومكانته عند الإمام مالك، يدل على ذلك، لما قدم مالك على أبي جعفر المنصور سأله: من بقي بالمدينة من المشيخة؟ قال: يا أمير المؤمنين: ابن أبي ذئب وابن أبي سلمة، وابن أبي سبرة"(٤).

وقد أثنى على أبو بكر بن حزم، فقال: "كان رجل صدق، كثير الحديث، ما رأيت مثل ابن حزم، أعظم مروءة، ولا أتم حالًا، ولا رأيتُ من أوتي مثل ما أوتي: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم"(٥).

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٤٥.

(٢) "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية..."، مرجع سابق، ج١، ص ٥٧.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١١، ١٢.

(٤) انظر "وفيات الأعيان"، لابن خلكان، ج٤، ص ١٨٣.

(٥) انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ٣٢٨.

صلات الإمام الحسنة مع إخوانــه العلمــاء

كان من سنة العلماء أن يروى الأكابر عن الأصاغر، وأن يحضر الشيوخ والأساتذة والأقران، مجلس تلامذتهم وحلق دروسهم، وهدفهم من ذلك استدامة طلب العلم، وإخضاع النفس، صنع ذلك كبار شيوخ مالك، فرووا عنه، وحضروا دروسه، ومنهم شيخه يحيى بن سعيد الأنصاري الذي خرج إلى العراق فقال لمالك: التقط لي مائة حديث من حديث "ابن شهاب" أرويها عنك"، فكتبها مالك، وأعطاها ليحيى فقال له: "أرويها عنك" قال مالك: نعم.

وكان من هدي التلاميذ إدامة اختلافهم إلى شيوخهم، حتى بعد تصدر التلاميذ للفتيا، والتدريس، فلم يكن عندهم ما يمنع من طلب العلم والرشد والتوجيه،ولو تصدروا!.

وهذا ما صنعه مالك مع شيخه ربيعة وغيره.

ومنهم سفيان بن عيينة الذي كان يجلس في حلقة مالك، يسمع الحلال والحرام، والحديث المعمول به،لا يتكلم بحرف،وإذا خرج حلق لنفسه حلقة، يدرس فيها ويربي(١).

وقد حرص الإمام على مذاكرة ومدارسة العلوم مع أقرانه من أقطاب العلم وكبرائه، منهم الإمام الأوزاعي الذي كان حَجاجًا، فلما أتى المدينة أسرع إليه مالك، فأتاه فسلم عليه، وجلسا يتذاكران الفقه والمغازي من الظهر إلى المغرب، ففي الفقه غمره مالك، وفي المغازي غمر الأوزاعي مالكًا!!(٢).

ويذكر أحد تلاميذ الإمام مالك أنهم كانوا في مجلسه في بيته، فاستؤذن لعبد الله بن مبارك بالدخول، فأذن له، فما رآه مالك تزحزح له في مجلسه، ثم أقعده بجانبه، إكرامًا له، واعترافًا بقدره، فكان القارئ على الإمام يقرأ، فربما مر بشيء فيسأل مالك ابن المبارك:

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك" للزواوي، ص٩، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ٦٩، ٧٠.

(٢) انظر "البداية والنهاية"، لابن كثير، ج١٠، ص ١١٥، و"تاريخ دمشق"، ص١٠.

"ما مذهبكم في هذا؟"، أو: "ما عندكم في هذا؟". فكان ابن مالك يجاوبه، ثم قام ابن المبارك، فخرج، فأعجب مالك بأدبه، وقال ـ مثنيًا عليه ـ أمام طلابه: هذا ابن المبارك، فقيه خراسان![1].

وكانت بين مالك والليث صلة ودودة جميلة، فهيا التعاون والعطاء والإعانة على أمر الدين والدنيا، ومن صور ذلك صلة الليث لمالك بالمال، كل سنة يصله بمائة دينار، وذات مرة فكتب إليه مالك: "عليَّ دينٌ"، فبعث إليه بخمسمائة دينار، وذكر ابن وهب ـ تلميذ مالك ـ أن مالكًا كتب إلى الليث: "إني أريد أن أُدخل ابنتي على زوجها (يزوّجها)، فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفر (عطر)"، فبعث إليه الليث بثلاثين جملًا عصفرًا، فباع منه بخمسمائة دينار، وبقي عنده فضلة[2].

***

(١) انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٤٢١.

(٢) انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٤٩.

أبـــرز تلاميـــذ الإمـام مالك.

أبـرز تلاميـذ الإمام مالك

إن الإمام مالك قد علم أئمة المذاهب الفقهية، فالشافعي تلميذه الأشهر، والإمام أحمد تلميذ الشافعي، لكن أحمد ـ أيضًا ـ تلميذ غير مباشر لمالك في مدرسة الاتباع الكامل للسنة النبوية، أما أبو حنيفة فإن لم يكن مالك قد أثر في أبي حنيفة ذاته، فقد ترك في مدرسته أعظم الأثر، فإن كاتب المذهب الحنفي محمد بن الحسن هو تلميذ مالك، وله إحدى الروايات الشهيرة في الفقه المقارن لكتاب مالك، الشهير بالموطأ.

أما صاحب أبي حنيفة الثاني وهو أبو يوسف، فقد قرأ الموطأ، ثم مال بمدرسة أبي حنيفة إلى مقاربة مدرسة المحدثين[(١)]، ومن أبرز تلامذته، مجموعة من كبار أئمة الأمة، منهم:

١ ـ الإمـام الشافعـــي:

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع...، بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، وأمه أزدية، ناصر السنة، وعالم العصر، وفقيه الملة.

ولد بغزة سنة ١٥٠هـ يوم مات أبو حنيفة ـ رحمهما الله ـ وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين، فنشأ بها، ومات أبو إدريس شابًا، فنشأ يتيمًا في حجر أمه، وتردد بالحجاز والعراق وغيرهما، ثم قدم مصر فاستوطنها.

روى عن مالك والدراوردي[(٢)] وابن عيينة وفضيل بن عياض وغيرهم.

وروى عنه ابن حنبل، والمزني[(٣)]، ويونس بن عبد الأعلى، ومحمد بن

(١) أ/ عبد الحليم الجندي، "أئمة الفقه الإسلامي..."، مرجع سابق، ص٧٠، ٧١.

(٢) عبد العزيز الدراوردي، هو أبو محمد، عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد، صحب مالكًا وغيره، من العلماء الكبار، ثقة، صاحب حديث، عد من فقهاء المدينة، بعد مالك، وروى عنه ابن وهب، والقعنبي وغيرهما، توفي سنة ١٨٧هـ، بالمدينة المنورة. انظر" ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٣ ـ ١٥، و"شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٥٥.

(٣) المزني صاحب الشافعي: أبو إبراهيم، إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني، من =

عبد الحكم[1] وغيرهم.

رزقه الله ذاكرة حافظة، وصبراً وجلدًا على طلب العلم، رغم فقره، رحل إلى هذيل، أفصح العرب، ليتقن العربية، ويذكر الإمام قصة تحوله من إنشاد الأشعار وذكر الأدب والأخبار وأيام العرب إلى الفقه والعلم الشرعي والدور الكبير الذي قدره الله له[2].

فيذكر أن رجلًا من الزبيريين مر به وقال لـه ـ لافتًا نظره إلى ما هو أهم ـ:"يا أبا عبد الله، عز عليَّ ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سدتَ أهل زمانك؟".

فرد الشافعي: ومن بقي يُقصَد؟. فقال الرجل له: هذا مالك، سيد المسلمين يومئذ!.

كان أثر هذا العرض الجميل من الرجل لدى الشافعي القبول والتأثر، والفاعلية، وقال ـ مبينًا ذلك ـ: "فوقع في قلبي، وعدت إلى الموطأ، فاستعرتُه، (وفي رواية: فاستعرضتُه)، وحفظتُه في تسع ليال، أو ثلاث ليال".

وفي رواية أن الرجل الزبيري قال للشافعي: ترضى لنفسك في قرشيتك بما أنتَ فيه أن تكون شاعرًا؟. قال له: فما أصنع؟. قال له: تفقه، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين"، قال الشافعي: وأنى لي بذلك؟. قال: مالك بن أنس سيد المسلمين، تقوم بنا إليه.

فأتيا مالكًا، فقربه وأدناه، وجعل يسمع منه، وهو ابن اثنتي عشرة سنة.

ـ ويتابع الشافعي قصة طلب العلم، فيذكر أنه دخل إلى والي مكة، بطلب من أمه،

= أهل مصر، كان زاهداً عابداً عالمـًا مجتهداً، إمام الشافعيين وأعرفهم بطرقه وفتاويه، صنف كتبـًا كثيرة في المذهب، وقال الشافعي عنه: المزني ناصر مذهبي، ومناقبه كثيرة، توفى عام ٢٦٤هـ، بمصر، ومدفنه قريب من مدفن الإمام الشافعي، بسفح المقطم ـ رحمه الله ـ. انظر "وفيات الأعيان"، لابن خلكان، ج١، ص ٢١٧، ٢١٨.

(١) محمد بن عبد الحكم: فيه أهل مصر، روى عن ابن وهب، صدوق، ثقة، كان عالمـًا بمذهب مالك، عارفـًا بأقاويل الصحابة والتابعين، توفى عام ٢٦٨هـ. انظر: شمس الدين الذهبي، "ميزان الاعتدال في نقد الرجـال، ط ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٦، ص ٢١٩.

(٢) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ١٧٤ ـ ١٧٦، وص ١٧٨، و"حلية الأولياء، ج٩، ص ٦٧ ـ ٧٠.

لأخذ كتاب منه إلى والي المدينة ليفاتح الإمام مالكًا، في شأن تعلمه، فركب الشافعي مع والي المدينة، للاستئذان على الإمام، فأذن لهم، ولما ناوله أمير المدينة كتاب والي مكة شفاعة للشافعي، رمى الإمام مالك الكتاب وقال: "يا سبحان الله، صار علم رسول الله، يؤخذ بالوسائل!".

فتهيب الوالي من كلامه، وتقدم الشافعي وأفصح عن حاله وطلبه، قائلًا للإمام مالك: أصلحك الله، إني رجل مطلبي، (من أحفاد عبد المطلب)، ومن حالي قصتي...."؛ فلما سمع كلامي نظر إليّ ساعةً ـ وكان له فراسة ـ، ودار حوار ممتع بين الشيخ والطالب، هذه حقيقته"[1].

قال الإمام للشافعي: ما اسمك؟. فقلت: محمد، قال له: "يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن"، ثم قال للشافعي: "نعم وكرامة، إذا كان غدًا تجئ، وتجئ بمن يقرأ لك الموطأ". فرد مالك: فإني أقوم بالقراءة.

ثم غدا الشافعي على الإمام وابتدأ القراءة عن ظهر قلب، والكتاب بين يديه، فلما أراد قطع قراءته، طلب الإمام منه الإكمال فيها، قائلًا: "بالله يا فتى، زد"، فأكمل، حتى قرأ الموطـأ على الإمام في أيام يسيرة، ثم أقام الشافعي بالمدينة إلى أن توفى الإمام مالك[2].

وفي رواية أن الإمام لما نظر في كتاب الوالي الشافع لتلميذه الشافعي، سأل: من هو؟. قال الأمير. هذا ـ (للشافعي)، فنظر مالك إليه ونكس رأسه، وقال واعظًا: "كيف يصلح العلم لمن لا يمرض من خوف الله؟، فإذا كان كذلك أوشك أن ينفعه الله بالعلم!". فقال له الأمير: إنه مطلبي، (أي من آل بيت الرسول ـ ﷺ ـ)، عند ذلك سُرِّيَ عن الإمام مالك، وفرح بالطالب كما سبق![3].

وقد أكثر الإمام الشافعي من الثناء على أستاذه وشيخه الإمام مالك، اعترافًا بقدره

---

(١) "المرجع السابق"، ص١٧٦ ـ ١٧٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٧ ـ ١٥.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٧٧.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٧٨.

وأثره ودوره معه، ومما قال: إنما أنا غلام من غلمان مالك، وعنه أخذت العلم.

وقال: "مالك بن أنس معلمي"، وفي رواية: "أستاذي، ومنع تعلمتُ العلم".

وقال أبو إسحاق الشيرازي(١): ما يُعد الشافعي إلا أحد أصحاب مالك، ولو عد ما خالفه فيه عبد الملك(٢)، أو غيره من أصحابه، لكان أقل"، أو نحو هذا الكلام(٣).

إن نفس الشافعي قد ارتبطت بمالك، حتى لتراه بعد رحيل الإمام مالك عن الدنيا بعشرين عامًا يكتب كتاب "خلاف مالك"، ويتردد في نشره عامًا كاملًا، حتى اختار الله له، فأقدم على نشره، مؤثرًا حق العلم.

وظل مقدرًا لمالك، ومعترفًا له بإمامته، حتى أثناء رده عليه، فلم يكن يسميه باسمه، بل يقول عنه: "قال صاحبنا"، أو "بعض أصحابنا"، أو "بعض أهل بلدنا!"(٤).

وقال مبينًا فضل "الموطأ" عليه: "ما نظرتُ في "موطأ" مالك إلا ازددت فهمًا"(٥).

وقد قضى الشافعي عشر سنوات في حلقة شيخه ـ الإمام مالك ـ، وعندما افترقا وصاه مالك، قائلًا: لا تسكن الريف فيضيع علمك، واكتسب الدرهم، ولا تكن عالةً على الناس، واتخذ لك ذا جاه ظهرًا، لئلا يستخف بك العامة، ولا تدخل على ذي السلطنة إلا وعنده من يعرفك، وإذا جلستَ عند كبير فلا يكن بينك وبينه فسحة، لئلا يأتي من هو أقرب منك، فيدنيه ويبعدك، فيحصل في نفسك شيء"(٦).

---

(١) أبو إسحاق الشيرازي: الإمام، المجتهد، شيخ الإسلام، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن يوسف، الفيروزآبادي، الشيرازي، الشافعي، ولد عام ٣٩٢٩هـ، تفرد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة، صنف في الأصول والفروع والخلاف والمذهب، كان زاهداً ورعـًا، جواداً، مليح المحاورة، توفى عام ٤٧٦هـ، ببغداد. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١٨، ص ٤٥٣ ـ ٤٦١.

(٢) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ١٧٩.

(٣) "المرجع السابق"، ص ١٨٠.

(٤) أ/ عبد الحليم الجندي، "أئمة الفقه الإسلامي" ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، في سلسلة "دراسات في الإسلام، رقم: ١٣٨، ص ٤٧، ٤٨.

(٥) "سير أعلام النبلاء"، ج ١٥، ص ١٥٩٩، و"حلية الأولياء"، ج٩، ص ٧٠.

(٦) ص ٧٨، "الفكر التربوي"، و"أئمة الفقه الإسلامي"، ص ١٧.

ثنـــاء العلماء على الإمام الشافعـــي

قال أحمد بن حنبل عنه: "ما أحد يحمل محبرةً من أصحاب الحديث إلا وللشافعي عليه مِنة". وقال: "كنا نلعن أصحاب الرأي، ويلعنوننا، حتى جاء الشافعي، فمزج بيننا". وقال: "ما عرفتُ ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالستُه".

ولما رآه قال عن الشافعي: "هذا رحمة من الله، لأمة محمد، ـ ﷺ ـ. وما رأيت أفقه في كتاب الله منه.

كان الشافعي كالشمس للدنيا، والعافية للناس، فانظر، هل لهذين من عِوض؟".

وقال غيره: الشافعي فتح أقفال العلم، وكان له من العبادة الحظ الوافر، وفي الفكر العقل والقلب الحاضر.

وكان يحضر مجلسته ببغداد الأدباء والكتاب، يسمعون حسن ألفاظه وفصاحته، وما رأيت ولا أرى أحد في عصر الشافعي مثله.

ـ وقال صاحب "حلية الأولياء": "كان الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ للآثار والسنن تابعًا، وفي استنباط الأحكام والأقضية رائعًا، وبالمقاييس المبنية على الأصول قائلًا، وعن الآراء الفاسدة المخالفة للأصول عادلًا". وأخبار الشافعي كثيرة، وفضائله مأثورة(١).

وقد توفى بمصر، عند عبد الله بن عبد الحكم(٢)، وإليه أوصى، عن نيف وخمسين سنة، وكانت وفاته يوم الخميس، وقيل: ليلة الجمعة، عام ٢٠٤هـ، وصلى عليه أمير مصر(٣).

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٨٠ ـ ١٩٤، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٤٦ ـ ٤٨.

(٢) هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين، بن الليث، مولى عميرة، امرأة من موالي عثمان بن عفان، يكنى أبا محمد، سمع مالكًا والليث وغيرهما، كان ثقة، صالحًا، متحققًا بمذهب مالك، فقيهًا، صدوقًا، وكان صديقًا للشافعي، مكرمًا له وعنده مات، مات عام ٢٩١هـ عن ستين سنة، ودفن بمصر ـ رحمه الله ـ. انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٨.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٩٥.

٢ ـ محمـــد بن الحسن الشيبانـــــي:

هو، صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان، وناشر مذهبه، وفقيه العراق، أبو عبد الله، ويعد صاحب الفضل الأكبر في تدوين مذهب الحنفية، على الرغم من أنه لم يتتلمذ على شيخه أبي حنيفة إلا لفترة قصيرة، روى عن مالك والأوزاعي، والثوري وغيرهم، وروى عنه كثيرون. رحل إلى مالك بن أنس في المدينة. كان من أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم لباسًا.

نسبـــه:

هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، مولاهم، كان والده من أهل خُرُستا ـ قرية مشهورة بظاهر دمشق ـ، فقدم العراق في آخر بني أمية، فولد له محمد بواسط سنة ١٣٢هـ. فحمله إلى الكوفة، فنشأ بها، وكتب شيئًا من العلم عن أبي حنيفة، وتوفى أبو حنيفة ومحمد في سن الثامنة عشرة، وكان قد انتفع به كثيرًا، فقهًا وأدبًا، ثم لازم أبا يوسف من بعده حتى برع في الفقه والقياس(١).

وقد أنفق مالًا كثيرًا على طلب العلم، فقال: "خلَّف أبي ثلاثين ألف درهم، فأنفقت نصفها على النحو والشعر، وأنفقت الباقي على الفقه"(٢).

وقد اعترف محمد بن الحسن بتلمذته على الإمام مالك، فقال: "أقمتُ على باب مالك سنتين أو ثلاثًا، أسمع منه"، وكان يقول: "إنه سمع منه لفظًا أكثر من سبعمائة حديث"(٣).

وقد تلقى عن مالك الفقه والحديث، وكان إذا حدث عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس حتى يضيق عليهم الموضع، وإذا حدث عن غير مالك لم يجئه إلا اليسير.

---

(١) "شذرات الذهب" لابن العماد، ج١، ص ٣١٥.

(٢) "المرجع السابق"، ج١، ص ٣١٥.

(٣) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٤٠، و"لسان الميزان"، لابن حجر العسقلاني، ط ٣، ١٩٨٦م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٥، ص ١٢١.

وقد رحل إلى الأوزاعي في الشام، وسمع منه، وقد أتاحت له هذه الرحلات واللقاءات بأقطاب العلم وسادته في صعره فرصة عظيمة، تمكن بها من النبوغ والريادة في علوم كثيرة خاصة الفقه.

وقد نال الحظ العظيم لدى الرشيد، بفضل علمه وتقواه، فتولى قضاء الرقة، وكان يصحبه معه في أغلب أسفاره، وآخرها سفره مع الرشيد إلى الري، حيث توفى بها عام تسع وثمانين ومائة، عن ثمان وخمسين سنة(١).

من ثناء العلماء عليه:

قال الشافعي عن فصاحته: "لو أشاء أن أقول: نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلتُ، لفصاحته".

وكان الشافعي يثني عليه ويفضله، ومما قاله عنه: "ما رأيتُ أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن، ولا أفصح منه، وما رأيتُ رجلًا أعلم بالحلال والحرام، والعلل، والناسخ والمنسوخ من محمد بن الحسن"(٢)، وقال عن ظرفه وروحه الجميلة: "ما رأيت سمينًا أخف روحًا من محمد بن الحسن"(٣).

وقد أخذ عنه الشافعي علمًا كثيرًا، عبر عن ذلك فقال: "لقد كتبت عن محمد وقر بعير، لأنه يحمل الكثير، ولولاه ما انفتق لي من العلم ما انفتق"(٤).

وكان محمد بن الحسن كثير البر بالشافعي - ﷺ -، فكان يقضي ديونه، ويعيره الكتب(٥).

وقال عنه ابن حجر العسقلاني:"كان من بحور العلم والفقه، قويًا في مذهب مالك".

---

(١) انظر "شذرات الذهب"، لابن العماد، ج١، ص ٣٢١، ٣٢٢، و"حلية الأولياء"، ج٩، ص ٧٤.

(٢) "شذرات الذهب"، لابن العماد، ج١، ص ٣١٥.

(٣) "لسان الميزان"، لابن حجر العسقلاني، ج٥، ص ١٢١.

(٤) "المرجع السابق"، ص ٣١٦، وانظر: أبو إسحاق الشيرازي، "طبقات الفقهاء"، تحقيق: إحسان عباس، ط/ ١، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠م ج١، ص ١٣٥.

(٥) "شذرات الذهب"، لابن العماد، ج١، ص ٣١٦، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٠ ص ١٤.

٣ ـ أسـد بن الفـرات بن سنـان:

الإمام، العلامة، القاضي، الأمير، مقدم المجاهدين، هو مولى بن سليم بن قيس كنيته أبو عبد الله، مولده بحران، سنة أربع وأربعين ومائة، وقال غيره: سنة خمس، وكان أبوه الفرات بن سِنان من أعيان الجند، أصله من نيسابور، قدم به أبوه تونس مع محمد بن الأشعث، الفقيه، الحافظ، تفقه بأبي الحسن بن زياد ورحل للمشرق ثم طلب العلم على يد الإمام مالك.

ويحكي أسد عن طلبه للعلم على يد الإمام فيقول: "أقمت عند مالك ثلاث سنين، وسمعت منه لفظًا أكثر من سبعمائة حديث".

وذكر أنه قصد مالكًا، لطلب العلم، وكان إذا أصبح الإمام خرج آذِنُه، فأدخل أهل المدينة، ثم أهل مصر، ثم عامة الناس، فكان أسد يدخل مع العامة، ولما رأى مالك رغبة أسد في العلم أمر آذنه بإدخاله مع المصريين، وطلب أسد من الإمام إدخال صاحبين له معه لطلب العلم مثله، فأمر الإمام بإدخالهما معه.

وقد كان أسد يستجيب لطلب زملائه سؤال الإمام عن مسائل، فإذا أجاب قالوا له: "سل الإمام، وقل له: فإن كان كذا وكذا"، أي افتراض مسائل، وتوقعها!. ساعتها رد الإمام على أسد ـ متضايقًا ـ: "هذه سلسلة بنت سلسلة (إن كان كذا، كان كذا)، إن أردت فعليك بالعراق". أي اطلب العلم عندهم.

وقد نصحه مالك بتقوى الله ومناصحة الأمة،عندما ودعه للخروج إلى العراق(١).

وقد لقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما، وأخذ عنه أبو يوسف موطأ مالك، وقد أحبه محمد بن الحسن ولازمه أسد سنوات مكرمًا، مقربًا.

وخصص له محمد بن الحسن وقتًا آخر للسماع منه، ليلًا، وفي ذلك يقول أسد: "قلت لمحمد بن الحسن: أنا غريب، والسماع منك قليل، قال: "اسمع مع العراقيين بالنهار، وجئني بالليل وحدك، تبيتُ معي وأسمعك"، فكان إذا رآني نعستُ نضح وجهي

(١) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٩٢.

بالماء"(١).

وقد زامل أسد شيخه محمد بن الحسن مرتحلين إلى مكة، واستغل ذلك في سؤاله والتعلم منه، ويقول في ذلك: "وربما سألتُه وهو في الصلاة، فيجهر بالقراءة، يعلمني أنه يصلي، فأقول: تشتغل عني بالصلاة، وقد قطعْتُ البلاد إليك؟. فيقطع محمد بن الحسن صلاته (النافلة)، ويجيبني"!.

وله مع محمد بن الحسن موقف يدل على عناية ومتابعة وحب بينهما، فقد رآه محمد بن الحسن يشرب من ماء السبيل، فساله منكِرًا: تشربه؟، فقال له أسد: أنا ابن سبيل!، فلما كان الليل بعث ابن الحسن إلى تلميذه أسد بثمانين دينار، وقال ـ معتذرًا: ما عرفتُ أنك ابن سبيل ـ إلا الآن".

وبعد ذلك أراد أسد الانصراف إلى أفريقية،، (تونس)، فنصحه محمد بن الحسن بالحفاظ على عزته وكرامته، خاصة حين يذهب لولي عهدًا أو أمير، ويتعامل مع المسئولين، وقال لـه: "واعلم أنك حيث تُنزل نفسكَ أنزلوك". وقد شهد له الوالي بإبائه وسمو نفسه ـ بعد موقف لأسد في دار الولاية، ـ فقال الوالي عن أسد: حر واللَّه الذي لا إله إلا هو"(٢).

وقد عرف أسد قدر وعظمة أستاذه مالك بقوة ووضوح عندما نُعي مالك في العراق، فارتجت لموته وعم الحزن على وفاته، وقال في ذلك أسد: "فو اللَّه ما بالعراق حلقة إلا وذُكر مالك فيها، كلهم يقول مالك، مالك، إنا للَّه وإنا إليه راجعون".

وذكر أسد لأستاذه ابن الحسن ما شاهده من شدة وُجْد أهل العراق، وألم موت الإمام مالك عليهم، قائلًا: " ما كثرة ذكركم لمالك، على أنه يخالفكم كثيرًا؟!".

ففاجأ محمد بن الحسن أسدًا برد عظيم، يبين مدة رفعة قدر وعلم وفضل الإمام مالك على ابن الحسن وعلى العلم والدين، فقال لأسد: "اسكتْ، كان ـ واللَّه ـ أمير

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩١ ـ ٢٩٣، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٩٤، ٢٩٥.

المؤمنين في الآثار/ (الحديث والسنن)"، فندم أسد على ما فاته من علم مالك، وأجمع أمره على الانتقال إلى مذهب مالك، فقدم مصر، وقال: "إن كان فاتني لزوم مالك، فلا يفوتني لزوم أصحابه!".

ولازم تلاميذ مالك وعلماء مصر المالكية، مثل ابن وهب، وابن القاسم، وعبد الله بن الحكم، وأشهب، وقد لازم مالك ابن القاسم، وفرغ ابن القاسم وقتًا لمالك وقاله له: "أنا أقرأ في اليوم والليلة ختمتين من القرآن، فأنزل لك عن ختمة!". يعني سأوفر لك وقتًا طويلًا. وقد بُهر أسد بعلم وفقه ابن القاسم، لذا وقف في المسجد وقال: "يا معاشر الناس، إن كان مات مالك، فهذا مالك!". وسأله كثيرًا عن علم مالك، حتى دون عنه ستين كتابًا، وهي ما تسمى بـ "الأسَدية"، وطلبها منه أهل مصر، لينسخوها، فأجابهم(١) لطلبهم بعد تدخل وتوسط القاضي، لدى أسد(٢).

وقد كان أسد ذات إتقان وتحرير لكتبه، ولما بيعت كتب فقيه، فنودي عليها: هذه قوبلت على كتب الإفريقي (أسد بن الفرات)"، ساعتها اشتريت الورقتان بدرهم(٣). (أي بثمن غالٍ، لنفاستها ومراجعة أسد لها).

ـ وبعد أن تمكن من علم مالك وفقهه في مصر ذهب إلى القيروان ومعه مؤلفه الكبير، (الأسدية)، وحصلت له بهذه (الأسدية)، في القيروان رئاسة وإمرة، وعنه أخذ أئمة، منهم أبو يوسف، وسحنون وغيرهم، موطأ الإمام مالك.

وكان ثقة، منكرًا للبدع، محاربًا للمبتدعة(٤)، ويذكر أحد العلماء موقفًا يبين بغضه (أسد) للمبتدعة القائلين بخلق القرآن، فقد كان أسد يفسر آية: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ ﴿طه: ١٤﴾، فقال: "ويل لهم أهل البدع، يزعمون أن الله خلق كلامًا، يقول:

(١) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٩٥.
(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٢٢٨.
(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٢٢٨.
(٤) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٥، و"شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٦٢.

أنا"، ثم عبر عن عقيدته السليمة فقال: "آمنت بالذي يقول "إنني أنا الله"، وأن موسى كليمه، سمع هذا منه، ولكني لا أدري كيف تكلم الله؟"[1].

ـ وقد تولى أسد القضاء في إفريقية عام ٢٠٤هـ، وخرج إلى صقلية واليًا على جيشها في عشرة آلاف رجل، منهم تسعمائة فارس، وتمكن من أعدائه، وكان قد غزا "سردانية"، فأشرف على فتحها، ويحكي أحد من حضر المعركة مع صاحب صقلية ما رآه من القائد العالم القاضي أسد بن الفرات، فيقول: "رأيت أسدًا وفي يده اللواء، وهو يزمزم، وأقبل على قراءة "يس"، ثم حرَّض الناس، وحمل وحملوا معه، فهزم الله جموع النصارى، ورأيتُ أسدًا وقد سالت الدماء مع قناة اللواء، حتى صار تحت إبطه، ولقد رد يده في بعض تلك الأيام فلم يستطع، مما اجتمع من الدم تحت إبطه".

وكان يحب اسمه، ويقول في ذلك: "أنا أسد، وهو خير الوحوش، وأبي فرات، وهو خير المياه، وجدي سنان، وهو خير السلاح!". وقد ولد عام ١٤٥هـ، وتوفي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في حصار سرقوسة (٢١٤هـ)، من غزوة صقلية، وهو أمير الجيش وقاضيه[2].

٤ ـ عبد الله بن فروخ الفارسي:

هو أبو محمد، فقيه القيروان في وقته، مولده كان بالأندلس سنة ١١٥هـ، ثم انتقل إلى افريقية، فسكنها، رحل إلى المشرق، فلقي جماعة من العلماء والمحدثين، منهم مالك بن أنس، وأبي حنيفة، والأعمش، وعبد الملك بن جريج، والثوري وغيرهم، فسمع منهم، وتفقه بهم.

لكنه اشتهر بصحبة مالك، واعتمد في الحديث والفقه على مالك، وكان يكاتب مالك ابن أنس في المسائل ويجاوبه، ثم انصرف إلى افريقية، فأقام بالقيروان، يعلم الناس العلم ويحدثهم، فانتفع به خلق، ثم رحل ثانيًا وأتى مصر، فمات بها.

ـ لقد كان الإمام مالك يكرم تلميذه ابن فروخ، ويعظمه، ولما قدم المدينة لبس ثيابه

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٢٢٨.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٣٠٩، و"سير أعلام النبلاء"، المرجع السابق، ص ٢٢٨.

وأتى قبر رسولنا الكريم ـ ﷺ ـ، فسلم عليه، ثم أتى مالكًا، فما رآه مالك تلقاه بالسلام، وقام إليه، وكان لا يكاد يفعل ذلك بكثير من الناس.

ـ وكان للإمام موضع من مجلسه يقعد فيه، لا يستدعي مالك أحدًا للقعود فيه، فأقعده فيه وسأله عن أحواله، ومتى كان قدومه، فأعلمه أنه في الوقت الذي أتى إليه، فقال له مالك: صدقت، لو تقدم قدومك لعلمتُ به ولأتيتك.

وجعل مالك لا ترد عليه مسألة وابن فروخ حاضر إلا طلب منه الإجابة، قائلًا: "أجبْ أبا محمد"، فيجيب، ثم يقول مالك: "هو كما قال!".

ثم التفت مالك إلى أصحابه وقال: "هذا فقيه المغرب!"(١).

وقد كان مالك يثق في علم تلميذه وكفايته، وفهمه الدقيق، ومما يدل على ذلك، وقائع عديدة، منها: لما أتى مالكًا مسائل من ابن غانم سأله مالك عن إجابة تلميذيه الكبيرين ابن فروخ والبهلول،: "ما قال فيها المصفر؟، (يعين البهلول بن راشد)، وما قال فيها الفارسي؟ (يعني ابن فروخ)". ثم كتب الإمام الأجوبة، وكتب في آخر الكتاب: "ودين الله يسر، إذا أقيمت حدوده"(٢).

وقد كان ابن فروخ كثير التهجد بالليل، وكان تهجده آخر الليل.

وكان محبوبًا، معظمًا عند الناس، يتبركون به، ويجلسون على طريقه إذا خرج من داره، ويمشون معه، ويغتنمون منه دعوة وموعظة، حتى يأتي الجامع، فإذا وصل الجامع تشاغل بمسح رجليه خارج المسجد، وقال لمن معه: "ادخلوا رحمكم الله"، فلا يدخل، حتى لا يبقى معه أحد(٣).

وفي واقعة أخرى أتى ابن فروخ مالكًا، فأجلسه معه، فأتاه سائل من أهل المغرب بمسائل في الجنايات، فقرئت عليه، فقال له مالك: "أجبْهم يا أبا محمد، فهم أهل بلدك".

---

(١) انظر "ترتيب المدارك"، ج٣، ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ١٠٥.

(٣) انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٠٦.

فقال له ابن فروخ: بحضرتك؟!، قال مالك: نعم، عزمتُ عليك.

وكانت المسألة: رجل ضُرب على رأسه، وعلى حقويه، فذهب أم رأسه، وزال عقله، وبصره وسمعه وأسنانه، واسترخت أنثياه، حتى بلغت ركبتيه.

فأجاب ابن فروخ: "في السمع الدية، وكذلك في البصر والعقل والأسنان، ويقعد في إجانة، (حوض ماء)، فيها ماء بارد، في ليلة باردة، فإن تقلصت أنثياه وعادتا إلى حالهما فلا شيء فيهما، وإلا ففيهما الدية كاملة، وإن تقلصت إحداهما فنصف الدية!".

فقال السائل ـ موجهًا سؤاله للإمام مالك ـ: أهذا جوابك يا أبا عبد الله، قال الإمام: "هذا جوابي" (مؤكدًا صحة إجابة تلميذه)، وقد حدث ابن فروخ بهذه الحكاية عنه وعن مالك(١).

وقد عُرض على ابن فروح، القضاء، فأبى، وله في رفضه وقائع تبين عظيم إشفاقه من ربه، وإجلاله لقدر القضاء، ومن ذلك إجباره على الجلوس إلى خصمين ليفصل بينهما في المسجد، فلما تقدما إليه نظر إليهما وبكى طويلًا، ثم رفع رأسه، فقال لهما: "سألتكما بالله إلا أعفيتماني من أنفسكما، ولا تكونا أول مشومين عليَّ". فرحماه، وقاما عنه!.

وخروجًا من هذا الإجبار له على تولى القضاء أشار على الحاكم بتولية عبد الله بن غانم مكانه، لأنه "له صيانة، يعتني بمسائل القضاء، ويعرف مقدار القضاء".

فولى ابن غانم، وكان يشاور ابن فروخ في كثير من أموره وأحكامه، فأشفق ابن فروخ من ذلك وقال له: "يا ابن أخي، لم أقبلها أميرًا، أ أقبلها وزيرًا؟!!".

فألح عليه ابن غانم، وشدد عليه، فما رأى ذلك ابن فروخ خرج إلى مصر هربًا من ذلك، وورعًا، فمات بها.

وقد ذكر ابن فروخ أنه أشفق من تولي القضاء، بناءً على رأي ورؤية الإمام أبي حنيفة، الذي رفض تولي القضاء إشفاقًا من مسئولياته!.

ولما علم الإمام مالك امتناع تلميذه ابن فروخ من تولي القضاء سر بذلك وأثنى عليه

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ١٠٤، ١٠٥.

قائلًا: "أصاب الفارسي!".

ـ وقد كان ابن فروخ ينكر على الأمراء منكراتهم، ويعلن ذلك بلا وجل، فمن ذلك، لما سأله الأمير يزيد بن حاتم عن دم البراغيث في الثوب، هل تجوز الصلاة به، أجابه: ما أرى به بأسًا.

ثم قال بمحضر رسول الأمير: "يسألوننا عن دم البراغيث، ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تُسفك؟"(١).

وقد كان له من الأعمال ما جعل له هذه المكانة العالية في القلوب. من ذلك: تغسيله الأموات الفقراء، تواضعًا، ولا يولي ذلك غيره، ويحملها إلى قبرها(٢).

وفاتــه:

توفى بمصر، إثر منصرفه من الحج، سنة ١٧٥هـ، وقيل سنة ١٧٦هـ ودفن بالمقطم، عن خمس وخمسين سنة، وقيل عن ستين عامًا(٣).

٥ ـ عبد الرحمــن بن مهـدي:

الإمام الرضي، ناقد الآثار، كان للسنن والآثار تابعًا، للأهواء دافعًا. هو أبو سعيد، عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري، مولى الأزد، بصري، سمع السفيانين، والحمادين، ومالكًا وشعبة، وغيرهم.

روى عنه كثيرون، منهم ابن حنبل، ويحيى بن سعيد، وابن وهب، وابن المديني، وغيرهم، وخرج عنه البخاري ومسلم(٤).

لازم ابن مهدي مالكًا، فأخذ عنه كثير الفقه والحديث، وعلم الرجال، وله معه حكايات(٥).

---

(١) انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٠٦ ـ ١٠٨.
(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٠٩.
(٣) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١١٢.
(٤) "سير أعلام النبلاء"، ص١٩٣ ـ ١٩٧.
(٥) "المرجع السابق، ص ٢٠٥.

ـ وقد كان الشافعي يجالسه ويصحبه، مع أحمد بن حنبل، ويثق في إسنادهما، ويقول الشافعي لهما: "ما صح عندكما من الحديث فأعلماني به، لأتبعه، لأنكما أعلم بالحديث مني"(١).

وقد أثنى العلماء عليه ثناءً قويًا كثيراً، فمن ذلك قول أحمد بن حنبل: "كان ابن مهدي من معادن الصدق، ثقة، صالحًا".

وقال أبو حاتم: "كان ابن مهدي خيارًا، ثقة، من معادن الصدق، صالحًا مسلمًا، لقد كان ورعًا، متقنًا".

وقد توفى بالبصرة عام ١٩٨هـ، عن ثلاث وستين سنة(٢).

وقد كان يحاسب نفسه، ويطهرها من شوائب النفاق والرياء، يدل على ذلك لما وجد نفسه يفْرح إذا كثر حاضروه والمستمعون إليه في مسجد يدرس فيه، وإذا قل عددهم حزن، فسأل أحد العلماء، عن ضرر ذلك عليه، فنصحه قائلًا: "هذا مجلس سوء، لا تعد إليه"، فالتزم ابن مهدي بذلك، وقال: ما عدتُ إليه".

ومما يدل على ذلك ـ أيضًا ـ تدريسه يومًا في مجلس، فقام وتبعه الناس، فنهاهم عن ذلك قائلًا: "يا قوم، لا تطئوا عقبي، ولا تمشوا خلفي"، وحدثهم بحديث ذكر فيه عمر بن الخطاب أن: "خفق النعال خلق الأحمق قل ما يبقى من دينه". هكذا يخاف على نفسه العجب والكبر والرياء..!!(٣).

ومن أقواله الحكيمة تحذيره من الكذب، فقال: "ما خصلة تكون في المؤمن بعد الكفر بالله أشد من الكذب، وهو أشد النفاق"(٤).

وقد قال أحمد بن حنبل موضحًا مدى اهتمام وعناية بن مهدي بالحديث: "كأن عبد

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٠٢ـ٢٠٩، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ١٩٢.

(٢)

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ١٩٥، ١٩٦، و"حلية الأولياء"، ج٩، ص ١٢.

(٤) "المرجع السابق"، ص ١٩٨، وص ٢٠٧.

الرحمن بن مهدي خُلق للحديث"، وقال علي بن المديني: "كان علم عبد الرحمن بن مهدي في الحديث كالسحْر".

وكان يطالب من يروي الحديث في أمور الدين، بأن يحفظ الحديث ويتقنه، كالآية من القرن، أو كاسم الرجل.

وكانت له توجيهات مهمة، لطلاب العلم والعلماء، منها قوله: "لا يجوز أن يكون الرجل إمامًا حتى يعلم ما يصح مما لا يصح، وحتى لا يحتج بكل شيء، وحتى يعلم بمخارج العلم، ولا يكون إمامًا في العلم من يحدث بكل ما سمع، ومن يحدث عن كل أحد، ولا يكون إمامًا من يحدث بالشاذ من العلم".

وطالب بسماع العلم من الثقات فقال: "يحرم على الرجل أن يقول في أمر الدين إلا شيئًا سمعه من ثقة".

وطالب كل إنسان بأن يستفيد من كل ما يقابله من الرجال أو يفيد، "فالرجل إذا لقي رجلًا فوقه، في العلم كان يوم غنيمة، وإذا لقي من هو مثله دارسه وتعلم منه، وإذا لقي من هو دونه تواضع له وعلّمه"، وبين أن "الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الأكل والشرب"(١).

وقد كان مبغضًا للبدع والمبتدعة، ويكره الجلوس إلى ذوي الأهواء، خاصة الجهمية القائلين بخلق القرآن، والرافضة، وفي ذلك قال: "من قال: القرآن مخلوق فلا تصلِّ خلفه، ولا تمش معه في طريق، ولا تناكحه".

وقال عن الجهمية: "إنهم يريدون أن ينفوا عن الله الكلام، وأن يكون القرن كلام الله، وأن الله ـ تعالى ـ كلم موسى، وقد ذكره الله ـ تعالى ـ فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ ﴿النساء: ١٦٤﴾".

ولما سئل عن الصلاة خلفهم، فصَّل فقال: يصلى خلفه، ما لم يكن داعية إلى بدعته، مجادلًا عنها، إلا هذين الصنفين: الجهمية، والرافضة، فإن الجهمية كفار بكتاب الله ـ ﷻ

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ١٩٢ ـ ١٩٥، وص ٢٠٣، وص ٢٠٦.

ـ، والرافضة ينتقصون أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ" وكانت له محاورات مع هؤلاء المبتدعة، فيها رجاحة عقل وتمكن من العلم، وجرأة في جدالهم، حتى رجع بعضهم عن أقواله الفاسدة(١).

٦ ـ عبد الله بن مسلمة بن قعنب التميمي:

أبو عبد الرحمن، الحارثي القعنبي، الإمام، الثبت، القدوة، شيخ الإسلام، أصله مدني، وسكن البصرة، فهو في عداد البصريين، ثم نزل مكة، روى عن مالك وابن أبي ذئب، والليث، والحمادين، وسليمان بن بلال، وشعبة بن الحجاج، وغيرهم.

روى عنه أبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، وأبو داوود السجستاني، وغيرهم كثير(٢). وأخرج عنه البخاري ومسلم، وهو أحد رواة "الموطأ".

وقد لزم هذا العالمُ الإمامَ مالكًا عشرين سنة أو يزيد، وقرأ عليه الموطأ، وسمع أحاديثه من مالك مرارًا.

وقد كان مالك يحبه جدًا، ولما جاءه رجل يخبره بقدوم القعنبي، فرح بقدومه، وقال: "هنيئًا بقرب قدومه"، وطلب من الحاضرين القيام له والسلام عليه، قائلًا: "قوموا بنا إلى خير أهل الأرض نسلم عليه". فقام فسلم عليه(٣). وكان مالك إذا جلس قال: "ليليني منكم ذو الأحلام والنهى". لذا كان يجلس القعنبي عن يمينه. وقد سأله أحد أقرانه::حدَّثت ولم تكن تحدث؟!". فأجاب: "إني أريت كأن القيامة قد قامت، فصيح بأهل العلم، فقاموا وقمت، فنودي بي: اجلس، فقلت: إلهي ألم أكن أطلب؟، قال: بلى، ولكنهم نشروا، وأخفيتهّ: قال القعنبي. فحَّدثت!!، فقام بالتعليم والتربية، خشية لله وطلبًا لثوابه(٤).

---

(١) "المرجع السابق"، ج٩، ص ٢٠٤، ٢٠٥، وص ٢٠٧.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٢٥٩، و"الثقات"، لابن حبان، ج٢٨، ص ٣٥٣.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٤) "تذكرة الحفاظ"، للذهبي، ج١، ص ٢٨١.

وكان جليلًا مهيبًا في أعين الناس، مجاب الدعوة، متقشفًا، وشهد له الكثيرون بالفضل والتقوى، وخشية الله، من هؤلاء أبو زرعة الذي قال: "ما كتبتُ عن أحد أجلَّ في عينيَّ منه"، وكان يسمى الراهب لعبادته وفضله، وقال أحد أقرانه: "ما رأيتُ أحدًا إذا رؤي ذكر الله ـ تعالى ـ إلا القعنبي، ـ ـ، فإنه كان إذا مر بمجلس، يقولون: لا إله إلا الله". وقال آخر: "كنا إذا أتينا القعنبي، خرج إلينا كأنه مشرف على جهنم".

وقال هارون بن إسحاق: "ما رأيتُ أحدًا يريد بعلمه الله إلا القعنبي"، وقال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: القعنبي أحب إليك في (الموطأ)، أو إسماعيل بن أبي أويس؟ قال: بل القعنبي، لم أر أخشع منه. وقال أحمد بن حنبل: هو ثقة، وقال علي المديني: "لا يقدَّم أحد من رواة "الموطأ" على القعنبي"، وقال محمد بن علي المديني: "حد الولي الرسوخ في العلم والعمل، مثل القعنبي"(١).

وقد رزق الله القعنبي أربعة أبناء، كلهم روى عن مالك.

كان مولده عام ١٣٠هـ، وقد توفى في المحرم سنة ٢٢٠هـ، أو ٢٢١هـ(٢).

٧ ـ عبد الله بن وهب بن مسلـــم:

هو أبو محمد، القرشي بالولاء، الفقيه المالكي المصري، مولى ريحانة، مولاة أبي عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري، كان أحد أئمة عصره، روى عن مالك والليث وابن أبي ذئب والثوري، وابن عيينة، وغيرهم، حتى روى عن أربعمائة عالم، وروى عنه كثيرون.

تفقه بمالك وعبد الملك بن الماجشون والليث وغيرهم.

يقول ابن وهب: "لقيتُ ثلاثمائة عالم وستين عالمًا، ولولا مالك لضللتُ في العلم".

وقد صحب مالكًا عشرين سنة، من سنة ثمان وأربعين، إلى أن مات، وذكر ابن وهب

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣.

(٢) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ٢٠١، و"سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٢٦٤.

أنه سأل مالكًا أن يخصه بوقت للقراءة عليه، فوافق الإمام[1].

وقد كان ابن وهب الوحيد الذي كان الإمام يكتب له بلقب "الفقيه" أو "المفتي" هكذا:إلى عبد الله، بن وهب، فقيه مصر". أو "إلى أبي محمد، المفتي".، ولم يكن يفعل هذا بغيره. وقد قال الإمام مالك عنه: "ابن وهب إمام"، وقال مالك وقد قام عنه: "هكذا يكون أهل العلم"، لما رأى الإمام من تخشعه. وكان مالك يعظمه ويحبه، ويهدي إليه هدايا!.

وقد ألم بمذهب مالك وأقواله، إلمامًا قويًا، إلى حد أن تلاميذ وأصحاب الإمام إذا شكوا في شيء من رأي مالك بعد موته كتبوا إلى ابن وهب، فيأتيهم جوابه، بل كان أصحاب مالك بالمدينة إذا اختلفوا في قول الإمام بعد موته، انتظروا قدوم ابن وهب، فيصدرون عن رأيه[2]. وكان لينًا حسن الخلق مع طلابه، يتحملهم، ولا يبخل عليهم[3].

وقد حكي ابن وهب سبب إقباله على العلم، فذكر أنه كان أول أمره مقبلًا على العبادة، قبل طلب العلم، وكان الشيطان يلعب به في أمر عيسى ـ عليه السلام ـ، وكيف خلقه الله، فشكا إلى شيخ، فقال له: "اطلب العلم"، فكان ذلك سبب طلبه العلم[4].

وقد ألف تواليف كثيرة، جليلة المقدار، عظيمة المنفعة، منها "الموطأ الكبير"، و"الموطأ الصغير"، وكتاب "الأهوال"، و"تفسير الموطأ"، وكتاب "البيعة"، وكتاب "المناسك"، و"كتاب المغازي"، و"كتاب الردة"[5].

وقد كتب الخليفة إلى ابن وهب ليوليه قضاء مصر، فجنن نفسه،(ادعاه)، ولزم بيته،

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٣٥.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤.

(٣) "المرجع السابق"، ص ٢٣٥.

(٤) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ٢٣٧، وانظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، أحمد بن محمد، "وفيات العيان، وأنباء أبناء الزمان"، ط ١، دار صادر، بيروت، ج٣، ص ٣٦.

(٥) "المرجع السابق"، ص٢٤٢، و"وفيات الأعيان.."، ج٣، ص ٣٦.

فاطلع عليه أحدهم وهو يتوضأ في صحن داره، فقال له: ألا تخرج إلى الناس، فتقضي بينهم بكتاب الله ـ ﷻ ـ، وسنة رسوله ـ ﷺ ـ؟، فرفع إليه رأسه وقال: إلى ها هنا انتهى عقلك؟، أما علمتَ أن العلماء يُحشرون مع الأنبياء، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين؟!!"(١).

وقد كان يحاسب نفسه بشدة إذا بدرت منه معصية، فيذكر أنه جعل على نفسه كلما اغتاب إنسانًا صام يومًا، فهان ذلك عليه، "فجعلتُ عليها كلما اغتبتُ إنسانًا صدقة درهم، فثقل عليَّ، وتركتُ الغِيبة".

وكان دائم التذكر للآخرة وأهوالها، فيقول::ما من ليلة تمر إلا وأنا أستهولها، وأذكر بها هول الآخرة" .

وكان يُغشىَ عليه إذا قرئ عليه صفة النار!!، وذات مرة قرئ عليه في منزله كتاب عن أهوال يوم القيامة، فرق له وأخذ يبكي وينشج، رافعًا صوته، حتى كان يُسمع من بعيد، ولم يزل كذلك مغشيًا عليه حتى توفى، وذكر الطبيب أنه قد انصدع قلبه، ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ(٢).

ثناء العلماء عليه:

لقد مدحه وأثنى عليه كبار من علماء وأعلام المسلمين، ومن هذه الشهادات ما يلي:

١ ـ قال عنه أحد بن حنبل: ابن وهب عالم صالح، فقيه، كثير العلم.

٢ ـ ولما نُعي إلى ابن عيينة ابنُ وهب، ترحم عليه وقال: أصيب به المسلمون عامة، وأُصبتُ به أنا خاصة".

٣ ـ أما يحيى بن معين(٣) عنه فقد قال: "ابن وهب ثقة"، وأبو حاتم الرازي قال: "ابن

(١) "وفيات الأعيان"، ج٣، ص ٣٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٣٢٨.

(٢) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، و"فيات الأعيان"، ج٣، ص ٣٧، و"مختصر صفة الصفوة"، ج٢، ص ٣٤.

(٣) يحيى بن معين، الإمام الحافظ الجهبذ، شيخ المحدثين، أبو زكريان لد عام ١٥٨هـ، سمع من ابن المبارك وسفيان ابن عيينة، ووكيع وابن مهدي وغيرهم، في العراق والحجاز والجزيرة والشام ومصر، كانت له هيبة وجلالة، مات ـ رحمه الله ـ عام. انظر" سير أعلام النبلاء"، ج١١، ص ٧١ ـ ٨٦.

وهب صالح الحديث، صدوق".

٤ ـ وقال النسائي: ابن وهب ثقة، وقال أصبغ: ابن وهب أعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار.

٥ ـ وقال غيره: جمع ابن وهب الفقه والرواية والعبادة، وكان إمامًا، ورُزق من العلماء محبة، وحظوة من مالك وغيره، وما أتيتُه قط إلا وأنا أفيد منه خيرًا(١).

وقد كان ابن وهب كثير الحج، ذكر أنه حج ستًا وثلاثين حجة، زاهدًا، مواصلًا الرباط للجهاد في سبيل الله، بالإسكندرية، كثغر من الثغور!.

وقد قال سحنون عنه: كان ابن وهب قد قسَّم دهره أثلاثًا: ثلث في الرباط، وثلث يعلم الناس بمصر، وثلث بالحج.

وكان له دنيا وثروة، فكان يصل إخوانه العلماء، ومنهم سفيان بن عيينة.

ولد عام ١٢٤هـ وقيل ذ٢٥هـ، وقد توفى بمصر ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عام ١٩٧هـ، وقيل عام خمس أو ست وتسعين(٢).

٨ ـ عبد الرحمن بن القاسم العتقي:

هو عالم الديار المصرية، ومفتيها، عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة، مولى زبيد بن الحرث العتقي، كنيته أبو عبد الله، أصله من الشام، من فلسطين، من مدينة الرملة وسكن بمصر، وله بمصر مسجد يعرف بمسجد العتقاء.

ـ وقد ورث عن والده مالًا كثيرًا، أنفق منه في سفرته إلى مالك ألف مثقال(٣).

ـ روى عن مالك والليث وعبد العزيز بن الماجشون وابن أبي حازم وغيرهم، وروى عنه أصبغ وسحنون، ويحيى بن يحي الأندلسي، وغيرهم، وخرج عنه البخاري.

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩.

(٣) ابن عبد البر، "الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، مالك، والشافعي، وأبي حنيفة ـ ﷺ ـ"، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص ٥٠.

وقد قدر الله له طلب العلم، بلطفه وتدبره، فلم يكن راغبًا فيه، إلا أن الله جعله يدخل مسجدًا، أثناء زيارته لأخيه المسجون، فرأى حلق الناس، يتلقون العلم، فدُهش وجذِب للعلم والحِلق، فرجع للبيت، وغيَّر ملابسه وأتى المسجد، فلما انصرف منه إلى البيت نام، فرأى رؤيا تحثه على طلب العلم عند عالم الآفاق مالك، فسافر إلى مكة وحج ثم ذهب إلى المدينة، فوجد الإمام يدرس للناس في المسجد، فلزمه.

وقد صحب ابن القاسم الإمام مالكًا عشرين سنة، وتفقه به.

ويقص ابن القاسم حكاية تدل على لزومه الإمام وأخذه عنه، فيقول: "كنتُ آتي مالكًا غلسًا، فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنتُ أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرةً عتبته، فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد، ولم أشعر به، فركضتني سوداء له برجلها، وقالت لي: "إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة، قلما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة"، وفي رواية أخرى يبين ابن قاسم تجربته مع شيخه وأستاذه، فيقول: "أتمت بباب مالك سبع عشرة سنة، ما بعتُ فيها ولا اشتريتُ شيئًا، فبينما أنا عنده إذ قيل: أقبل حاج مصر، فإذا شاب متلثم، دخل علينا، فسلم على مالك، فقال: أفيكم ابن القاسم؟، فأشير إليَّ، فأقبل يقبل عيني، ووجدت منه ريحًا طيبة، فإذا هي رائحة الولد، وإذا هو ابني، وكان ترك أمه به حاملًا، وكانت ابنة عمه، وكان اسمه عبد الله، وكان خيَّر أمه عند سفره، لطول إقامته، فاختارت البقاء"(١).

وقد كان ابن القاسم في شبابه عابدًا، متيمًا بتلاوة القرآن، يبين ذلك ابنه موسى: "قال لنا أبي ـ وأمرنا بالصلاة والخير ـ: كنتُ وأنا ابن ثمان عشرة سنة، أختم في كل يوم وليلة القرآن".

وكان يفضل الخمول والانقباض عن الناس، إخلاصًا، وورعًا، رغم شهرته بالعلم والعبادة.

(١) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ٢٤٤ ـ ٢٥٠.

وقد كان مبغضًا للكذب، متحريًا للصدق، يقول في ذلك: "ما كذبت مذ شددت عليَّ مئزري"، يعني منذ بلوغي!.

ومن أخلاقه أثناء تعليمه أنه كان طول ما يُقرأُ عليه يرفع أصبعه، مبتهلًا إلى الله، ـ تعالى ـ في التوفيق والسلامة(١).

وكان يحاسب نفسه في أمر الإخلاص لله، والحذر من الرياء، كثيرًا، وله في ذلك مواقف، أما أمر زهده وتصدقه، فذلك أمر عرف واشتهر به، وله في ذلك مواقف(٢).

ويذكر الإمام سحنون أن ابن القاسم كان كلما قابلهم نصحهم قائلًا: "اتقوا الله، فإن قليل هذا الأمر (العلم)، مع تقوى الله كثير، وكثيره مع غير تقوى الله قليل"(٣).

ثناء العلماء عليه: ـ مدحه وأثنى عليه الإمام مالك، فقال عنه: "مثلُه كمثل جراب مملوء مسكًا".

ـ وقال ابن عبد البر: "كان فيما رواه عن مالك متقنًا، حسن الضبط، صالحًا، صابرًا".

ـ ولما سئل مالك عنه وعن ابن وهب، قال: "ابن وهب عالم، وابن القاسم فقيه".

ـ وقال النسائي: "ابن القاسم ثقة، رجل صالح، سبحان الله، ما أحسن حديثه وأصحه عن مالك، ليس يختلف في كلمة، ولم يرو أحد الموطأ عن مالك أثبت من ابن القاسم".

ـ وقال ـ أيضًا ـ عنه: "هو عجب من العجب؛ الفضل والزهد، وصحة الرواية، وحسن الدراية، وحسن الحديث، حديثه يشهد له".

ـ وقال غيره: "كان في ابن القاسم الزهد والعلم، والسخاء، والشجاعة والإجابة".

ـ وقال آخر: "جمع ابن القاسم بين الفقه والورع"، وله في ذلك مواقف عديدة(٤).

ولابن القاسم كلام حكيم، دال على تجارب عظيمة عاشها مع العلم والدعوة،

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ٢٥١ ـ ٢٥٤، ج ٩، ص ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٢) انظر: "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ١٥٨ ـ ٢٦٠.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج ٩، ص ١٢٢.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧، وص ٢٥٥، و"الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة.."، ج١، ص ٥٠، و"سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ١٢٢.

نحتاج إليها. من ذلك إخباره أن من يبخل بعلمه لا يفلح، ولا ينتفع به، رأى ذلك في بعض أقرانه، فقال: "ما ضنَّ أحد بعلمه، فأفلح، لقد كنتُ أحضر مجلس مالك فأسمع منه، فإذا لم يحضر أصحابي سألوني ما سمعتُ فأخبرهم، ويحضرون ولا أحضر، فأسألهم، فلا يخبرونني!!"(١).

ولد عام ١٢٨هـ، وقد توفى ابن القاسم ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عام ١٩١هـ، بمصر، بعد مرض لستة أيام، عن ثلاثة وستين سنة، وقيل: مات عام ١٩٢هـ عن ستين سنة(٢).

٢ ـ تأليف الكتب النافعة

إن الإمام اهتم بتأليف الكتب، النافعة، الجامعة، وقد سمى أهم كتبه "الموطأ"، ومعنى "الموطأ" لغة: الممهد الميسر المعبَّد، لما فيه من أحاديث الأحكام، الممهدة للشريعة. وحين أطلق الإمام هذا الاسم على كتابه، فإنما صدر في ذلك عن اقتناع أن هذا الكتاب الذي جمع الفقه والحديث، قد يسر للمسلمين فهم دينهم عن طريق ممهد معد، بعيد عن تلك الصعاب التي ذكرها الخليفة أبو جعفر المنصور، وهو يصف لمالك الكتاب، كما تصوَّره، بعيدًا عن شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله بن عباس(٣)، وشواذ عبد الله بن مسعود!(٤).

ـ وقد قدم الإمام نهج تأليفه الكتاب، موضحًا سبيله في الفقه، فقال: أكثر ما في الكتاب

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ٢٥٠.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٢٦١.

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، من أكابر الصحابة رواية للحديث عن رسول الله ﷺ، خبر الأمة وعالمها، ويسمى البحر، لغزارة علمه، توفى بالطائف عام ٦هـ، عن ٧١ سنة، انظر "صفة الصفوة"، ج١، ص ٢٩٤ـ٢٩٩.

(٤) ابن مسعود: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، حليف بني زهرة بن كلاب، يكنى أبا عبد الرحمن، شهد بدراً، من كبار الصحابة، أرسله عمر بن الخطاب إلى الكوفة، معلماً ووزيراً، فقيه الأمة، ومناقبه غزيرة، مات بالكوفة، ودفن في البقيع سنة ٣٢هـ، عن بضع وستين سنة. انظر "الطبقات الكبرى"، لابن سعد، ج٨، ص ١٣٦، و"صفة الصفوة"، ج١، ص ١٤٩ ـ ١٥٩، و"حلية الأولياء...."، ج١، ص ٤١٠ـ٤٤٤.

لعمري ما هو برأي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل، والأئمة المقتدي بهم، الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله،....،... فهذا وراثة توارثوها قرنًا عن قرن إلى زماننا، فهو رأي جماعة ممن تقدم من الأئمة.."(١).

وقد ذكر أنه عرض كتابه "الموطأ" على سبعين فقيهًا من فقهاء المدينة، فكلهم واطئوه على صحته، فسماه "الموطأ".

وروي أنه نام متفكرًا في اسم لمؤلَّفه، فرأى النبي ـ ﷺ ـ في منامه، وقال له: "وطئ للناس هذا العلم"، فسماه "الموطأ".

وقد أكمل تدوينه وعمره نحو ست وستين سنة، وقد بدأ تأليفه في سن الشباب، وألفه في مدى أربعين سنة كما ذكر ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ(٢).

وقد قال الشافعي عن كتاب "الموطأ"،: ما بعد كتاب الله أنفع من "الموطأ".

وقال ـ أيضًا ـ: "ما وُضع على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك بن أنس يعني الموطأ"(٣).

وقد امتاز "الموطأ" بانتقاء القوى من الأحاديث، كما امتاز بترتيب جيد للكتب بداخله، ووضع التراجم، وحسن السياق في التأليف، والتصنيف مما لم يسبقه أحد إليه، مع ما قرنه الله به من التوفيق، وحسن النية في التأليف، ولذلك اشتهر وانتشر(٤).

وقد قال القاضي أبو بكر العربي(٥) في شرح الترمذي: "الموطأ هو الأصل الأول

---

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك..."، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٠١، و"تزيين الممالك.."، ص ٤٠.

(٣) "تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ٤١.

(٤) الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، مرجع سابق، ص ٤.

(٥) القاضي أبو بكر بن العربي (٤٦٨ ـ ٥٤٣هـ/ ١٠٧٦ ـ ١١٤٨م): هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، الإشبيلي، المالكي، من حفاظ الحديث، رحل إلى المشرق، وبلغ رتبة الاجتهاد، وصنف كتبًا عظيمة في الفقه، والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، مات بقرب فاس ودفن بها، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٦، ص ٣٠، و"سير أعلام النبلاء"، ج٢٠، ص ١٩٨ ـ ٢٠٢.

واللباب،والبخاري الأصل الثاني في هذا الباب،وعليهما بنى الجميع،كمسلم والترمذي"[1].

إن الموطأ كتاب فقه وحديث، والأحاديث التي ذكرت فيه سيقت من أجل استنباط قضايا الفقه من نصوصها، وتخريج الأحكام على مقتضاها، ولم يقتصر على الأحاديث يرويها، ويستنبط منها، بل يذكر أقضية الصحابة، ويحكم بمقتضاها، ويختار من بينها ما يراه أنسب، وأصلح في المسألة التي يستفتي فيها، ويذكر الأمر المجمع عليه في المدينة، وما تشير إلى أحكام القضايا بها، ويقيس ما لم يجد له حكمًا من أقضية الصحابة[2].

و"الموطأ" يعتبر ديوان العلم المدني، حوى طائفة من أحاديثه، ومجموعة من أقضيته وفتاويه،وما كان له من تخريجات وآراء فمشتقة منها،أو محوَّلة عليها،أو ناهجة مثل نهجها[3]. وقد اشتمل على تسعة آلاف حديث، ثم لم يزل ينقيه حتى ويراجعه حتى وصل إلى ما وصل إليه.

إن مالكًا كان إمامًا في الفقه، وإمامًا في الحديث، فقد كان راويًا من الطبقة الأولى في الحديث، وهو فقيه ذو بصر بالفتيا، واستنباط الحكام، وقياس الأشباه بأشباهها، ومعرفة مصالح الناس، وما يكون ملائمًا لها من الفتاوى، من غير ابتعاد عن النص، ولا هجر للمأثور من الأقضية، والفتوى المنسوبة للسلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ[4].

وللإمام تآليف عديدة، غير "الموطأ"، ذكرها القاضي عياض في "ترتيب المدرك"، والسيوطي[5] في "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، وفي "الديباج المذهب"،

---

(١) "شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ٥٢، مرجع سابق.

(٢) "مالك، حياته، عصره، آراءه وفقهه"، ص ١٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٥، و د/ الشكعة، "الإمام مالك"، ص ١٢٥.

(٥) الإمام السيوطي: هو الحافظ، أبو الفضل، جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين..، السيوطي، ولد بالقاهرة عام ٨٤٩هـ، بلغت مؤلفاته نحو ستمائة، ما بين رسائل صغيرة ومجلدات. كان الملوك والأمراء يأتون إلى زيارته، ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. توفى ـ رحمه الله ـ بالقاهرة عام ٩١١هـ، انظر" ذيل =

لابن فرحون[1].

ومن أشهرها:

١ ـ رسالة في القدر والرد على القدرية.

٢ ـ كتاب في النجوم، وحساب مدار الزمان ومنازل القمر، والكتاب حجة في بابه، اعتمد الناس عليه.

٣ ـ رسالته في الأقضية، وقد كتب بها إلى بعض القضاة، في عشرة أجزاء.

٤ ـ رسالته في الفتوى، أرسلها إلى أبي غسان[2]، محمد بن مطرف، وهو ثقة من كبراء أهل المدينة، قرينًا لمالك.

٥ ـ رسالته إلى هارون الرشد، في الآداب والمواعظ، حدث بها كثيرون.

٦ ـ كتاب في "التفسير لغرائب القرآن"، الذي يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومي[3][4].

٧ ـ رسالته المشهورة إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة، وهي مشهورة.

❁ ❁ ❁

= طبقات الحفاظ"، للذهبي، تألف: السيوطي، ط. دار الكتاب العلمية، بيروت، ج١، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦.

(١) ابن فرحون: هو إبراهيم بن علي بن محمد، برهان الدين اليعمري، عالم، بحاث، ولد ونشأ ومات في المدينة، مغربي الأصل، من شيوخ المالكية، له "الديباج المذهب"، في تراجم أعيان المذهب المالكي، وكتب أخرى عظيمة، تولى القضاء بالمدينة،ومات عن نحو ٧٠ عامًا، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج١، ص ٥٢.

(٢) هو أبو غسان المدني، محمد بن مطرف بن داوود، الإمام الحجة، وثقه الإمام أحمد بن حنبل، وغيره، حدث عنه ابن وهب وسفيان الثوري وغيرهما، قيل: توفى سنة مائتين وبضع وستين، انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٣) هو خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة، المخزومي، المكي، روى عن سفيان الثوري وغيره، وروى عنه كثيرون، مات عام ٢١٢هت بمصر، انظر" تهذيب التهذيب"، لابن حجر العسقلاني، ج٣، ص ٩٠.

(٤) "الديباج المذهب"، لابن فرحون، ص ٢٣، ٢٤، و"تزيين الممالك..."، ص ٥٥.

٣ ـ الدعوة إلى التزام السنة النبوية ومجابهة البدع.

دعا الإمام إلى معرفة السنة النبوية، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، واتباعها بقوة، وحذر من تغييرها ومخالفتها، فذلك سبيل النصر والهدى، والعزة.

وقد أثبت ابن تيمية أنه: "يمكن للمتبع لمذهبه أن يتبع السنة في عامة الأمور، إذ قَلَّ من سنة إلا وله قول يوافقها"(١).

وفي هذا المعنى المهم نقل عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: "سن رسول الله ـ ﷺ ـ وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها اتباع لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا". وكان مالك إذا حدث بهذا الكلام لسيدنا عمر بن عبد العزيز، ارتج سرورًا!(٢).

وكان مالك كثيرًا ما يتمثل ببيت يبين حبه للسنة، وبغضه للمحدثات والأهواء، هو:

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائعُ(٣)

إن الإمام كان يقول: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"(٤).

لذا رأينا حرص الإمام على الاتباع، وبغض الابتداع في دين الله، ومما يدل على ذلك كراهيته الإحرام قبل الميقات المكاني، فقد سأله رجل عن حكم من أحرم قبل الميقات، فقال: "أخاف عليه من الفتنة!"، وقال: قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ﴿النور: ٦٣﴾، فقال السائل: وأي فتنة في ذلك؟، وإنما هي زيادة امتثال

(١) ابن تيمية، "صحة أصول مذهب أهل المدينة"، ط. دار الندوة الجديدة، بيروت، ص ٤١.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٩٨، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٦.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٤.

(٤) الإمام ابن تيمية، "مجموع الفتاوى..."، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، د/ ن/ ت، ج٢٠، ص ٣٧٤ـ ٤٧٥، مع تصرف.

في طاعة الله ـ تعالى ـ، فرد الإمام: "وأي فتنة أعظم من أن تظن أنك قد خصصت بفعل، لم يفعله رسول الله ـ ﷺ ـ"(١).

تصدي الإمام لبدعة سب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

ذكر الإمام أن "من شتم النبي ـ ﷺ ـ قُتِل، ومن شتم أصحابه أُدِّب".

وبين أكثر، فقال: "من شتم أحدًا من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: أبا بكر أو عمر أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، وقال (الشاتم): كانوا على ضلال، قُتل، وإن شتمهم (فقط)، نُكل نكالًا شديدًا".

وأفتى تلامذته بمثل إفتاء أستاذهم، ومنهم: سحنون(٢)، وعبد الملك بن حبيب(٣)، وروي عن مالك قوله: من سب أبا بكر جُلد، ومن سب عائشة قُتل"، فلما سئل: لم؟، قال الإمام: "من رماها فقد خالف القرآن"، لأنه كذب آيات القرآن المثبتة لطهارة آل البيت جميعًا، وزوجات الرسول خاصة.

وقال أبو عروة ـ رجل من ولد الزبير بن العوام ـ: كنا عند مالك فذُكر أن رجلًا نقص أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، فقرأ مالك آية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله تعالى:

---

(١) الإمام ابن تيمية، "مجموع الفتاوى..."، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، د/ ن/ ت، ج٢٠، ص ٣٧٤ـ٤٧٥، مع تصرف.

(٢) الإمام سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب، أبو سعيد القيرواني، وسحنون لقبه، فقيه مالكي، شيخ عصره، وعالم وقته، تولى القضاء بالقيروان، ولد عام ١٦٠هـ، وتوفى عام ٢٤٠هـ، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١٢، ص ٦٣، ٦٩، و"الأعلام"، للزركلي، ج٤، ص ٥، و"شجرة النور الزكية..."، ج١، ص ٧٠؟

(٣) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون، السلمي، أبو مروان، أصلهم من طليطلة، بالأندلس، سمع وروى عن كبار المحدثين والعلماء، منهم ابن الماجشون، وعبد الله بن نافع وابن أبي أويس، وعبد الله بن المبارك وغيرهم، ألف مصنفات عظيمة. انتشر علمه وروايته، وأفتى بقرطبة، ورأس العلماء بها، كان جماعاً للعلم، ذابًا عن قول مالك، يأبى إلا معالي الأمور، لما مات نعي إلى سحنون فقال عنه: "مات عالم الأندلس، بل والله عالم الدنيا". ـ رحمه الله ـ. مات عام ٢٣٨هـ، وقيل ٢٣٩هـ، عن ٥٦ سنة، ودفن بقرطبة. انظر "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٢٤٩.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ﴿الفتح: ٢٩﴾.

وقال مالك: "من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فقد أصابته الآية"(١).

وبين أن أعداء الإسلام لما عجزوا عن تشكيك المسلمين بعقيدتهم ودينهم الصحيح، عمدوا إلى الطعن في نقلته الأخيار، الصحابة الكرام، وهدفهم الطعن في النبي نفسه وقد وضح ذلك الإمام مالك فقال: "هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ـ ﷺ ـ، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه حتى يقال رجل سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين"(٢).

وكان مالك لا يركب في المدينة دابة، ويقول: أستحي من الله أن أطأ تربة، فيها رسول الله ـ ﷺ ـ، بحافر دابة".

وقد أفتى الإمام مالك فيمن قال: تربة المدينة رديئة، بأن يُضرب ثلاثين، مع حبسه، ولو كان القائل صاحب مكانة وقدر. وقال الإمام: ما أحوجه إلى ضرب عنقه!، تُربة دُفن فيها النبي ـ ﷺ ـ يزعم أنها غير طيبة!".

وفي مجلس علمي للإمام مع تلاميذه، روى أحدهم أن سيدنا جابر قال::نحرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ عام الحديبية سبعين بدنة"، فقال أحد الحاضرين: "يا أبا عبد الله، هذه السبعون بدنة، كم كانت تساوي؟! (مستهزئًا). قال الراوي: تساوي كل بدنة عشرة دنانير، فتدخل الإمام، ـ غاضبًا ـ "جُرُّوه"، فَجُرَّ وضرب، ثم قال الإمام: يا جاهل، يا قليل الدين، قال النبي ـ ﷺ ـ: "لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق ملء الأرض ذهبًا ما بلغ أحدهم مد حدهم ولا نصيفه"، فإذا لم يبلغوا ما أنفق أصحابه، فالنبي ﷺ أحرى أن لا يقوَّم بشيء مما أنفق، ولا يقوَّم بشيء من نوقه ولا غيرها، لأن النبي ـ ﷺ ـ أجلُّ من

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٤.

(٢) انظر: ابن تيمية، "الصارم المسلول على شاتم الرسول"، ط.١، دار ابن حزم، بيروت، عام ١٤١٧هـ، ص ٥٨٠.

ذلك"(١).

لقد استنكر مالك ـ رضي الله عنه ـ سب أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، واعتبر ذلك جُرمًا كبيرًا، ورأى أنه إن ساد السب في مدينة شُتم فيها الصحابة وجب الخروج منها، وفي ذلك قال: "لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير الحق، والسب للسلف"(٢).

ورُوي عنه أن من يسب الصحابة لا حق لهم في الفيء، ولما سأله هارون الرشيد، من أين قال ذلك، رد الإمام: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ﴿الفتح: ٢٩﴾، فمن عابهم فهو كافر"(٣).

ومع نهيه عن سب الصحابة، كان يمتنع عن المفاضلة بينهم خشية أن تؤدي المفاضلة إلى المنازعة، التي قد تؤدي إلى انتقاص بعض أقدراهم، لذا كان يقول عن الصحابة: " هم سواء، فيما عدا ثلاثة، هم أبو بكر وعمر وعثمان"، فإنه يضعهم في مكانة أعلى من سواهم.

وفي هؤلاء الثلاثة قال الإمام عنهم: هؤلاء خيرة رسول الله ـ ﷺ ـ، أقر أبا بكر على الصلاة، واختار أبو بكر عمر، وجعلها عمر إلى ستة، فاختاروا عثمان"(٤).

هؤلاء الثلاثة اختيروا للخلافة بإجماع من الصحابة، فكان تفضيلهم لإجماع الصحابة على ذلك.

ردّه على الفرق المنحرفــة:

وجدنا عند الإمام مالك كثيرًا من الردود الصارمة، والمواقف الجازمة ضد أصحاب البدع والأهواء، والزيغ من أهل الملل والنحل، [كالمرجئة والقدرية، والخوارج،

(١) "مناقب الإمام مالك" للزواوي، ص ٨٣.

(٢) "الانتقاء "، ص ٢٦، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص٨٩.

(٣) المرجع السابق،"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٩.

(٤) "ترتيب المدارك.."، للقاضي عياض، ج١، ص ٨٩، و"مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، مرجع سابق، ص ١٦٧.

والرافضة والجهمية والمعتزلة]، وغيرهم ممن يحرفون الكلم عن مواضعه![1].

إن الإمام أكد على أهمية حماية المجتمع من المعتقدات الضالة، والتصدي لها وعدم الرد على أهلها في أوساط المبتدئين من المتعلمين والعامة، حمايةً لفكرهم، ودينهم، وخشية على تأثرهم بهذه الأفكار السيئة[2].

وقد حذر الإمام من البدع ورأى الداء العضال الحدث في الدين[3]، وبين من هم ـ في عهده، فقال: "إياكم والبدع. قيل: يا أبا عبد الله، وما البدع؟. قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته، وكلامه وعلمه، وقدره، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان".

وعندما جاء رجل يسأله عن القرآن، قال له: لعلكَ من أصحاب عمرو بن[4] عبيد لعن الله عَمْرًا، فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علمًا لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل، يدل على باطل".

وفي ذلك قال: "إياكم وأصحاب الرأي، (المناقض لهدي الإسلام)، فإنهم أعداء السنة".

وكان مالك إذا ذكرت السنة عنده، قال: "السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق".

وصدق حين قال: "ما قلت الآثار في قوم إلا ظهر فهيم الأهواء، ولا قلت العلماء إلا

(١) د/ محمد بنصر العلوي، "دور العقيدة في الأمن النفسي عند الإمام مالك"، دراسة في ندوة، "المذهب المالكي في سياقاته المعاصرة"، في الفترة من ٢٣ ـ ٢٥ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، الموافق ١٤ ـ ١٦ فبراير ٢٠١٢م، بفاس، على الإنترنت بعنوان"ملف كامل عن: ندوة المذهب المالكي في سياقاته المعاصرة".

(٢) "الفكر التربوي عند الإمام مالك"، ص ١٥٥، مرجع سابق.

(٣) "تزيين الممالك.."، للسيوطي، ص ١٦.

(٤) عمرو بن عبيد، هو أبو عثمان، البصري، الزاهد، العابد، القدري، كبير المعتزلة، وأولهم، أخذ عن الحسن البصري، وأبي العالية، وأبي قلابة، وأخذ عنه الحمادان، وابن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، ومات بطريق مكة سنة ١٣٣هـ، وقيل سنة ١٣٤هـ "سير أعلام النبلاء"، ١١/ ١٢٩، ١٣٠، و"المنتظم"، لابن الجوزي، ٢/ ٤٨٧.

ظهر في الناس الجفاء"[1].

وذكر أن "العبد لو ارتكب الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئًا، ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله، أرجو أن يكون في أعلا درجات الفردوس، مع النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وذلك أن كل كبيرة فيما بين العبد وبين الله ـ ﷻ ـ، فهو منه على رجاء، وكل هوى ليس منه على رجا، إنما يهوى بصاحبه في نار جهنم، من مات على السنة فليبشر، من مات على السنة فليبشر".

وفي قول له، يبين آثار التمسك بالسنة: "لو لقي الله رجل بملء الأرض ذنوبًا، ثم لقي الله بالسنة، لكان في الجنة، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا"[2]، وقد أنكر بعض الانحرافات والبدع عند بعض المتصوفة، من رقص ولطم للرأس والوجه، حينما سئل عن قوم يصنعون ذلك[3]

لقد بغضت إلى الإمام أقوال الفرق الإسلامية في العقائد، لأنها أثارت أمورًا لم يثرها السلف الصالح، وليس من مصلحة المسلمين إثارتها، ولأنها قامت في دراستها على النظر العقلي المجرد، وسلكت سبيل المراء والجدل المذموم، ولم يسلك السلف الصحيح ذلك المسلك، والعقل من غير هداية يسير في متاهة، يضل السائر فيها، ويكون كحاطب ليل وقد كان مالك "أبعد الناس من مذاهب المتكلمين، وألزمهم لسنة السالفين، من الصحابة والتابعين"، وكان إذا سئل عن أهل السنة لم يدخلهم (المتكلمين)، في سلكها، ولذلك قال له رجل من أهل السنة، يا أبا عبد الله، من أهل السنة؟، قال: الذين ليس لهم لقب يعرفون به، لا جهمي ولا رافضي ولا قدري"[4].

---

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك" للزواوي، ص ٨٥.

(٢) أبو الفضل المقرئ، "أحاديث في ذم الكلام وأهله"، ط١، دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦م، تحقيق: د/ ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، ج٥، ص ٧٦.

(٣) انظر: مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٤٧.

(٤) الشيخ أبو زهرة، "مالك، حياته، عصره..."، ص ١٥٩، مرجع سابق.

صور من تعظيم الإمام للرسول ـ ﷺ ـ وسنته:

كان الإمام إذا أراد أن يحدّث اغتسل وتطيب ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوة، وسرح لحيته، وجلس على منصة، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديثه!. وقد علل ما يصنع بقوله:"أوقر به حديث رسول الله ـ ﷺ ـ"(١). وفي رواية: "أحب أن أعظم حديث رسول الله ـ ﷺ ـ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنًا"(٢).

وكان يكره أن يحدّث في الطريق، وهو قائم، أو مستعجل، فقال: "أحب أن يُفهم ما أحدّث به عن رسول الله ـ ﷺ ـ"(٣).

ـ لقد لازم مالكًا ـ منذ طلبه العلم وصباه ـ الاحترام التام لحديث رسول الله ـ ﷺ ـ، فهو لا يتلقاه إلا وهو في حال من الاستقرار والهدوء، توقيرًا له، وحرصًا على ضبطه، ولذلك ما كان يتلقاه واقفًا، ولا يتلقاه في حال ضيق أو اضطراب، حتى لا يفوته شيء منه"(٤).

ومما يبين ذلك موقفه الرائع، لما مر بأبي الزناد وهو يحدث، فلم يجلس إليه، فلقيه بعد ذلك، فقال له: ما منعك أن تجلس إليَّ؟، قال مالك: كان الموضع ضيقا، فلم أُرد أن أحدَّث حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا قائم"(٥).

وذات مرة مر مالك بأبي الزناد وهو يحدث، فلم يجلس إليه، فلقيه بعد ذلك سائلًا عن سبب عدم جلوسه للسماع، فقال مالك: "كان الموضع ضيقًا، فلم أرد أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم"(٦).

بل وصل الأمر بتعظيم الإمام لحديث الرسول ـ ﷺ ـ أنه كان إذا ذكر النبي ـ ﷺ ـ يضطرب ويتغير لونه، وينحني، حتى يصعب ذلك على جلسائه.

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٠، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٢.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٧٧، و"مناقب الإمام مالك.."، للزواوي، ص ٨٢.

(٣) ابن الجوزي، "صفة الصفوة"، ج٢، ط. مكتبة التوعية الإسلامية، ص ١٧٨.

(٤) الشيخ أبو زهرة، "مالك، حياته.."، ص ٣٠.

(٥) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٥٦، ٥٧.

(٦) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٥٦، ٥٧.

ولما سئل عن ذلك الذي يعتريه، بين أن صنيعه ذلك تعلمه وأخذه عن أساتذته الكبار، فقال: "لو رأيتم لما أنكرتم عليَّ ما ترون، كنتُ آتي محمد بن المنكدر، وكان سيد القراء، لا نكاد نسأله عن حديث النبي ـ ﷺ ـ إلا بكى حتى نرحمه".

وكان من شيوخه جعفر بن محمد، والذي كان كثير المزح والتبسم، فإذا ذُكر النبي ـ ﷺ ـ عنده، اخضر واصفر، وقال مالك عنه: "ولقد اختلفت إليه زمانًا، فما رأيته إلا على ثلاث خصال: إما مصليًا، وإما صائمًا، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا على طهارة"(١).

والجميل أن الإمام لم يأمر الناس بأن يتوضئوا عند سماع أو قراءة الحديث النبوي، ولكن كان يفعل ذلك، فكان يشعر أن حديثه عن النبي ـ ﷺ ـ عبادة(٢).

وإذا رفع أحد صوته في مجلس الحديث، زجره الإمام مالك، وقال له: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ﴿الحجرات: ٢﴾، فمن رفع صوته عند حديث رسول الله ﷺ، فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ـ ﷺ ـ"(٣).

وذات مرة سار ابن مهدي إلى جوار شيخه وأستاذه الإمام مالك يومًا إلى العقيق، فسأل التلميذ أستاذه عن حديث، فانتهره مالك، ثم التفت إليه وقال له: كنتَ في عيني أجلَّ من هذا، أتسألني عن حديث رسول الله ﷺ، ونحن نمشي؟!".

فقال ابن مهدي في نفسه: إنا لله، ما أراني إلا وقد سقطتُ من عينه!.

فلما قعد الإمام مالك في مجلسه، والتف طلاب العلم حوله، جلس ابن مهدي بعيدًا عن شيخه مالك، قال له الإمام: "ادنُ ها هنا!"، فدنا واقترب، فخاطبه الإمام مطيبًا خاطر تلميذه، ومؤدبًا ومعلمًا: " قد ظننتُ أنا أدبناك، تسألني عن حديث رسول الله ـ ﷺ ـ، ونحن

(١) "المرجع السابق"، ص ٩٢، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٨٢..

(٢) "دعوة للتعايش"، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٣) "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ١٤، و"تهذيب الكمال"، ج١، ص ١١١.

نمشي، سل عما تريد ها هنا"(١).

وقصة لدغ العقرب له وهو يحدّث بحديث رسول الله ـ ﷺ ـ، تدل على كمال توقيره وحبه وإجلاله للرسول وحديثه، فقد جلس مجلس الحديث والبيان لسنة الرسول ـ ﷺ ـ فلدغته عقرب ست عشرة مرة، فكان يتغير لونه ولا يقطع حديث الرسول، فلاحظ ذلك عبد الله بن المبارك، وسأل الإمام بعد تفرق الناس وانقضاء المجلس، قائلًا: " يا أبا عبد الله، لقد رأيتُ منك اليوم عجبًا!، فأخبره بلدغ العقرب له، وقال: "إنما صبرتُ إجلالًا لحديث رسول الله ـ ﷺ."(٢).

ولما وجَّه الخليفة المهدي في المدينة إلى الإمام مالك بغلةً، ليركبها ويأتيه، رد مالك البغلة، وقال: "إني لأستحي من الله أن أركب في مدينة، فيها جثة رسول الله ـ ﷺ ـ"، وأتاه ماشيًا. وكانت به علة، فاتكأ على المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، وعلى حسن بن أبي زيد، العلوي، وعلي ابن المديني(٣)، وكانوا من علماء المدينة وأشرافها، فقال الخليفة المهدي: سبحان الله، ردَّ البغلة، إجلالًا لرسول الله ـ ﷺ ـ، فقيض الله له هؤلاء، فو الله لو دعوتهم أنا إلى هذا ما أجابوني إليه". فقال له المغيرة: "نحن يا أمير المؤمنين، قد افتخرنا على أهل المدينة لما اتكأ مالك علينا!"(٤).

عاش الإمام عمره كاملًا في المدينة، وكان كثيرًا ما يبكي في الروضة، عند حديثه عن النبي ـ ﷺ ـ، ويقول: "لعلي أجلس مكانه ـ ﷺ ـ"، ثم يبكي ويقول: "أمالك بن أنس الفقير الضعيف يحدث في روضة الرسول ﷺ؟". ويستمر بكاؤه حتى يقول الحضور: "أبقيتْ

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨١، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٣.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك" للزواوي، ص ٨٢، و"ترتيب المدارك"، ج١، ص ٧٧.

(٣) ابن المديني: هو أبو الحسن، علي بن عبد الله، المعروف بابن المديني، نسبة لمدينة الرسول ـ ﷺ ـ، إمام، حافظ، ثقة، إمام أهل الحديث، وأعلمهم به في عصره، أخذ عن ابن مهدي وغيره، وأخذ عنه جماعة، منهم البخاري وأصحاب السنن، توفى سنة ٢٣٤هـ، وله ٧٣ عامًا. انظر "شجرة النور الزكية.."، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٤) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٧، ٧٨.

دموع؟"، فيقول لهم: "قوموا عني، لا أستطيع أن أكمل"(١).

وكان لا يمكّن أحدًا بالمدينة من الكلام في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ إلا إذا كان مشهورًا بطلب العلم، متمكنًا من الفهم..، وفي ذلك قال ابن أبي أويس: "ما كان يتهيأ لأحد بالمدينة أن يقول: "قال رسول الله ـ ﷺ ـ إلا رجلًا مشهورًا بطلب العلم، وإلا حبسه مالك!".

وعندما جاءه رجل يقول: "أليس قد أمر النبي ـ ﷺ ـ بدفن الشعر والأظفار؟". غضب الإمام وأمر بضرب الرجل وسجنه، فقيل له: إنه جاهل، فرد الإمام: "يقول: قال النبي، وقد قال النبي ـ ﷺ ـ: "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار".

ثم ذكر الإمام حكم الشرع في المسألة، فبين أن دفن الشعر والأظفار بدعة، "فقد أعطي النبي ـ ﷺ ـ شيئًا من شعره للمهاجرين والأنصار، وكان عند أنس بن مالك شيء من ذلك(٢).

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حدث من إيذاء وضرب بالسياط للإمام على يد جعفر بن سليمان الهاشمي، أمير المدينة، غضب الخليفة أبو جعفر المنصور وأقسم قائلًا: "والله الذي لا إله إلا هو، ما أمرتُ بالذي كان، ولا علمتُه"، وأمر بحمل جعفر إلى العراق واستقدم الإمام مالك، وطلب منه أن يقتص من الأمير قائلًا: "اقتص منه، فإنه قد ظلمك"، قال له الإمام مالك: "يا أمير المؤمنين، ليس لي عليه قصاص، لأني جعلته في حل، لأنه من قرابة رسول الله ـ ﷺ ـ، فاستحييتُ أن آتي يوم القيامة، متعلقًا برجل من قرابة رسول الله ـ ﷺ ـ، أطلبه بمظلمة".

لقد عفا عن هذه المظلمة، تعظيمًا لجانب رسول الله، ولتعظيم أمير المؤمنين له، وتمكينه من القصاص من نائبه بالمدينة، وابن عمه(٣).

---

(١) انظر "دعوة للتعايش"، ص ٩٧.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٠.

(٣) "مناقب سيدنا الإمامم مالك، للزواوي"، ص ٧٦، و"الإمام مالك، إمام دار الهجرة"، ص ٣٧٣.

وذات مرة زاره هارون الرشيد، وأبطأ الإمام في الخروج إليه، فلما سأله هارون عن السبب، أجابه الإمام قائلًا: "والله يا أمير المؤمنين، ما زدت على أن توضأت، وعلمت أنك لا تأتي إلا لحديث رسول الله ـ ﷺ ـ، فأحببتُ أن أتأهب له". فسر هارون لما سمع، وعلق قائلًا: "قد علمتُ أن الله ما رفعك باطلًا". وأخذ بيد مالك، فمضى إلى قبر النبي ـ ﷺ ـ... إلخ(١).

وقد اقتدى مالك بأبي أيوب السختياني، فكان يتغير لونه ويصفر حتى يصعب ذلك على جلسائه إذا ذكر النبي ـ ﷺ ـ، وعلل لتلامذته ما يحدث له بأنه تعلم ذلك من أساتذته.

ومثل أبي أيوب كان عبد الرحمن بن القاسم، الذي يذكر النبي ـ ﷺ ـ، فيُنظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه وفمه، هيبةً لرسول الله ـ ﷺ ـ، وكذا عامر بن عبد الله بن الزبير، والزهري، وصفوان بن سليم! ـ رحمهم الله ـ(٢).

وقال المثنى بن سعيد القصير: سمعت مالكًا يقول: "ما بِتُّ ليلةً إلا رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ"، ورأى سفيانُ بن عيينة، كأن النبي ـ ﷺ ـ أعطى خاتمه مالكًا(٣).

إن مالكًا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كان يدقق التدقيق كله في تلقي أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ، فلا يحدث بها ما لم يطمئن تمامًا إلى صحة سندها ونسبتها إلى قائلها ـ ﷺ ـ، ويشهد لذلك تلميذه الكبير الإمام الشافعي الذي قال: "كان مالك إذا شك في شيء من الحديث تركه"(٤).

وكان إذا قيل له: إن هذا الحديث لم يحدث به غيره تركه، وإذا قيل له: هذا حديث يحتج به أهل البدع تركه(٥).

وقد كان حريصًا ـ دائمًا ـ على سلامة المتن، مع حرصه على معرفة حال الراوي

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٥.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٢.

(٣) "المرجع السابق"، للزواوي، ص ٧٠، و"تزيين الممالك...."، للسيوطي، ص ١٢.

(٤) "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ١٠، و"ترتيب المدارك..." ج١، ص ١٢٧.

(٥) "مناقب سيدنا الإمام..."، للزواوي، ص ٨١.

وضبطه[1].

لذا وجدناه ينفر من الغريب نفورًا شديدًا مهما يكن حال رواته، ولما قيل له: إن فلانًا يحدثنا بغرائب، قال: "إنا من الغريب نفر".

وإذا قيل له:إن هذا الحديث يحتج به أهل البدع يترك التحديث به![2].

وكان الإمام يحدث بالحديث أحيانًا، ثم يبدو له عيب به، فيأخذ في فقهه بغيره، ويثبت الحديث، وقد قيل له: يا أبا عبد الله، أرأيت أحاديث تحدث بها، ليس عليها رأيك، لأي شيء أقررتها؟. فرد الإمام: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما فعلتُ، ولكن انتشرت عند الناس، فإن سألني عنها أحد لم أخذت بها، وهي عند غيري، اتخذني غرضًا!".

لقد اعتني الإمام بالحديث، رواية ودراية، ولذلك كات أحاديثه في الموطأ منتقاة، وقد أثنى الإمام ابن عبد البر[3] على الإمام في هذه القضية، بوصف حكيم متقن، فقال: إن مالكًا كان من أشد الناس تركًا لشذوذ العلم، وأشدهم انتقادًا للرجال، وأقلهم تكلفًا، وأتقنهم حفظًا، ولذلك صار إمامًا"[4].

لقد أجمع أهل العلم على أنه كان الحبر الذي لا يُسبَق في معرفة الآثار ونقدها قويها وضعيفها، ومتقدمها ومتأخرها، ومعمولها ومتروكها،.... ـ ﷺ ـ. فكان بذلك من أبرز أئمة الرواية والنقد، والجرح والتعديل في عصره، وعبارات تلامذته وأقرانه دالة على ذلك، كما سبق.

---

(١) أبو زهرة، "مالك، حياته وعصره..."، ص ١٨٩.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٢.

(٣) ابن عبد البر: هو أبو عمر، يوسف بن عبد الله، بن محمد بن عبد البر، النمري، الإمام الحافظ، شيخ علماء الأندلس، وكبير محدثيها، سمع منه عالم كثير، ألف في الموطأ كتبًا مفيدة، منها كتاب "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، و"الاستذكار بمذهب علماء الأمصار"، وغيرهما من كبريات المراجع الفقهية، توفى بشاطبة عام ٤٦٣هـ عن ٩٥ عامًا، وقيل غير ذلك، انظر "شجرة النور الزكية.."، ج١، ص ١١٩، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٨، ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٦٨.

٤ـ الحرص على الكلام فيما ينفع

إن الإمام مالكًا كان يتمتَّع باليقظة والحذر، والعقل والحكمة، فكان لا يتكلم فيما لا طائل تحته، وكان لا يجيب عن مسألة لا فائدة من ورائها!.

لذا، كان يرفض الفروض ويسأل السائل،: هل مسألته واقعة أم غير واقعة؟، فإن كانت واقعة أجابه، وإلا رفضه.

ومما يدل على ذلك مجيء شيخ لحضور مجلس علم الإمام مالك، فسأله عن مسألة، فلم تعجب مالكًا، فأعرض عنه، ثم أعادها عليه، فأعرض عنه، ثم أعادها عليه، فقال له الإمام: "يا هذا، إذا رأيتني جلستُ لأهل الباطل، فتعال أجبك معهم"(١). وكان إذا أتاه بعض أهل الأهواء قال لهم: أما أنا فعلى بينة من ديني، وأما أنت فشاك، فاذهب إلى شاك مثلك، فخاصمه"(٢).

ـ إنه الحزم والتعليم،، وحفظ لهيبة العلم وأهله من ابتذال الجاهلين، وتطاولهم!.

لقد كان مجلس الإمام مالك مجلس علم وتزكية، لا مجلس جدل وخصومات وسفسطة، ولغو، لذا لما سأله رجل: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ ﴿طه: ٥﴾، كيف استوي؟، أطرق الإمام رأسه، ثم علاه العرق، وقال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير مغفول، والإيمان به وجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا"، وأمر به فتم إخراجه!(٣).

هنا رأينا الإمام قد أدرك أن الرجل السائل لم يكن جاهلًا يسأل فيُعلَّم، وعلم من حال الرجل وطريقته وملابسات سؤاله ما جعله يرد عليه هذا الرد، وكان يكره الكلام فيما

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٤، و"مع الأئمة"، ص ١١١، و عبد الغني الدقر، "الإمام مالك، إمام دار الهجرة"، ص ٩.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٥، و"تزيين الممالك...."، للسيوطي، ص ١٤.

(٣) "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣٢٦، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٠٠، و"مناقب الإمام"، للزواوي، ص ٨٠، ٨١.

ليس تحته عمل، أو ثمرة نافعة![1].

وكان يقدم للسائل نصيحة غالية، تفيده في سؤاله وحياته، وهي قوله: "انظر ما ينفعك في ليلك أو نهارك فاشتغل به"[2].

وقد وصف الواقدي[3] مجلس الإمام مالك، وصفًا كاشفًا لمقامه ومكانته، فال: كان مجلسه مجلس حلم ووقار، وكان رجلًا مهيبًا نبيلًا، ليس في مجلس شيء من المراء واللغط، ولا رفع صوت، وكان الغرباء يسألونه عن الحديث، ولا يجيب إلا في الحديث بعد الحديث![4].

ـ وقد رد على رجل سأله عن وطء رجل دجاجة ميتة، فخرجت منها بيضة، فأفقست البيضة عنده عن فرخ، هل يأكل الواطئ الفرخ؟!.

أجاب الإمام معلمًا الرجل أدب السؤال: "سل عما يكون، ودع ما لا يكون!".

ومرةً سأله آخر عن مسألة تشبه ما سبق من سؤال، فلم يجبه الإمام، فقال السائل: لم لا تجيبني؟. فقال الإمام معلمًا السائل: "لو سألتَ عما تنتفع به أجبتك!"[5].

وفي ذلك قال ـ أيضًا ـ: "لا تسأل عما لا تريد، فتنسى ما تريد، فإنه من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه"[6].

ولما قيل له: إن قريشًا تقول إنك لا تذكر في مجلسك آباءها وفضائلها، فقال: "إنما

---

(١) "مع الأئمة"، ص ١١٢.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١٨٥.

(٣) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد الواقدي، أبو عبد الله، مدني، عداده في البغداديين، روى عن مالك حديثًا كثيراً، وفقهًا ومسائل، كان واسع العلم، كثير المعرفة، أديبًا نبيلاً، عالمًا بالحديث والسير، والأخبار والفتوح، ولد عام ١٣٠هـ، وتوفى ـ رحمه الله ـ ببغداد، سنة ٢٠٧هـ، عن ٧٨ سنة. انظر "ترتيب المدارك"، ج٣، ص ٢١٠ ـ ٢١٥.

(٤) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٥، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٩.

(٥) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٧١.

(٦) "المرجع السابق"، ص ٩٦، و عبد الغني الدقر، "الإمام مالك، إمام دار الهجرة"، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

نتكلم فيما نرجو بركته"(١).

وعندما حضر ابنا هارون الرشيد؛ محمد والمأمون، لسماع العلم من الإمام مالك، وفرغا من السماع، قال أحدهما للإمام: يا أبا عبد الله، أتأمرني أن أكتبه بماء الذهب؟. نصحهما بما فيه فائدة لهما، في دينهما ودنياهما قائلًا: "لا تكتبه بماء الذهب، ولكن اعمل بما فيه(٢).

وقد كان الإمام مبغضًا بشدة للأغلوطات، وهي المسائل الشائكة التي لا نص فيها، أو المسائل التي ظاهر النصوص فيها التعارض، وأمر طالب العلم بأن "لا يطلب إلا ما ينتفع به، ولا يطلب الأغاليط والإكثار"(٣).

وهذه المسائل تحتاج إلى علم غزير، وعقل واسع ممتد، ناقد، وتبصر، وسعة خبرة ومران(٤).

وقد قال الإمام الأوزاعي مبينًا طبيعة الأغلوطات، فذكر أنها "شداد المسائل وصعابها"(٥).

لذا قال الإمام مالك ناصحًا طلاب العلم: "عليك بالبيّن المحض، وإياك وثنيات الطريق، وعليك بما تعرف، واترك ما لا تعرف"(٦). وقد قال الإمام: "شر العلم الغريب، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس"(٧).

إن الإمام كان يبتعد عن شواذ الفتيا، ولا يفتي إلا بما هو واضح نير، وكان يقول:

---

(١) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٧١.

(٢) السيوطي، "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ١٢، و"تنوير الحوالك..."، ج١، ص ٨.

(٣) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٩٦.

(٤) "مع الأئمة"، ص ١٠٩.

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم الحديث: ٢٣٦٨٧، و"جامع بيان العلم، وفضله"، رقم: ٢-٣٨.

(٦) انظر "ترتيب المدارك"، ج١،ص ٨٦.

(٧) انظر: د/ نور الدين عتر، "منهج النقد في علوم الحديث"،ط٣، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م، ج١، ص ٤٠٢.

"خير الأمور ما كان ضاحيًا، نيرًا، وإن كنتَ في أمرين أنت منهما في شك فخذ بالذي هو أوثق"(١).

والواقع العلمي لبعض طلاب العلم الشرعي فيه نماذج غاب عنها نصح الإمام مالك، وسداد رؤيته، فضلوا وأساءوا، وأحدثوا مشاكل عديدة في واقعنا، فمنهم من يندفع ـ في ابتداء طلب العلم ـ إلى البحث في هذا اللون من فضول العلم، أو فروعه، لكثرة تناوله والحديث عنه والسؤال حوله، فهو سبيل إلى التصدر، قبل أن يبحث الطالب في القواعد الشرعية، وقبل أن يُلم بالأصول الكلية المرعية، وقبل أن يستوفي نصيبه من الاستعداد والملكة المعرفية.

ـ وقد نجد شابًا يجتهد في مسألة أصولية، استقر رأي الأمة فيها منذ زمن بعيد، على قول واضح صحيح، ثم يقوم باستحداث رأي جديد، ظانًا أنه غاب عن عقول الجهابذة والعظماء، وفتح عليه فيه، على رغم حداثة سنه وقلة خبرته، وإنما أُتي من هذا!(٢)

ـ وهناك من يجعل نفسه حكمًا بين أهل العلم فيما شجر بنهم، فأضاع عمره وجهده في غير طائل، وذهب الناس بالعلم النافع المقرِّب إلى الله ـ تعالى ـ، أما هو فما في جرابه إلا: قال فلان، وقال فلان....، ثم خرج كما قال القائل:

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

وثالث، أحب الجدال، وحمله التعصب على تغيير مواقع العلم، فقدم وأخر، ورفع وخفض، بحيث أصبحت الأصول عنده فروعًا، لأنه أهملها وغفل عنها، واشتغل بغيرها، فإذا حُدث عنها لم يتحرك قلبه، ولم ينشط ذهنه، وكيف، وهي مسلَّمات وبدهيات.

إنه اعتنى بالفروع وحرص عليها، وقدمها، واعتبرها أساسًا للمخالفة والموافقة!.

أما الصنف الرابع، فيرى حاجة الناس إلى علم الشريعة، لذا استعجل الخطوات،

---

(١) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٩٦.

(٢) د/ سلمان العودة، "مع الأئمة"، ص ١٠٩.

واختصر المسافات، فقرأ كتابًا في الفقه مثل كتاب "المحلى"، فيجد من روعة الأسلوب وقوة الحجة، ما يجعله أسيرًا لعقلية الإمام ابن حزم، فلا يخرج عن رأيه، ويفتي بمذهبه، ويتبعه بقوة في كل شيء، لأنه لا يملك من العلم والتأصيل وقوة النظر ما يجعله قادرًا على التمييز بين الاجتهاد الذي أصاب، وبين الاجتهاد الذي لم يصب.

هؤلاء الطلاب لو أعطوْا أنفسهم بعض الوقت، وصبروا وصابروا حتى ينضجوا على نار هادئة، ولم يستجيبوا لنوازع الشهوة الخفية في النفس، لنفعوا، وانتفعوا!.

إنه فقه جدير بالتأمل والرعاية، وعلى الدعاة ومن يتبعهم الحذر من تطبيق جزئيات يعلمونها، تطبيقًا يرجع على الكليات بالإبطال، أو الضعف![1].

لقد كان الإمام على علم بالفرق المختلفة، وبالأفكار المنحرفة، وبالأهواء المختلفة، ولكنه لم يعلن ذلك العلم للناس، بل أهمل دراستها وشغْل أذهان تلاميذه بالرد عليها، ولم يجعل لها زمنًا من درسه، ومر على كلام المنحرفين مر الكرام على لغو الكلام، لأنه كان يكره المراء، ويرى من ضعف الدين أن يجعله صاحبه هدفًا للجدل[2].

لقد حرص الإمام على عدم نشر كل علمه بين الناس، خاصة في قضايا اختلاف الناس، والأفكار المنحرفة، لأنه لا يستطيع كل عقل أن يدرك وجه الرد على أهل الأهواء، وما لا يدركه قد يضل به إذا أُلقي عليه.

لذا، ما كان يحب الجدل فيما أثاره المعتزلة والجبرية والمرجئة والخوارج من أمور تتحير فيها المدارك، وتختلف فيها العقول، ولم يكن ذلك عن جهل بأقوالهم، بل عن علم وبينة،لأنه رأى أن الخوض فيها لا ينتهي فيه الخائض إلى بر السلامة،ولا يصل إلى غاية.

وقد جاء في "ترتيب المدارك"، أن بعض نقاد المعتزلة قال: أتيت مالك بن أنس، فسألته عن مسألة من القدر، بحضرة الناس، فأومأ إليَّ أن: اسكت!، فلما خلا المجلس

(١) المرجع السابق، ص ١٠٧، ١٠٩، ١١٠.

(٢) "مالك حياته وعصره، آراءه وفقهه، مرجع سابق، ص ١٥١، ١٥٧.

قال: "اسأل الآن. وكره أن يجيبني بحضرة الناس، فزعم أنه لم تبق له مسألة إلا سأل عنها، وأجابه، وأقام الحجة على إبطال مذهبهم(١).

إن الإمام ما كان يُلقي في دروسه كل ما يعلم، بل يُلقي خير ما يعلم، وما يرى فيه خيرًا للناس، وعلمًا بالدين يتوارثونه. لذا اقتصر فيما يلقيه على تلاميذه على الحديث، والفُتيا في المسائل الفقهية(٢).

وقد أنكر الإمام على تلميذه ابن وهب سماعه أشياء من العلم، لا يستقيم أن يعرفها ويحدث بها، فلما قال له ابن وهب: إنما أسمعه لأعرفه لأحدث به؟. رد الإمام معلمًا ومحذرًا: "ما سمع إنسان شيئًا إلا تحدث به!، لقد سمعت من ابن شهاب أشياء ما تحدثت بها، وأرجو ألا أفعل ما عشت"(٣).

لقد دفعه الإخلاص للعلم والفقه وعنايته بمآلات الأمور إلى الابتعاد عن الإكثار من التحديث، وفي ذلك قال: "إذا حدثت الناس بكل ما سمعت إني إذًا أحمق"، وفي رواية: "إني أريد أن أضلهم إذًا"، وذكر أنه خرجت منه أحاديث، وود لو ضرب بكل حديث منها سوطًا وليته لم يحدث بها، رغم أنه "أفزع الناس من السياط"، لذا، لم يكن يحدث بكل ما يعلم، وكان يعتبر من يكثر من التحديث، ومن يحدث بكل ما يعلم أحمقًا ولا يسلم، ولا يتمكن من القيادة(٤).

وفي ذلك قال: "ليس يسلم رجل يحدّث بجميع ما يسمع، ولا يكون إمامًا أبدًا"(٥)، بل ذكر أن عنده أحاديث لم يحدث أحدًا بها، ولن يحدث بها حتى يموت(٦).

---

(١) "المرجع السابق"، ص ٣٥، ٣٦، و ص ٩٧.

(٢) انظر "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٧١.

(٣) "المرجع السابق"، ج١، ص ٧١.

(٤) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٧٩، و"مالك، حياته، وعصره، وآراؤه وفقهه"، ص ٨٥.

(٥) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٧، و"ترتيب المدارك.."، ج١، ص ٦٩، ٧٠.

(٦) "تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ١٥.

بل يرى من إذلال العالم للعلم أن يجيب كل من سأله![1].

وذكر أنه إذا قل الكلام أصيب الجواب، وإذا كثر الكلام كثر خطأ صاحبه. وبين أن: "من أكثر الكلام ومراجعة الناس ذهب بهاؤه"[2].

وطالب بعدم الإكثار من الكلام، وإحراز اللسان وصيانته من العبث، وفي ذلك قال: "كثرة الكلام تمج العلم وتذله وتنقصه"[3]، وذم رجلًا يتكلم كلام شهر في يوم أو ساعة!.

واعتبر "من لم يعد كلامه من عمله كثر كلامه"، لذا "من علم أن كلامه من عمله قلَّ كلامه".

٥ ـ البعد عن المراء، والجدال الفاسد

كان- رضي الله تعالى عنه- يكره الجدل بلا طائل ولا فائدة، ويبغض الخصومة والنزاع، سوءا في ميدان الفكر والعلم النظري، أو في الميدان السياسي. وكان يراه مفسدًا للدين والدنيا.

لذا ابتعد الإمام كل الابتعاد عن الجدل، لأن المجادلة نوع من المنازلة، ودين الله أعلى من أن يكون موضعًا لنزال المسلمين، ولأن الجدل يدفع في كثير من الأحوال إلى التعصب للفكرة غير الصحيحة، من غير أن يشعر المجادل.

هذا التعصب يجعل صاحبه ينظر إلى الأمور نظرة قاصرة، لا يدركها من عامة وجوهها، بل يدركها من وجه واحد، وناحية واحدة.

ولأن الجدل يغلب على فاعله سعيه إلى نيل إعجاب السامعين، والرغبة في الشهرة، والإعجاب بقول الحق والباطل، والصدق والكذب!.

إن الجدل غير المفيد لا يليق بكرامة العلماء، لأن السامعين ينظرون إليهم وهم

---

(١) "المرجع السابق"، للزواوي، ص ٨٧.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٨٧، ٨٨.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٩.

يتغالبون في القول، كما ينظرون إلى الديكة وهي تتنافر![1].

لذا أسمع الإمام مالك الخليفة هارون الرشيد وأبا يوسف صاحب أبي حنيفة هذه الرؤية الرافضة للجدل، حين قال له الرشيد: ناظر أبا يوسف!، فرد عليه قائلًا: "إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة"[2].

وقد نهى مالك تلامذته عن الجدل في الدين، فقال: "ليس الجدال في الدين بشيء" وبين أن "المراء والجدال في الدين يذهب بنور العلم من قلب العبد"، و "يقسّي القلب، ويورث الضغن".

وعندما رأى قومًا يتجادلون عنده قام ونفض رداءه قائلًا: "إنما أنتم جرب".

ولما قيل له: الرجل عالمٌ بالسنة، يجادل عنها؟ قال الإمام:"لا، ولكن يخبر بالسنة فإن قبل منه، وإلا سكت"[3].

وأشد ما كان نفور الإمام من الجدال حين يكون في الأمور العقدية التي لا ينبني عليها عمل، وكان إذا سئل عنها يجيب باقتضاب وإيجاز، ملزمًا بما تدل عليه ظواهر النصوص الشرعية، أو يعرض عن السائل فلا يجيب[4].

إن الإمام عندما سئل عن بعض المسائل التي خاضت فيها الفرق المختلفة لم يُجب إلا بقليل من القول، حتى لا ينساق إلى الجدل كما يجادلون، وإلى الخوض فيما يخوضون.

---

(١) الشيخ/ محمد أبو زهرة، "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ٨٣، وانظر "دراسة د/ أحمد العوضي "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، دراسة له بمجلة أم القرى، لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها"، ج٢، المجلد ١٤، العدد: ٢٣، شوال ذ١٤١٢هـ، ديسمبر ٢٠٠١من ص ٧٦٦ ـ ٧٧٦، و"الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٩.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٥، ٨٦، والسيوطي، "تزيين الممالك..."، ص ١٤.

(٣) " ترتيب المدارك...."، ص ٨٥، و"تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ١٤.

(٤) د/ محمد نصيف العسيري، "الفكر المقاصدي عند الإمام مالك"، ط١، ٢٠٠٨م، دار الحديث، القاهرة، ص ٢١٦.

وكانت إجابته القصيرة على طريقته في الاعتماد على المأثور، والابتعاد عما لا يجد نصًا عليه من كتاب أو سنة، ولم يتجاوز ذلك السمت الذي رسمه لنفسه، وقيدها به. حيث كان عند مدلول النص، ولا يتجاوز المعنى الواضح في لفظ جاء به القرآن أو السنة، خاصًا بالعقائد، وقد سئل عن مسائل جرت في عصره، فكانت إجابته فيها على ذلك النحو(١).

يبين ذلك ما ذكره سفيان بن عيينة من أن الإمام سأله رجل: "الرحمن على العرش استوي"، كيف استوي؟.

فسكت مالك مليًا، حتى علاه الرحضاء (العرق الشديد)، واغتم، ثم سُرِّي عنه، وقال: "الاستواء منه معلوم، والكيف عنه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب وإني لأظنك ضالًا"، فناداه الرجل: يا أبا عبد الله، والله الذي لا إله إلا هو، لقد سألتُ عن هذه المسألة أهل البصرة،والكوفة والعراق،فلم أجد أحداُ وُفق لما وُفقْتَ له"(٢).

ومثل ذلك ما أثر عنه ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ من قوله عن الإيمان، إنه"قول وعمل"، وكان يرى أن الطاعات من الإيمان، فالقيام بالصلاة من الإيمان، ويستشهد على ذلك بأن الصلاة كانت إلى بيت المقدس، ثم صارت إلى بيت الله الحرام، فخشي بعض المؤمنين أن تكون صلاتهم الماضية إلى ضياع، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ ﴿البقرة: ١٤٣﴾.

فدل ذلك بلفظه البين على أن الصلاة إيمان، وهي فعل، فالإيمان قول وفعل.

وهكذا ـ كما يذكر الشيخ أبو زهرة ـ، تجد الإمام يأخذ بظاهر اللفظ، من غير تحمل لما وراء ذلك(٣).

---

(١) "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ١٥٩، ١٦٠.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٩٨، و"تنوير الحوالك.."، للسيوطي، ج١، ص ١١.

(٣) "مالك حياته وعصره..."، ص ١٦٠.

إن الإمام مالك يرى أن شيوع الجدل بين علماء المسلمين يفسد عليهم أمور دينهم، فما يدرون ما يُقال؛ أهو الحق الذي لا مجال للريب فيه، أم الباطل الأكيد، وذلك يؤدي إلى الجهل بالسنة وأحكام الدين وتضييع حقائقها ومعالمها(١)، ولذلك كان يقول: أو كلما جاء رجل أجدل من رجل يريد أن يرد ما جاء به جبريل إلى النبي ـ ﷺ ـ"، وفي رواية: "كلما جاء رجل أجدل من رجل، تركنا ما نحن عليه، إذًا لا نزال في طلب الدين"(٢).

ومع هذا البغض الشديد من الإمام للجدل إلا أنه أجرى مناظرات شفهية ومكتوبة، مع إخوانه العلماء، مثل أبي يوسف والليث بن سعد، ومع بعض الخلفاء، الذين لهم نزعة علمية أوْلهم في العلم مكان، كأبي جعفر المنصور!(٣).

هذه المناظرات العلمية الراشدة لابد منها للعلماء، خصوصًا في زمن اختلفت فيه منازع الفقهاء، باختلاف الصحابة الذين انتهى علمهم إليهم، وباختلاف البيئات الإقليمية والفكرية، وباختلاف المنازع العقلية والنفسية.

وقد كان الإمام يلتقي بالفقهاء مثل أبي حنيفة والأوزاعي، في موسم الحج وفي المدينة المنورة، ويجري بينهم حدث في الفقه وغيره، ويبين كل وجهة نظره لصاحبه، والغرض من الجميع الوصول إلى الحق، واتضاحه وبيانه بكل أبعاده(٤).

إن الأئمة الأربعة ـ رحمهم الله ورضي عنهم ـ كانوا ينشدون الحق، والصواب والسداد وقد شهد أحد تلاميذ الإمام مالك مناظرة له مع الإمام أبي حنيفة، تبين ما سبق، فيقول الدراوردي(٥): "رأيت مالكًا وأبا حنيفة في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ، بعد العشاء

---

(١) "مالك، حياته وعصره..."، ص ٨٤.

(٢) الشيخ/ عيسى الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٨٤، و"تزيين الممالك"، للسيوطي، ص ١٤.

(٣) انظر مناظرات متعددة مع أبي يوسف وغيره، في "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ١٢١، ١٢٥.

(٤) انظر "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ٨٤.

(٥) الدراوردي: هو أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد، منسوب إلى دراورد من بلاد فارس، مولى جهينة، وبها كان منزله، مدني، مولده بها، روى عن حميد الطويل وغيرهن وصحب مالكًا، وغلب عليه الحديث، روى عنه ابن وهب والقعنبي، وغيرهم، توفى ـ رحمه الله ـ عام ١٨٥هـ، وقيل ست =

الآخرة، وهما يتذاكران ويتدارسان، حتى إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به وعمل عليه أمسك أحدهما عن صاحبه، من غير تعسف ولا تخطئة لواحد منهما"(١).

❁ ❁ ❁

= أو سبع وثمانين، بالمدينة. انظر "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ١٣ ـ ١٥.

(١) محمد المكي الناصر، "المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل"، بحث مقدم لندوة الإمام مالك، إمام دار الهجرة، بوزارة الأوقاف المغربية، ط. مكتبة الشريف أحمد الحسيني، ١٤٢٤هـ، ص ٦٥.

٦ ـ الترحيب بتعدد الآراء، وأهمية ذلك

إن أبا جعفر المنصور قد أُعجب بشخصية الإمام مالك، وعلمه، وعقله، وهم أن يجعله رمزًا للسلطة الدينية، وأن يقلده إمامة الناس في الفقه والاتباع والقضاء، وقال له: "أنت ـ والله ـ أعقل الناس وأعلم الناس"(١).

وقد طلب المنصور من الإمام مالك أن يكتب علمه، وبناء عليه كتب الإمام مالك كتابه العظيم الشهير "الموطأ"، ملتزمًا بنصيحة الخليفة: "تجنب شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله بن عباس، وشواذ عبد الله بن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة". وظل يُقرأ عليه ما يزيد على عشرين سنة، وهو يصححه وينقحه، حتى وُجد له ما يزيد على ثلاثين رواية(٢).

ـ وقد أبى الإمام ما أراده المنصور من حمل الناس على مذهبه وكتابه، وقال له كلمة عظيمة رائعة: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، وروَوْا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به من اختلاف الناس أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل أهل بلد منهم لأنفسهم"، فرد أبو جعفر عليه: لعمري، لو طاوعتني على ذلك لأمرتُ به"(٣).

وفي رواية أنه قال للخليفة: "يا أمير المؤمنين، إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة، كلٌّ يتبع ما صح عنده، وكلٌّ على هدى، وكلٌّ يريد الله"(٤).

وقد قال له الإمام مبينًا مآل إكراه الناس على ما لا يعرفون، "فإن ذهبت تولهم عما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوْا ذلك كفرًا!". وهذا من إدراكه لمآلات الأمور، وخطورة

---

(١) "ترتيب المدارك"، ج٢، ص ٨٩.

(٢) "مع الأئمة"، ص ١٠٤.

(٣) انظر "تزيين الممالك..." للسيوطي، ص٤٣، ٤٤، و"مناقب سيدنا الإمام"، للزواوي، ص ٧٥، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٥٦، ٧٨، و"طبقات ابن سعد"، ج٧، ص ٥٧٣.

(٤) "تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ٤٤.

الحديث إلى الناس، بما ينكرونه ويصادمهم.

إن توحيد الفتوى في القضاء الاجتهادي على رأي مجتهد واحد، فيه نوع حَجر فكري لاسيما والعصر عصر نشاط فكري متوقد، واجتهاد فقهي مزدهر، وإن موقفه ذلك ليدل على سعة أفق، وبُعد نظره، ومعرفته بحال عصره وبحثه عن مصالح المسلمين والدين(١).

إننا نجد عبراً وعظات من موقف الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور، منها:

١ ـ أهمية دور العالم الذي مكنه الله من أذن السلطان: نجد ذلك في موقف الإمام مالك، حيث استغل قربه من الحاكم، في الدفع عن أعراض العلماء والدعاة، مع تحسين صورتهم وإزاحة كل ما يلصق بهم من أباطيل، وتهم وأقاويل، مع السعي إلى تنقية قلب السلطان وصفائه نحو كل مؤمن، وعالم وداعية، من أهل الخير والهدى، مع حسن النظر للرعية، والرفق بها في قيادتها(٢).

٢ ـ رفض الإمام مالك استخدام السلطة، لفرض رأيه الشخصي: وهذا آية العقل عنده، وبصيرة نافذة، وبعد نظر، إضافة إلى زهده الراسخ، في الجاه، والمكانة الدنيوية عند السلطان وعامة الناس!(٣).

وفي ذلك قال العلامة عيسى الزواوي: "فانظر إنصاف مالك ـ ﷺ ـ، وصحة دينه وحسن نظره للمسلمين، ونصيحته لأمير المؤمنين، ولو كان غيره من الأغبياء المقلدين والعتاة المتعصبين والحسدة المتدينين لظن أن الحق فيما هو عليه، أو مقصور على من ينسب إليه وأجاب أمير المؤمنين، إلى ما أراد، وأثار بذلك الفتنة، وأدخل الفساد"(٤).

٣ ـ عمق فقهه للواقع، وحسن تقديره للفقهاء الذين يخالفون آراءه الفقهية، بناءً على

---

(١) د/ أحمد العوضي، "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق.

(٢) "مع الأئمة"، د/ سلمان العودة، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٤) انظر "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٧٥.

اجتهادهم، واعتداده باجتهادهم، وأخذ الناس عنهم، ووعيه لخطورة قهر الناس على اعتقاد لا يوافقون عليه، وأثر ذلك على استقرار المجتمع، وسكينة الناس، وإدراكه لأهمية الحفاظ على حرية الناس واختيارهم![1].

إن مالكًا رأى أن الاختلاف ضروري، لتكون اللأحكام متوافقة مع عرف كل إقليم مادامت لم تخالف نصًا من كتاب أو سنة، ولكي لا يكون الناس في ضيق![2].

وقد تكرر عرض وضع كتاب واحد برأي واحد في كل مسألة، لحمل الناس عليه، من الخليفة المهدي، ثم من الخليفة هارون الرشيد، وفي كل مرة كان الإمام يبين أن المصلحة في عدم حمل الناس على رأي واحد أرجح، لذلك لما قال المهدي لمالك: ضع كتابًا، أحمل الأمة عليه. رد الإمام: "يا أمير المؤمنين، أما هذا الصقع ـ وأشار إلى المغرب ـ فقد كفيتكه وأما الشام ففيهم الرجل الذي علمتُه، (يعني الأوزاعي)، وأما أهل العراق فهم أهل العراق!"[3].

وورد أن الإمام مالكًا قال في هذه المسألة: "شاورني هارون الرشيد في ثلاثة: أن يُعلق الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن يُنقض منبر رسول الله ـ ﷺ ـ، ويجعله من جوهر وذهب وفضة، وفي أن يقدم نافع بن نعيم إمامًا يصلي بالناس في مسجد رسول الله ﷺ".

هذه الأمور الثلاثة رد عليها الإمام بقوله: "أما تعليق الموطأ في الكعبة، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، فافترقوا في البلدان، وكلٌّ عند نفسه مصيب.

ـ وأما نقض المنبر فلا أرى أن تحرم الناس أثر رسول الله ـ ﷺ ـ.

---

(١) انظر كلام الإمام في "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٧٨.

(٢) "مالك، حياته، وعصره، آراءه وفقهه"، مرجع سابٌ، ص ١٨٧.

(٣) انظر" رسائل البلغاء"، جمع: محمد كرد علي، ط. دار الكتب العربية، د/ ت، ص ١٢٥، ١٢٦، والزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي ص ٧٥، ٧٦، ٧٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص، و"ترتيب المدارك...."، ج١، ص ١١٧.

ـ وأما تقديمك نافعًا[1] يصلي بالناس فإن نافعًا إمام في القراءة، لا يؤمن أن تبدر منه في المحراب بادرة (أي غفلة وسهو)، فتحفظ عنه"، فقال له هارون: وفقك الله يا أبا عبدالله[2].

ـ وفي رواية أن أبا جعفر قال له: لأكتبن كتابك بماء الذهب، ثم أعلقه في الكعبة وأحمل الناس عليه"، لكن الإمام رفض ذلك.

ولعل واقع الحياة في الساحات: الفكرية، والسياسية والفقهية في الدولة، هو الذي أننتج فكرة توحيد الأمة على مذهب واحد في القضاء الاجتهادي، لدى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.

إن الساحة الفكرية كانت تشهد صراعات شديدة بين سائر المدارس الفكرية العقدية: معتزلة وشيعة وجهمية، ومعطلة، ومشبهة.

والساحة الفقهية كنت تشهد اختلافات فقهية متعددة، لا تكاد مسألة فقهية تخلو في جنب من جانبها منها، وشاع تضارب الأقضية والأحكام، واختلافها، وتناقضها؛ بسبب الآراء الفقهية، كما ذكره ابن المقفع[3] في رسالته لأبي جعفر المنصور، مبينًا هذا التناقض الشديد في الأحكام القضائية، في الدماء والفروج، والأموال، "فيستحل الدم

---

(١) هو نافع بن نعيم، الإمام، حبر القرآن، أبو الحسن، وقيل: أبو نعيم، أو أبو محمد، مولى، ولد في خلافة عبد الملك بن مروان، سنة بضع وسبعين، شهد له مالك بالإمامة في القراءة، وأخذها عنه مالك، كان صدوقًا، روى عنه القعنبي وإسماعيل بن أبي أويس وغيرهما. مات عام ١٦٩هـ ـ رحمه الله ـ انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٣٣٦ـ٣٣٨.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٨، ٧٩، و"تزيين الممالك..."، للسيوطي، ص ٤٤، و"ترتيب المارك، ج١، ص ٦٩.

(٣) ابن المقفع: هو عبد الله روزبه بن دادوية، بن المقفع، ولد في حور في فارس، أبو محمد، كان فاضلاً كريمًا وفيًا، صاحب علم واسع، أحد البلغاء الفصحاء، ورأس الكتاب، وقتل في خلافة المنصور، ولم يتجاوز السادسة والثلاثين عند موته، وقد ترك مؤلفات عظيمة، انتفع بها الناس، وعمر أدبه. توفى عام ١٤٥هـ، وقيل عام ١٤٢هـ عن ست وثلاثين سنة، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٢٠٨، ٢٠٩، و"علم اللغة العربية"، د/ محمود فهمي حجاي، ط. دار غريب للنشر والطباعة.

والفرج بالحيرة، وهما يحرمان بالكوفة"، بل في البلد الواحد كان هذا التناقض[1].

وكذلك الساحة السياسية، قد كانت بها جماعات معادية للسلطة العباسية، منها الفكري، ومنها المسلح.

فالخوارج كلما فشلوا في ثورة استأنفوا التخطيط والإعداد لثورة أخرى، وللمعتزلة فكر عقدي يثمر فكرًا سياسيًا ثوريًا انقلابيًا،... إلخ.

هذه الظروف كلها شجعت أبا جعفر على طلبه من الإمام تأليف" الموطأ"، ليوحد القضاء على ما يراه الإمام![2].

٧ ـ ضرورة تكامل الأدوار، والتعاون بين العلماء والمصلحين

ـ كتب أحد العلماء[3] الذين يفضلون العزلة والانفراد، لا التعليم ومخالطة الناس، إلى الإمام مالك يحثه على الميل للعزلة، فرد عليه الإمام، شاكرًا له نصيحته، مبينًا أن الله يوجه عباده لميادين الخير، وقد قسم الأرزاق المعنوية والعملية بينهم، وأنه ارتضى لنفسه ميدان التربية والتعليم، وليس ما اختار بأقل قيمة وتأثيرًا مما اختار هذا العابد لنفسه.

ومما جاء في رده عليه: "إن الله قسم العمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنتَ فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر، ويجب على كل منا أن يرضى بما فتح له، والسلام"[4].

---

(١) انظر "رسالة البلغاء"، لمحمد كرد علي، مرجع سابق، ص ١٢٦، و"مالك، حياته، عصره..."، ص ١٨٣ ـ ١٨٦.

(٢) "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق.

(٣) هو العابد الزاهد عبد الله بن عبد العزيز العمري، وكان له علم وفقه جيد وفضل، كان قوالاً للحق، منعزلاً عن لناس، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٥٧، ٥٨..

(٤) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١١٤، وانظر "مع الأئمة"، مرجع سابق، ص ٩٥، و د/ مصطفى الشكعة، =

هذا فقه عظيم، نحتاجه في كل المواقع والأحداث، يترتب عليه التكاتف والتعاون والعمل المشترك، كل فيما وهبه الله من تفوق ومهارات وقدرات، فلا يكيد البعض للآخر، ولا يهدم فريق الآخر، وساحات العمل للإسلام واسعة تحتاج للجميع، وثغور الإسلام كثيرة مفتقرة إلى كل الجهود لسدها.

وقد قدم لنا الرسول ـ ﷺ ـ المثل والأسوة في توظيف كل الطاقات، في كل المجالات كلٌّ فيما يحسنه، ويتقنه، وما أكثر وأوسع الميادين المحتاجة لكل جهد وبلاء لرفعة شأن الأمة(١).

٨ ـ ضرورة الحوار والمناظرات النافعـة

إن المناظرة ـ بصفة عامة ـ، تعتبر فنًا ذا شأن عظيم، إذ تمثل أحد السبل المهمة إلى معرفة طرق الاستدلال، وتمييز الصواب من الخطأ في الأحكام والآراء(٢).

وتقوم على المحاورة ين فريقين حول موضوع، لكل منهما وجهة نظر فيه، تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره، وإبطال وجهة خصمه، مع رغبته الصادقة بظهور الحق، والاعتراف به لدى ظهوره"(٣).

والمناظرة تؤخذ بمعناها العام، الشامل للمناظرة الشفوية المعروفة عند لقاء الطرفين المختلفين، وحوارهما ومناقشتهما حول موضوع الخلاف، كما تشمل المناظرة المكتوبة، القائمة على الاستدلال والحجج، وتقصد إلى بيان الحق، والوصول إلى الصواب.

إن مالكًا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، ما كان يسمح بمناظرة أحد إذا أدرك رغبة عند المناظر في الإعنات والغلبة، وانتفاء الميل إلى الحقيقة، ومما يدل على ذلك مناظرته لأبي يوسف عند

= "الإمام مالك"، ص ٤١، ٤٢.

(١) د/ سلمان العودة، "مع الأئمة، الجوامع والفروق والسير"، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٢) "الفكر المقاصدي عند الإمام مالك.."، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٣) الأستاذ/ عبد الرحمن حسن حبنكة، "ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة..."، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م، ص ٣٧١.

الرشيد، فقد سأله أبو يوسف عن مسألة بعد مسالة، فأجابه مرتين أو ثلاثًا، وحضرت الصلاة، فقاموا جميعًا إلى المسجد، فأخبر أحد الحاضرين مالكًا أن أبا يوسف يتعنته، لذا، عزم على عدم إجابته، وأمير المؤمنين سيرضى عن عدم إجابته، فلما عادوا من المسجد سأله أبو يوسف، فلم يجبه مالك، وعلل ذلك بقوله: إنما حسبته مسترشدًا، وأظنه إنما يسأل متعنتًا فلا أجيبه"(١).

ومرة أخرى طلب أبو يوسف الإذن من الرشيد في مناظرة الإمام، فنهاه الرشيد قائلًا له: إياك والمدني!، فلما ألح عليه أذن له، وبدأ مالك يدلي بما عنده من علم ويقول: حدثنا نافع عن ابن عمر، عن النبي ـ ﷺ ـ،..."، أما أبو يوسف فقد قال: حدثنا الحسن بن عمارة عن الحكم، وأبو حنيفة عن حماد، فتدخل مالك مغضبًا: ساء ما أدبك أهلك يا يعقوب، أحدثك عن نافع عن ابن عمر، عن النبي ـ ﷺ ـ، وتحدثني عن الحسن بن عمارة وأبي حنيفة!".

فنظر الرشيد إلى أبي يوسف نظر مغضب وأومأ بعينه: أن قد نهيتك عن التعرض له!.

إن مالكًا قد تبين له عدم بلوغ أبي يوسف الدرجة التي تؤهله للمناظرة، لذا سأله أبو يوسف عن مسألة، فلم يجبه، فقال له الخليفة هارون: أجبْه. قال الإمام لأبي يوسف؛ ـ وهو معرض عنه ـ: إذا رأيتنا جلسنا إلى أهل الباطل فتعال أجبك!"(٢).

لقد كان الإمام يرحب ويشارك في المناظرات التي يقصد بها إلى طلب الحق المجرد من الجدل المنهي عنه، مناظرات تتحرى الحق لا الغلط، يسودها الإخلاص، والود.

لذا، رأيناه يناظر أبا حنيفة، حتى يعرق من المناظرة معه، ويقول لليث بن سعد: "إنه لفقيه يا مصري".

ويناظر أبا جعفر المنصور، ويرسل الرسائل لمن يخالفونه، يدعوهم إلى رأيه(٣).

---

(١) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ١٢١.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) الشيخ/ أبو زهرة، "مالك، حياته وعصره...."، ص ١٢٩، ١٣٠.

وهذه نماذج من مناظراته ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ:

أ ـ كان أبو يوسف لا يرى الترجيع في الآذان، ومالك يراه ويجيزه؛ ولما اعترض أبو يوسف عليه، بعدم وجود نص فيه، رد عليه الإمام قائلًا: يا سبحان اللَّه، ما رأيتُ أمرًا أعجب من هذا، يُنادَي على رءوس الأشهاد في كل يوم خمس مرات، يتوارثه الأبناء عن الآباء، من لدن رسول اللَّه ـ ﷺ ـ إلى زماننا هذا، يُحتاج فيه إلى فلان عن فلان، هذا أصح عندنا من الحديث"(١).

ب ـ وذات مرة سأله رجل عراقي عن صدقة الحبس (صدقة الوقف)، فأجاب الإمام: "إذا أُبِّدتْ مضت". فقال له العراقي: إن شريحًا قال: لا حبس عن فرائض اللَّه!.

فضحك الإمام، ثم قال: رحم اللَّه شريحًا(٢)، لم يدر ما صنع أصحاب رسول اللَّه ـ ﷺ ـ هنا"(٣).

إنها مناظرات تهدف إلى توضيح الأمور، وبيان الحق، ولا تقصد غلبة أو مراء أو رياء... إلخ.

فلا تعارض بين نهيه عن الجدل الفاسد المليء بالكذب والتدليس والبهتان، وبين هذه المناظرات العلمية،المليئة أدبًا وفقهًا، ووضوحًا، وتحريًا للصواب، مع الإخلاص للَّه.

وقد كان مالك ـ كغيره من الفقهاء والأئمة ـ يتفوق في مناظرة، ويتفوق عليه غيره في أخرى، كما جرى مع الإمام الأوزاعي، حين اجتمعا "فتناظرا، فجعل الأوزاعي يجر مالكًا إلى المغازي والسير، فقوي عليه الأوزاعي!، فلما رأى مالك ذلك جره إلى غيرها من أمور الفقه فقوى فيه مالك عليه"(٤).

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٢) هو القاضي الفقيه شريح.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٥.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج٢، ص ١٢٩.

ومن جميل أخلاق مالك اعترافه بقدر مناظره وثناؤه عليه، يحكي ذلك، فيذكر اجتماعه مع أبي حنيفة وكلامه معه في مسائل كثيرة، ويعقب على ذلك بقوله عن أبي حنيفة: "فما رأيت رجلًا أفقه منه، ولا أغوص منه في معنى وحجة!"(١)، وقال لليث بن سعد، مبينًا سبب مسحه عرقه عن جبينه: "عرقتُ مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري!"(٢).

(١) الإمام علاء الدين البخاري، "كشف الأبرار عن أصول فخر الإسلام"، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م، ج١، ص١٦.

(٢) "ترتيب المدارك.."، ج١، ص ١٥٢.

مناظرة الإمام مالك مع الإمام الليث

لقد حرص الإمام مالك بقوة، على التشاور والمراجعة العلمية والتباحث مع إخوانه العلماء والفقهاء، بروح المودة والأخوة والصفاء والنصيحة المخلصة، من غير قسوة وإغلاظ، أو اتهام، أو تجاوز في الألفاظ.

وقد حُفظت لنا رسالتان عظيمتان متبادلتان بين الإمام مالك، وبين إمام مصر، الليث بن سعد، وكانا صديقين.

هاتان الرسالتان نماذج نفيسة من مناهج الأئمة في طريقة تبادل وجهات النظر بعضهم مع بعض، وإفادة بعضهم لبعض، وتصحيح بعضهم للآخر(١).

أولًا: رسالة الإمام مالك إلى الليث بن سعد، إمام مصر:

كانت رسالة في غاية الحسن والإيجاز، والبلاغة والإفصاح عن الحجة، والنصيحة لشركاء الطريق، مع الحب والدعاء، والأدب العالي في اللفظ والعبارة والمعنى!.

وهذا نص الرسالة الرائعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من مالك بن أنس، إلى الليث بن سعد.

سلام عليك، فإني أحمد الله إليك، الذي لا إله إلا هو.

أما بعدُ:

عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياك من كل مكروه.

كتبتُ إليك، وأنا ومن قبلي من الولدان والأهل على ما تحب، والله محمود.

جاءني كتابك، تذكر من حالك ونعم الله عليك، الذي أنا به مسرور، وأسأل الله أن يستمر علينا، وعليك صالح ما أنعم به علينا وعليك، وأن يجعلنا له شاكرين(٢).

---

(١) "مع الأئمة"، مرجع سابق، ص ٩٦، ٩٧، و"مالك، حياته وعصره..."، ص ١١٧، وانظر "الإمام مالك....."، د/ مصطفى الشكعة، ص ١١١ـ١١٥.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٧.

وفهمتُ ما ذكرتَ في كتب بعثت بها لأعرضها عليك، وأبعث بها إليك، فقد فعلتُ ذلك، وغيرت منها، حتى صح أمرها على ما تحب، وختمتُ على كل فنداق، (أي جزء منها)، منها بخاتمي، ونقشه: "حسبي الله، ونعم الوكيل".

ويكمل الإمام مالك رسالته لليث بن سعد،:" وكان حبيبًا إليَّ حفظك وقضاء حاجتك، وأنت لذلك أهل، وصبرتُ لك نفسي في ساعات، لم أكن أعرض فيها، لأن الحج فيه، فتأتيك مع الذي جاءني بها، حيث دفعتُها إليه، وبلغتُ من ذلك الذي رأيتُ أنه يلزمني في حقك وحرمتك.

وقد نشَّطني ما استطلعتُ مما قِبلي من ذلك في ابتدائك بالنصيحة لك، ورجوتُ أن يكون لها عندك موضع، ولم يكن يمنعني من ذلك قبل اليوم أن لا يكون رأيي لم يزل فيك جميلًا، إلا أنك لم تذاكرني شيئًا من هذا الأمر، ولم تكتب فيه إليَّ .

واعلم ـ رحمك الله ـ أنه بلغني أنك تفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في إمامتك وفضلك، ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله ـ ﷻ ـ يقول في كتابه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ ﴿التوبة: ١٠٠﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ ﴿الزمر: ١٨﴾[1].

وتابع الإمام رسالته للإمام الليث بن سعد: "وإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأُحل الحلال، وحُرم الحرام، إذ رسول الله بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه، حتى

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج ٨، ص ١٧.

توفاه الله، واختار له ما عنده، ـ صلوات الله وسلامه عليه، ورحمته وبركاته ـ[1].

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته، ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم وحداثة عهدهم، فإن خالفهم مُخالف، أو قال امرؤ غيره، ما هو أقوى منه وأولى، تُرك قوله وعمل بغيره .

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل، ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرًا معمولًا به، لم أر لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها.

ولو ذهب كل أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضي عليه من مضى منا، لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يجز لهم من ذلك مثل الذي جاز لهم.

فانظر ـ رحمك الله ـ فيما كتبتُ إليك فيه لنفسك، واعلم أني أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبتُ به إليك إلا النصيحة لله ـ تعالى ـ وحده، والنظر إليه، والضن بك، فأنزل كتابي منك منزله، فإنك إن تفعل تعلم أني لم آلك نصحًا.

وفقنا الله وإياك لطاعته، وطاعة رسوله ـ ﷺ ـ، في كل أمر، وعلى كل حال، والسلام عليكم ورحمة الله"[2].

إنه من خلال فحص وقراءة رسالة الإمام مالك، الموجَّهة للإمام الليث، يتبين لنا قوة مأخذ الإمام مالك، ووضوح وقوة حجته، وبلاغة لفظه، كما نرى اعتداده الرائع بإمامته وشخصيته الفقهية،حين يرى إلزام الآخذ عنه برؤيته،وتحذيره من مغبة المخالفة لما يدعو إليه.

ويتضح لنا قوة مكانته ومنزلته لدى علماء عصره، حين يصدر خطابه ورسالته بقوله: بلغني أنك تفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا.."، مما يشير إلى وجود ما

(١) المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٥٦.

يشبه النظام الفقهي، المعتبر المحترم، الذي لا يسهل ولا ينبغي تخطيه أو تجاوزه(١).

ورسالة الإمام مالك لليث تمثل اعتراضًا مهذبًا، وجهه الإمام مالك إلى صديقه إمام مصر، لأنه بلغه أن الليث يفتي الناس بما يخالف فقه أهل المدينة، وبالتالي فقه الإمام مالك نفسه(٢).

وتعد رسالة الإمام مالك ـ ورد الليث عليه ـ نموذجًا رائعًا من نماذج الحوار العلمي، وأدب المناقشة والمناظرة، والبحث عن الحق والحقيقة، وتمحيص المسائل، وقد بدأ الإمام مالك حديثه مع صاحبه الإمام الليث لينًا هينًا كريمًا، فشرع أولًا في الدعاء لنفسه وصاحبه، ثم يذكر له في رفق ما يلاحظه عنده من مخالفات ـ في رأيه ـ، ثم يقرن هذا بقوله، ممجدًا لليث ومثنيًا عليه: "وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاء منك حقيق أن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه".

ثم يعرض مالك ما يستدل به من آي القرآن وهدي السنة وعمل الصحابة والتابعين، ثم رجا من صاحبه أن "يعيد النظر"، فيما كتب إليه عنه، ثم يعود إلى الدعاء وإلى تأكيد أنه لم يكتب إلا ابتغاء النصيحة الخاصة لله، وتذكير أخيه الليث، ويرد الليث فيطيل، لأنه يدافع عن نفسه، ويستدل على ما ذهب إليه، ولأنه يحاول إقناع مالك بأن موقفه سليم وقويم، ومع طول رسالة الليث فقد التزم الأسلوب الهادئ الرزين المليء أدبًا ورقة وصيانة لحرمة لمالك، وهو يبادل صاحبه التحية والاحترام والدعاء وهو يتقبل منه النقد بصدر رحب، ويسلم ببعضه في تقدير وعرفان(٣).

وقد رد الإمام الليث ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ على الإمام مالك برسالة طويلة، تعتبر قطعة من الأدب الرفيع، فضلًا عن كونها وثيقة أخلاقية فقهية نفيسة، مدعومة بالأدلة من الكتاب والسنة.

---

(١) "مع الأئمة"، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) "الإمام مالك..."، د/ مصطفى الشكعة، ص ١١٢.

(٣) د/ أحمد الشرباصي، "الأئمة الأربعة"، ط. الجيل، بيروت، ص ١٠٩، ١١٠.

وهذا نص الرسالة(١):

من الليث بن سعد إلى مالك بن أنس.

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو.

أما بعد:

عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة.

فقد بلغني كتابك، تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه.

وذكرتَ نظرك في الكتب التي بعثتُ بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا، فجزاك الله عما قدمتَ منها خيرًا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببتُ أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها(٢).

وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبتُ إليك فيه، من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوتَ أن يكون لها عندي موضع، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلًا، إلا أني لم أذاكرك مثل هذا"(٣).

ويكمل الإمام الليث رسالته: وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأنه يحق على الخوف على نفسي، لاعتماد من قِبلي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن.

وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أعد أحداُ قد يُنسب إليه العلم، أكره لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلًا لعلماء أهل المدينة الذين مضوْا،ولا آخذَ لفُتياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين، لا شريك له.

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٧.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧، و"إعلام الموقعين"، ج٣، ص ٧٢.

وأما ما ذكرتَ من مقام رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه، بين ظهري أصحابه، وما علمهم الله منه، وأن الناس صاروا به تبعًا لهم فيه، فكما ذكرتَ.

وأما ما ذكرتَ من قول الله ـ ﷻ ـ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ ﴿التوبة: ١٠٠﴾، فإن كثيرًا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيهم، ولم يكتموهم شيئًا علموه، وكان في كل جند منهم طائفة يعلّمون كتاب الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة، ويقومهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان، الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين، ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير، لإقامة الدين، والحذر من الاختلاف، بكتاب الله وسنة نبيه ـ ﷺ ـ(١).

فلم يتركوا أمرًا فسره القرآن،أو عمل به النبي ـ ﷺ ـ، أو ائتمروا فيه بعده، إلا أعلموهموه.

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يزالوا عليه حتى قُبضوا، لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرًا لم يعمل به سلفهم، من أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين لهم، حيث ذهب أكثر العلماء، وبقي منهم من لا يشبه من مضى.

مع أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ اختلفوا بعده في الفتيا في أشياء كثيرة، ولولا أني قد عرفتُ أن قد علمتها لكتبتُ بها إليك.

ثم اختفت التابعون في أشياء، بعد أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف.

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٥٦، و"إعلام الموقعين"، ج٣، ص ٧٢.

ثم اختلف الذين كانوا بعدهم، فحضرتهم بالمدينة وغيرها، ورأسهم يومئذ: ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن، فكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما عرفت وحضرت، وسمعتُ قولك فيه، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد(١)، وغيرهم كثر، ممن هو أسن منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه(٢).

ويكمل الإمام الليث رسالته: "وذاكرتُك أنت وعبد العزيز بن عبد الله، بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين فيما أنكرتُ، تكرهان منه ما أكره.

ومع ذلك ـ بحمد الله ـ عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام،ومودة صادقة لإخوانه عامة،ولنا خاصة،ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، وغفر له وجزاه بأحسن من عمله ـ".

وتابع الإمام: "وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه في الشيء الواحد ـ على فضل رأيه وعلمه ـ بثلاثة أنواع، ينقض بعضها بعضًا، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك، فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرتَ تركي إياه.

وقد عرفتُ ما عبتَ إنكاري إياه، أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة، بما لا يعلمه إلا الله، لم يجمع منهم إمامٌ قط في ليلة مطر، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح(٣)، وخالد بن الوليد(٤)، ويزيد بن أبي

(١) كثير بن فرقد المدني، سكن مصر، روى عن نافع، مولى ابن عمر، وعن عبد الله بن مالك بن حذاقة، وغيرهما، وحدث عنه الليث وعمرو بن الحارث وملاك وغيرهم، كان ثقة ثبتاً. انظر "تهذيب التهذيب".

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٥٦، و"إعلام الموقعين"، ج٣، ص ٧٣.

(٣) أبو عبيدة بن الجراح: هو الأمين الرشيد، العامل الزاهد، أمين الأمة، عامر بن عبد الله، بن الجراح، الفهري المكي، أحد السابقين للإسلام، روى أحاديث معدودة، وغزا غزوات مشهودة، حدَّث عنه كثيرون، استشهد في طاعون عمواس بالشام ـ ﷺ ـ سنة ١٧هـ عن ٥٨ سنة. انظر "حلية الأولياء..."، ١/ ١٠٠ ـ ١٠٢، و"سير أعلام النبلاء"، ١/ ٢ ـ ١٦.

(٤) خالد بن الوليد بن المغيرة، بن عبد الله، المخزومي، القرشي، المكي، فارس الإسلام، وليث المشاهد، أبو سليمان، ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، جاهد جهاداً عظيماً، مناقبه غزيرة، افتتح دمشق مع =

سفيان(١)، وعمرو بن العاص(٢)، ومعاذ بن جبل(٣).(٤)

وقد بلغنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:"أعلمُهم بالحلال والحرام: معاذ بن جبل"(٥)، وقال: "يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء برتوة "(٦).- وفيهم- شُرحبيل بن حسَنة(٧)،.....

= أبي عبيدة، عاش ستين سنة، توفى بحمص سنة ٢١هـ، ومشهده على باب حمص، روى عدة أحاديث شريفة، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٣١٨ـ ٣٣٤.

(١) يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، الأموي، ابن عبد شمس بن عبد مناف، أخو معاوية من أبيه، وهو أخو أم المؤمنين أم حبيبة، كان من الشجعان المذكورين، والعقلاء الألباء، أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، كان أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، أمره عمر على دمشق، توفى في الطاعون سنة ١٨هـ، انظر "سير أعلام النبلاء.."، ج١، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي، أبو عبد الله، داهية قريش، ومن يضرب به المثل في الدهاء والحزم والفطنة، أسلم سنة ثمان من الهجرة، أحبه النبي وشهد له بالإيمان والرشد، ولاه عمر فلسطين والأردن، وافتتح مصر، وطرابلس الغرب وغيرها، توفي ـ ﷺ ـ، عام ٤٣هـ، عن نحو مائة سنة، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ٥٠ـ ٧٢.

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو، بن أوس، الأنصاري، أبو عبد الرحمن، الخزرجي، المدني، البدري، له عدة أحاديث، روى عنه كثيرون من الصحابة والتابعين، شهد له النبي بأنه أعلم الأمة بالحلال والحرام، بعثه النبي إلى اليمن معلماً وداعياً، قال عنه عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، لولا معاذ لهلك عمر. استشهد في طاعون عمواس بالشام، عن ٣٢ عاماً، سنة ١٨هـ، وقيل غير ذلك. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٣٩٢ـ ٤٠٩.

(٤) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٥٦، و"إعلام الموقعين"، ج٣، ص ٧٣.

(٥) انظر "سنن الترمذي"، ج١، ص ٣٧٩١، وقد صححه، و"المستدرك على الصحيحين"، للحاكم النيسابوري، ج٢ن ص ٤٧٧، ط/ دار الكتب العلية، بيروت، ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

(٦) رواه ابن عساكر في "تاريخ دمشق"، ج٥٨، ص ٤٠٦، مرسلاً، و"تهذيب الكمال، للمزي، ج١٨، ص ١٦٥، مرسلاً، وقد روي من غير وجه مرفوعاً وموقوفاً، ومتصلاً ومنقطعاً. والرتوة: ذكر فيها أبو عبيد ثلاثة أقوال أحدها: بخطوة،والثاني: ببسطة، والثالث: أنها نحو من ميل. غريب الحديث لابن الجوزي ج١/ ص٣٨٠.

(٧) شرحبيل بن حسنة، صحابي جليل، من مهاجرة الحبشة في الهجرة الثانية، فاتح الأردن، وقاتل الروم في عدة مواقع، كان من كتاب الوحي الشريف، مات عن سبع وستين سنة، ودفن في صيدا بلبنان ـ رحمه الله ـ انظر "الطبقات الكبرى"، لابن سعد، ج٤، ص ١١٩.

وأبو الدرداء(١)، وبلال بن رباح(٢).

وكان أبو ذر(٣) بمصر، والزبير بن العوام(٤)، وسعد بن أبي وقاص(٥)، وبحمص سبعون من أهل بدر، وبأجناد المسلمين كلها، وبالعراق ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان(٦) وعمران بن الحصين، ونزلها علي بن أبي طالب سنين، بمن كان معه من

(١) أبو الدرداء: هو عويمر بن زيد بن ققس، الأنصاري، الخزرجي، أبو الدرداء، حكيم الأمة، وسيد القراء بدمشق، روى عدة أحاديث عن النبي ـ ﷺ ـ وروى عنه كثيرون، أسلم يوم بدر، وشهد أحداً، من العلماء الفقهاء، ولي القضاء في عهد عثمان، له كلام كثير حكيم، ومواقف في التزكية وقول الحق والزهد، عجيبة ـ رضي الله عنه ـ ، مات عام ٣٢هـ، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٣، ص ٢٩٤ ـ ٣٠٩، و"صفة الصفوة، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) بلال بن رباح: مولى أبي بكر الصديق، مؤذن رسول الله، من السابقين الأولين للإسلام، شهد له النبي بالجنة، روى أحاديث كثيرة عن الرسول ـ ﷺ ـ، عاش بضعاً وستين سنة،توفى بلا سنة ٢٠هـ، بدمشق، انظر " سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٣٠٢ ـ ٣١٢.

(٣) أبو ذر، جندب بن جنادة الغفاري، أحد السابقين الأولين، كان خامس خمسة في الإسلام، كان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، روى كثيراً من أحاديث المصطفى ـ ﷺ ـ كان رأساً في الزهد والصدق، والعلم والعمل والجهر بالحق، شهد فتح بيت المقدس مع عمر، مات ـ رحمه الله ـ سنة ٣٢هت، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٣٣ ـ ٦٤.

(٤) الزبير بن العوام، بن خويلد، بن أسد بن عبد العزي، أسلم وهو ابن ستة عشرة سنة، وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله، أول من سل سيفاً في سبيل الله، قاتل الأبطال، وباذل الأموال، حواري رسول الله، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، استشهد أثناء انصرافه من يوم الجمل، بعد أن ذكره علي بن أبي طالب بحديث ينهاه عن قتاله، ـ رحمه الله ـ انظر "حلية الأولياء"، ج١، ص ٨٩ ـ ٩٢، و"سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٣١ ـ ٥١.

(٥) سعد بن أبي وقاص، مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب..، القرشي، الزهري، المكي، كان من السابقين للإسلام،أوذي في سبيل الله في مكة،وأحد العشرة المبشرين بالجنة،خال رسول الله ـ ﷺ ـ روى جملة صالحة من الحديث الشريف، وحدث عنه صحابه كثيرون، قائد القادسية، وفاتح العراق، ومدوخ الفرس، وولي الإمارة على الكوفة،مات ـ رحمه الله ـ عن ٨٢ عاماً، سنة ٥٦هـ، انظر "حلية الأولياء.."، ج١، ص ٩٣، ٩٤، و"سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٧٣ ـ ٩٩.

(٦) حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي، أبو عبد الله، من أعيان المهاجرين، صاحب سر الرسول ـ ﷺ ـ المتعلق بأسماء المنافقين، والفتن الكائنة في الأمة، ولاه عمر على المدائن، واستمر كذلك في عهد عثمان، ومات بالمدائن بعد عثمان، ـ رض الله عنه وأرضاه ـ، انظر "سير أعلام النبلاء"/ ج١، ص ٣١٨ ـ ٣٢٣، و"صفة =

أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط"(١).

وقال الإمام الليث ـ في رسالته: "وقد بلغنا عنكم أشياء من الفتيا مستكرهًا، وقد كنتُ كتبتُ إليك في بعضها، فلم تجبني في كتابي، فتخوفتُ أن تكون استثقلت ذلك، فتركتُ الكتاب إليك في شيء مما أنكرتُ، وفيما أوردتُ فيه على رأيك"(٢).

وقد عدد الليثُ بعض المسائل التي خالف فيها رأي مالك، ثم قال داعيًا لمالك ومثنيًا عليه، وطالبًا منه دوام المراسلة والنصيحة: "وقد تركتُ أشياء كثيرة من أشباه هذا، وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة، إذا ذهب مثلك مع استئناس بمكانك، وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي، ورأيي فيك، فاستيقنه.

ولا تترك الكتاب إليَّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك، وحاجة إن كانت لك، أو لأحد يوصل بك، فإني أسر بذلك.

كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا، وتمام ما أنعم به علينا.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"(٣).

إننا نرى حبًا وودًا بين المختلفين في الرأي، ودعاءً لهم وترحمًا عليهم، مع شهادة بالحق للمختلف مع الآخر، بما قدموا للإسلام، فالإمام الليث يثني على ربيعة، رغم اختلافه معه، فيقول: "عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة، وغفر له، وجزاه بأحسن من عمله!"(٤)

= الصفوة"، ص ٢٩١، ٢٢٠.

(١) "إعلام الموقعين"، ج٣، ص ٧٣، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٥٧.

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق ج٨، ص ١٧.

(٤) د/ سلمان العودة، "مع الأئمة"، ص ١٠٢، ١٠٣، و"مالك، حياته وعصره..."، ص ١١٧.

وصدق د/ مصطفى الشكعة، حين علق على الرسالتين بقوله: "فهل هناك قول في مخالف أجمل من هذا القول، وهل هناك ذكر لمعارض أرق أو آدب من هذا الفكر؟، لكن ذلك ليس بمستغرب، لأنه أدب الأئمة، وشمائل العلماء، وأخلاق الفضلاء"(١).

إن الرسالتين مليئتان ـ كما قال الشيخ أبو زهرة ـ: "بأدب جم، وبحث قيم، ومودة صادقة، ومخالفة في طلب الحق هادية، لا لجاج فيها ولا خصام، بل محبة وولاء ووئام"(٢).

وقد كان الليث محبًا لمالك بقوة، ويقول في ذلك: "إني لأدعو لمالك في صلاتي" وذكر حاجة الناس له في الفتيا(٣).

ونرى في هذه المراسلة أن العالم يستأنس بأهل بلده وعلماء قطره، مع أن ما هو مشهور معمول به في المدينة قد يخالف ما هو مشهور معمول به في مصر أو العراق.

ونستفيد منها ـ أيضًا ـ ضرورة أن يعود العاقل نفسه تجديد النظر بين الفينة، والفينة فيما وصل إليه، إذ أن وجه الحق لا يتضح جليًا في كل وقت، فقد يحجبه عنه حماسٌ لرؤية، أو مشاهدة مصلحة، أو حدة مخالف أو شانئ، أو طبع غلاَّب!.

إن المرء لا يلام إذا مضى وفق اجتهاده وعمل به، فهذا شأن الحياة، وضروراتها، إذ لو كان المرء لا يعمل باجتهاد إلا بعد استتمام النظر فيه من كل وجه، وإطالة مدارسته، لتعطلت الحياة، وفاتت الفرص(٤)، لكن كما قال الفاروق ـ ﷺ ـ: "تلك على ما قضينا يومئذ وهذه على ما قضينا اليوم".

إن المطلع على مثل هذه الرسائل المتبادلة بين هذين الإمامين يرتفع عنه الحزن والقلق إذا وجد اختلافًا منضبطًا بين العلماء، ويتعلم ألا تتزلزل قناعته باجتهاده، حتى لو

(١) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك.."، ص ١٢٢ ز

(٢) "مالك حياته، وعصره، آراءه وفقهه"، مرجع سابق، ص ١١٨، و د/ الشكعة، ص ١٢١.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٦٣.

(٤) انظر: البخاري، "التاريخ الكبير"، ج٢، ص ٣٣٢، ومصنف بن أبي شيبة، رقم: ٣١٠٩٧.

عاتبه عليه بعض مقربيه وأحبته(١).

وللإمام حوار مكتوب في رسالة بينه وبين أحد المتصوفين أرسل إليه خطابًا منكرًا عليه لبس الرقاق، وأكل الطيبات وجعل حاجب على بابه، وسفر الناس إليه لطلب العلم وتعلمه، وقال في خطابه: "فاتق الله يا مالك، وعليك بالتواضع في المأكل، والملبس والمسكن، كتبتُ إليكَ بالنصيحة كتابًا، ما اطلع عليه غير الله، سبحانه وتعالى..، والسلام..".

فما كان من الإمام مالك إلا أن رد برسالة، مليئة علمًا وهداية، ورفقًا وأدبًا، جاء فيها: "أما بعد، فقد وصل كتابك، فوقع مني موضع النصيحة والشفقة، والدب، أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرًا، وأسأل الله التوفيق؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العليم العظيم.

أما ما ذكرت من أني آكل الرقاق، وألبس الدقاق، وأحتجب، وأجلس على الوطئ، فأنا أفعل ذلك، وأستغفر الله من الحرام، ولكن قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ﴿الأعراف: ٣٢﴾.

وإني لأعلم أن تركها خير، ولكن كل ميسر لما خلق له.

فإن كنتَ أنتَ يُسرتَ لذلك فقد يُسرتُ أنا لذلك، وفي كلينا الخير إن شاء الله، ولا تدعنا من كتابك، فلست أدعك من كتابي، ومن دعائي، والسلام"، وقد أثني أبو حامد الغزالي على رد الإمام مالك على يحيى بن يزيد، لما فيها من إنصاف وعلم وأدب ورحمة وفقه دقيق(٢).

ونستفيد من د الإمام مالك أمورًا نحتاجها في التعامل مع المخالف:

أولًا: البدء بالنقاط المتفق عليها.

---

(١) د/ سلمان العودة، "مع الأئمة"، ص ١٠٣.

(٢) انظر "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي، ج١، ص ١١٤، دار الشعب.

ثانيًا: بيان الإيجابيات عند الطرف المخالف.

ثالثًا: بيان الحجة بالبرهان النقلي، العقلي والعلمي.

رابعًا: ثقة العالم بنفسه، وقناعته القوية باختياره(١).

***

(١) "الفكر التربوي عند الإمام مالك.."، مرجع سابق، ص ٢٤.

منهج الإمام مالك في النصح لأولي الأمر في عصره

إن العلماء كان يواكبون الحركة السياسية في دولتهم ويوجهونها، مادامت على الخط المستقيم، فإذا انحرفت عن أصول الإسلام، عارضوها، ولو أدت هذه المعارضة إلى تحمل الأذى، والجلد والسجن، وربما الاستشهاد في سبيل الله.

إنهم كانوا يقولون للمحق: أنت مُحق، وللمبطل: أنت مبطِل، بملء أفواههم.

وقد عاصر الإمام مالك أهم التحولات الدينية والسياسية التي عرفتها البلاد الإسلامية، ما بين عام ٩٣هـ ـ ١٧٩هـ، فقد فتح عينيه على فتح الأندلس، عام ٩٢هـ، وشاهد في عنفوان شبابه سقوط دولة بني أمية، وقيام دولة بني العباس بالمشرق، كما شاهد قيام دولة الأمويين بالأندلس، عام ١٣٨هـ، ثم دولة الرستميين الخوارج بالمغرب الأوسط عام١٤٠هـ، ومد الله في عمره، إلى أن رأى قيام الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى، عام ١٧٢هـ.

وكان من الطبيعي أن يتفاعل مع كل ذلك بحكمة وبُعد نظر، مما جعله محل تقدير من الجميع، ومرجوًا لكل خير.

وقد عاصر على المستوى الديني نشأة الفرق الكلامية، والمذاهب الفقهية التي كان أحد أئمتها، ورآها وهي تنتشر هنا وهناك(١).

إن الإمام لم تكن له أطماع سياسية ولا حتى مذهبية خاصة، وإنما الذي كان يعنيه بالدرجة الأولى تحقيق وحدة إسلامية سنية، في وقت تزايدت فيه أطماع الفرق الإسلامية المتطرفة، من خوارج ورافضة، الذين أسسوا بعض الإمارات في جهات مختلفة من بلاد المغرب الإسلامي، وكان يرى جدارة أهل المغرب بالقيام بتلك المهمة، وتحقيق ذلكم الطموح، ومن ثم كان يشجع النابهين من تلامذته المغاربة على تعليم القرآن، وتولي

(١) "الإمام مالك بعيون مغربية"، دراسة بملتقي مؤسسة "سوس"، للمدارس العتيقة، بمدينة تارودانت، منشورة بالإنترنت.

الفتيا، والقضاء في بلدانهم إذا عادوا إليها. ولعل من ذلك تولي عامر بن محمد القيسي القضاء لإدريس الثاني بالمغرب(١).

وكان مالك يُجل تلميذه عبد الله بن غانم، القاضي الإفريقي، (التونسي)، وإذا جاء أقعده الإمام إلى جانبه، ويسأله عن أحوال المغرب، ولما ولي القضاء، أعلم مالك بذلك أصحابه وفرح به!(٢).

وكان الإمام يتابع باهتمام كبير ما يجرى في بلدان الغرب الإسلامي، يدل على ذلك سؤاله زياد بن عبد الرحمن اللخمي، فقيه الأندلس، المعروف بشبطون، عن هشام حاكم الأندلس، فلما أخبره عن حسن سيرة هشام، وعدله، قال مالك ـ فرحًا مغتبطًا ـ: "ليت الله زيَّن حرمنا بمثل هذا"(٣).

وقد جاء إلى الإمام رجل من أهل المغرب يسأله قائلًا: "إن الأهواء كثرت قِبلنا، فجعلتُ على نفسي، إن أنا رأيتك أن آخذ بما تأمرني به!"، فوصف له الإمام شرائع الإسلام، الصلاة والصيام والزكاة والحج، ثم نصحه قائلًا: "خذ بها، ولا تخاصم أحدًا"(٤).

ويعلق أحد كبار علماء المغرب على نصيحة الإمام للمغربي السائل، بقوله: "بهذه النصيحة وجه مالك تاريخ الغرب الإسلامي كله، في أفريقيا الشمالية، وأفريقية الغربية، والسودان، والأندلس، نحو السنة، وقطع الطرق على الخارجية والشيعة، الغالية، والاعتزال"(٥).

والواقع يؤكد أن وصايا الإمام مالك لتلامذته كانت تسير كلها في هذا الاتجاه، وتصب في هذا المصب .

---

(١) "المرجع السابق".

(٢) "ترتيب المدارك.."، ج٣، ص ٥٦، و"الإمام مالك بعيون مغربية"، مرجع سابق.

(٣) "الإمام مالك بعيون مغربية"، مرجع سابق، بتصرف.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٨٩.

(٤) "الإمام مالك بعيون مغربية"، مرجع سابق.

وكان مالك يوصي المغاربة بالحفاظ على الأمن والاستقرار وتجنب الفتن، ومما يدل على ذلك قول طالوت[1] بن عبد الجبار المعافري للحكم الربضي[2] هشام بن الداخل،: "كيف يحل لي أن أخرج عليك، وقد سمعتُ مالك بن أنس يقول: سلطان جائر مدة، خير من فتنة ساعة"، قال الحكم: "آللَّه تعالى، سمعت هذا من مالك؟". قال طالوت: "اللهم إني قد سمعتُه"، قال: فانصِرف إلى منزلك، وأنتَ آمِن"[3].

وكان قرعوس[4] القرطبي الأندلسي ممن اتهم بالقيام على خلع الحكم بن هشام الأموي، فكلمه شخص على لسان الحكم وقال له: "مثلك من أهل الديانة والأمانة والعلم يساعد السفَلة، ولو نفذ لهم أمركم كان يهتك من المستور ويستحل من الفروج إلى أن يقوم إمام يريح الناس". فرد قرعوس: "معاذ الله أن أفعل ذلك أو أبايع في مثل هذا، بيد أو لسان فقد سمعتُ مالكًا والثوري يقولان: سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعةً من نهار". فقال له الحكم: "أنت سمعت هذا منهما؟ قال:"آاللَّهِ، لقد سمعتُ منهما!"، فخلى سبيله"[5].

إن من مشايخ مالك من شاهد كثيرًا من الأحداث السياسية في القرن الأول الهجري

---

(١) طالوت بن عبد الجبار المعافري، من أهل قرطبة، كان آخر من أخذ عن مالك، من أهل العلم، وشهر بالصلاح والفضل، ـ رحمه ـ. انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٢.

(٢) الحكم بن هشام: بن الداخل، عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، ابن الحكم، الأموي المرواني، أبو العاص، أمير الأندلس، وابن أميرها، وحفيد أميرها. ويلقب بالمرتضى، ويعرف بالربضي، بويع بالملك عند موت أبيه سنة ١٨٠هـ، كان من جبابرة الملوك وفساقهم، مع شجاعة ودهاء وعتو وحزم، تملك سبعًا وعشرين سنة، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٣) انظر: وصاياه ليحيى بن يحيى الليثي، وأسد بن الفرات وأصحابه، في "ترتيب المدارك"، ج ٣.

(٤) قرعوس بن العباس بن قرعوس بن عبيد، من أهل قرطبة، أحد فقهاء الأندلس، أبو الفضل، وقيل أبو محمد، سمع من مالك والثوري، والليث وغيرهم، كان متدينًا فاضلاً ورعًا، كثير الفقه، خاصة فقه مالك وأصحابه، توفى عام ٢٢٠هـ ـ رحمه الله ـ. انظر "ترتيب المدارك..."، ج٣، ص ٣٢٥، ٣٢٦، و"الديباج المذهب"، ج٢، ص ١٥٤.

(٥) "ترتيب المدارك..."، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٢٦.

أو سمع من أنبائها، لاسيما أثناء الخروجات والثورات، فسمع مالك من تلك الأنباء، وشاهد بنفسه أحداثًا سياسية وقعت في المدينة، وعاصر وسمع الكثير عن أخبار الفتن والصراعات، والقتل وسفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وأدرك أثر ذلك على الأمة والدولة، والدين والدعوة، وأن ذلك لم يُقم حقًا، ولم يدفع باطلًا، ورسخ لدى الإمام قناعة فكرية هي ضرورة السعي إلى الاستقرار السياسي في الدولة، والأمن للأمة، والنصح للأئمة، وذلك لما للعنف والصراعات من أثر سيء وثمر نكد على الأمة والدولة، وعلى الدنيا والدعوة.

وهذا ما يفسر دوام حرص مالك على بذل الطاعة، والتزام الجماعة، ولكنها طاعة العالم الإمام، الحريص على نصح ولاة الأمر، والذي لا يخاف في الحق لومة لائم(١).

فلم يكن ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مداهنًا للخلفاء، ولا مبالغًا في احترامهم، وفي ذلك قال" دخلتُ على أبي جعفر مرارًا، وكان لا يدخل عليه أحد من بني هاشم، ولا غيرهم إلا قبل يده، ولم أقبل يده قط"(٢).

ولم يختلف منهج مالك في الدولة العباسية عنه في الدولة الأموية، فلم يخض في عداء، ولا تأييد لأيٍّ من أطراف الصراعات السياسية، ولم يشارك في خروج ضد أولي الأمر، بقطع النظر عن كون الخارجين محقين أو مبطلين، ولأن الدولة تعتمد الإسلام دستوراً، والشريعة الإسلامية مصدرًا وحيدًا للتشريع، وإن كانت سلطة الحكم ـ أحيانًا ـ تسيء تطبيق بعض الشريعة وتجعل الخلافة وراثية(٣).

لقد كان الإمام حريصًا كل الحرص على ألا يثير فتنةً أو يخوض فيها، لذا لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة لزم مالك بيته، فلم يخرج منه حتى قتل محمد(٤).

(١) د/ أحمد العوضي، "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي، دراسة له بمجلة "جامعة أم القرى، لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها"، مرجع سابق، ص ٧٦٦ ـ ٧٢٢ وما بعدها.

(٢) الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك" مرجع سابق، ص ٢٥.

(٣) "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٨٩ ـ ٧٩١.

(٤) "الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٥٧٣.

وقد اتخذ رؤية، مضى عليها في حياته، هي رفض إعلان موقفه في المنازعات السياسية، فقد خشي من إعلانه التحريض على الفتنة، وأن يأخذ منه دعاتها ذريعة لبثها بين الناس.

وكان يرى أن الفتنة كيفما كان باعثها شر من الحكم الباطل،كيفما كان القائم به(١).

ومن منهجه هجر كل نشاط سياسي، معاد للسلطة السياسية، واعتماد منهج الإصلاح من خلال المشاركة السياسية، أي قبول تسلم وظائف عامة وعليا في الدولة.

إن هناك من العلماء من رأى الدخول على السلاطين والأمراء، لأنهم لو تخلفوا عنهم لأتاهم من يزين لهم ظلمهم وطغيانهم وأهواءهم، ومنهم الإمام مالك.

وإذا بلغ العالِم مبلغ الإمام مالك فله مبرر في الدخول عليهم، إذ هو المتمكن من دينه ونفسه، وما عهد عليه سكوت عن منكر، أو ترك لأمر بهدى ومعروف، أو مساومة على دينه، أو إشارة بغير ما يُرضي ربه ـ سبحانه ـ.

لقد كان حافظًا لمقام العلم، شريفًا عفيفًا، وإن كان للأمراء سلطان الزمن، فللعالم الإمام مالك سلطان العلم والهداية والدين، ومنه يكتسب كل سلطان قوة ورفعة!(٢).

لذا، لما قدم المهدي المدينة جاءه الناس يسلمون عليه، فلما أخذوا مجالسهم استأذن مالك، فقال الناس: اليوم يجلس مالك آخر الناسّ، فلما دنا الإمام ونظر إلى ازدحام الناس، قال: "يا أمير المؤمنين، أين يجلس شيخك مالك؟!"، فقال: عندي يا أبا عبد الله. فتخطى الناس، حتى وصل إليه، وأجلسه المهدي بجواره(٣).

هكذا، كان الإمام مع الخلفاء، لا يجلس إلا بجوارهم، ولكنه في المسجد عند الصلاة، يصلي حيث انتهى به المجلس، وعند سماع العلم يجلس، حيث انتهى به

---

(١) "مالك حياته وعصره..."، ص ١٥٧ ـ ١٥٩.

(٢) "الإمام مالك، إمام درا الهجرة"، للدقر، ص ٣٤٣، ٣٤٤ بتصرف.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١١٣.

المجلس أيضًا(١).

ونفس الموقف حدث مع هارون الرشيد، حين دخل مالك على مجلس هارون، فسلم عليه: "السلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته، عمك مالك بن أنس، أين يجلس؟!"، قال هارون: ها هنا تجلس(٢) (بجواره).

إن الإمام مالك قبل المشاركة السياسية في عهد أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، وارتضاها، لما كان في أبي جعفر، من خصال خير عديدة، أهمها سعة علم الخليفة، وقبوله للنصح، دليل ذلك قول الإمام مالك بعد مقابلته للخليفة: فاتحني (الخليفة)، فيمن مضى من السلف والعلماء، فوجدته أعلم الناس، ثم فاتحني في العلم والفقه، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه، وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظًا لما روى"(٣). فأبو جعفر قد جمع بين الإمامتين: إمامة العلم، وإمامة الحكم.

وقد جرت مناظرات عديدة، بين الإمام مالك، والخليفة أبي جعفر المنصور في المسجد النبوي(٤).

إن الإمام كان يحيا في عصر يموج بالاضطرابات السياسية، ولكنه اجتهد أن يكون بمنجاة منها، ويستمتع بهدأة العالم المتفكر(٥).

وكان مالك في عقيدته السياسية غير مرتبط بهذا أو ذاك من الخلفاء أو الملوك، إنما كانت آراءه تصدر عن اقتناعه الشخصي، موصول الأسباب دائمًا بأصل ديني، ومعنى إسلامي(٦).

إن المنهج السياسي عند الإمام مالك كان يتسم بطابع الاستقلالية، فقد بلغ درجة

(١) "الإمام مالك بن أنس، إمام دارة الهجرة"، مرجع سابق، ص ٣٤٦.
(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٧.
(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٩٢.
(٤) المرجع السابق، ص ٢١١. و"الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٧٥.
(٥) "مالك حياته، وعصره..."، ص ١٥١.
(٦) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك..."، ص ٧٩، ٨٠.

الاجتهاد المطلق، ومنهجه في علاقته بالسلطة الحاكمة جزء من منهجه الكلي في استنباط الأحكام، وثمرة نظر وتفقه سياسيين، وليسا ثمرة تقليد أو تأثر![1].

وهناك دعائم لمنهج الإمام في خطابه وسلوكه السياسيْن، هي، ما يلي:

أ ـ التلطف في مخاطبة ولي أمر الأمة:

لم يكن من منهجه ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ معاداة الخلفاء ولا استعداؤهم، ولا يعني ذلك عدم بذل النصيحة لهم، والإنكار عليهم[2].

ومن الأمثلة لذلك حين استدعى الخليفة أبو جعفر المنصور مالكًا وأبا حنيفة وابن أبي ذئب، وسألهم: كيف تروْن هذا الأمر الذي أعطاني الله؟، هل أنا لذلك أهل؟.

فقال ابن أبي ذئب: "إن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها، والعون لمن وليها. وأنت وأعوانك كنتم خارجين من التوفيق، عالين على الخلق".

وكان مما قال أبو حنيفة: "إذا أنت نصحتَ لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا، إنك أردت أن تُعلم العامة أننا نقول فيك ما تهواه، مخافة سيفك وحبسك.

وقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى، والخلافة تكون عن إجماع المسلمين ومشورتهم".

أما الإمام مالك فقد قال: "لو لم يرك الله أهلًا كذلك ما قدر لك ملك أمر الأمة،...، أعانك الله على ما ولاك، وألهمك الشكر على ما خوَّلك، وأعانك على من استرعاك"[3].

إن الإمام لم يكن قاسيًا في الخطاب مثل أخويه: أبي حنيفة وابن أبي ذئب، لأنه رأى نفسه بين مفسدتين: مفسدة استعداء الخليفة، ومفسدة مدحه، على الرغم من ظلمه، وكلاهما شر، وفيهما ضرر، فاختار الإمام مدح أبي جعفر، لأنه أقل ضررًا، وأخف شرًا،

(١) "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٩٠.

(٢) المرجع سابق، ص٧٧١.

(٣) انظر الصيمري، "أخبار أبي حنيفة وأصحابه"، ط.٢، ١٩٧٦م، بيروت، ص ٥٩، ٦٠.

وذلك ليُبقِي على نفسه، لا لنفسه، ولكن للدين والأمة، فلو حبسه أبو جعفر أو قتله لكان على غيره أجرأ، فيتضرر الدين، وتتأذى الأمة، والإمام حريص على أن يبقي أمانًا للأمة.

فاختار الإمام أهون الشريْن، وأخف الضررَيْن في هذا الموقف.

إن على العلماء تحري منهج الاعتدال في نقد السلطة السياسية، فذلك أدعى إلى استجلاب التجاوب، واستيلاد التقارب، والتوصل إلى التعاون المثمر، والاحترام المتبادل بينهما(١).

٢ ـ عدم رضاه عن ظلم بعض الخلفاء، واغتصابهم للسلطة:

إن الإمام ما كان راضيًا عن أخذ بعض الخلفاء البيعة بالإكراه، ولا عن سيرة بعضهم!.

ومثالًا على ذلك:

أ ـ لما سأل الإمام مالك رجلًا من حجاج الأندلس عن عبد الرحمن بن معاوية ـ الداخل ـ، قال الرجل: إنه يأكل خبز الشعير، ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، وأخذوا يعددون مناقبه، المفقودة في خليفة بغداد وغيرها من بلاد الخلافة العباسية، رد الإمام بقوله ـ متمنيًا ـ: "ليت أن الله زَيَّنَ حَرمنا بمثله"(٢) مما أدى إلى غضب العباسيين منه.

ب ـ إفتاء الإمام مالك بأن طلاق المكره لا يقع، ولا يجوز، وتحديثه بحديث: "رفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه"(٣)، وحديث: "ليس على مكره يمين"،

(١) د/ أحمد العوضي، "منهج أنس بن مالك في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٧٢.

(٢) انظر "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٩٢، وانظر: د/ مصطفى الشكعة، "الأئمة الأربعة"، ط.١، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٤١٠، ٤١١، وابن عبد البر، "الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، مالك، الشافعي، وأبي حنيفة"، بيروت، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٣) شرح سنن ابن ماجه، للإمام السيوطي، باب: الترجيع، ج١، ص ٦٥، وشرح صحيح البخاري، لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، القرطبي، ط. مكتبة الرشد، السعودية، ٢٠٠٣م، كتاب: الحج، وكتاب: الأيمان والنذور، ط، ج٤، ص ٤٧٨، و"فيض القدير"، للشوكاني، ج٤، ص ٤٦.

مما أدى إلى ضربه لذلك.

وهذا عُدَّ في نظر الخليفة أبي جعفر المنصور ووالیه على المدينة، رفضًا من الإمام لبيعة العباسيين، وقدحًا فيهم، لأنهم كانوا يأخذون البيعة بالإكراه، ويريدون توثيق البيعة بالأيْمان والطلاق والعتاق، فلما أفتى مالك بسقوط يمين الإكراه، أنكرها الولاة عليه، ورأوْها قادحة في أيمان البيعة، ووقعت له محنة عظيمة. حيث ضرب بالسياط، ومدت يداه حتى انخلع كتفه، وحلق شعره، وحمل على بعير، وأمر أن ينادي على نفسه![1].

إن العباسيين كانوا يدركون أن الإمام مالكًا لم يقصد التحريض على نقض البيعة لهم، ولكنهم كرهوا تحديثه بأن طلاق المكرَه لا يقع، لما لذلك من مآل خطير، إذ كان الوقت وقت خروج محمد بن عبد الله بن الحسن، الملقب بالنفس الزكية، بالمدينة المنورة، وإن كان باعثه عليه حسنًا، فالإمام لم ينصَعْ للنهي بعدم التحديث بذلك، لذا اعتبره الحكام عاصيًا، يستحق العقاب![2].

ويعلق صاحب كتاب "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة" على محنة الإمام: "هنا تبرز قوة مالك، أقض مضاجع العباسيين الأُول، وقلقل ملكهم بكلمة، بفتوى، وقد كانوا أمضى قوة من ملوك الأرض زمنهم، هنا يظهر سلطان العلم والشرع في مالك، وأنه فوق عظم الخلافة والملك، ولولا أن الناس تخشى بطش السلطان وبأسه، لطُرد السلطان، وبقي العالِم!"[3].

٣ ـ قبول الإمام للمشاركة السياسية، (تولي وظائف الحكم والإدارة):

إن صاحب العلم الديني في النظام الإسلامي، ممثل الشعب، وصورة قوته التي تبلغ

(١) جمال الدين ابن نباتة المصري، "سرح العيون في شرح رسالة ابن خلدون، القاهرة، ط. ١٣٨٣هـ، ص ٢٦٢، و"المقدمة"، لابن خلدون، ط. دار العشب، د/ ت، ص ١٨٧، و"تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ١٣.

(٢) د/ أحمد العوضي، "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٧٧، ٧٧٨، و"الإمام مالك بن نس، إمام دار الهجرة"، ص ٣٦٩ـ ٣٧١.

(٣) عبد الغني الدقر، "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣٧٣.

صوته إلى الحاكم، وتبدي قوته لديه[١]، وقد كان الإمام مالك نعم العالم الذي حمل هموم أمته، وصدق في تبنيها.

إن العلماء يمثلون سلطة الشعب ـ راضين أو كارهين، منتبهين في وعي أو غير منتبهين؛ لأنهم لابد متحدثون عن الحقوق والواجبات، لكل من الحاكمين والمحكومين، وهم في هذا يفتون عند كل مناسبة.

لذا، كان لابد للفقيه والعلم من أن يكون له مكان في السياسية الراشدة، فيكون إيجابيًا فعَّالًا، بعلمه وعمله ومشاركاته.

وقد أيقن أبو جعفر المنصور أن مالكًا ناصح أمين، غير متطلع لشق عصا الطاعة، ومعارضة الجماعة، قدير على أداء ما يعهد إليه، لذلك عزم الخليفة على منح الإمام سلطة عامة رقابية ومحاسبية يخضع لها الناس جميعًا، في الحجاز، بما فيهم الولاة والقضاة[٢] فهو الرجل الأول في الحجاز بأسره، وقال له: إن رابك ريب في عامل المدينة أو عامل مكة، أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك، أو ذات غيرك، أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إليَّ بذلك، أنزل بهم ما يستحقون، وقد كتبتُ إلى عمالي بهذا أن يسمعوا ويطيعوا في كل ما تعهد إليهم، وأنت حقيق أن تطاع ويسمع منك"[٣].

بل أمر الرشيد والي المدينة بأن لا يقطع أمرًا دون مالك[٤].

وقد قبل الإمام ذلك المنصب السياسي العام والعالي الذي استحدثه أبو جعفر له، فتربع الإمام على قمة هرم الإدارة والحكم في الحجاز كلها، وأصبح نائبًا أول للخليفة في شئون الرقابة العامة والمحاسبة السياسية في تلك الولاية.

إن قبول مالك لتولي تلك الولاية يدل على استقرار منهج لديه، وهو منهج

(١) "مالك، تجارب حياة"، ص ٢٧٥، ص ٢٨٠/ ص ٣٠١ـ٣٠٣.

(٢) "منهج مالك بن أسن في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٧٨، ٧٧٩، و د/ الشكعة، "الإمام مالك.."، ص ٤٨، ٤٩.

(٣) انظر "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٢٠٩، مصدر سابق، و"الإمام مالك، إمام دار الهجرة"، ص ٣٤٦.

(٤) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٩، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص.

الإصلاح، عن طريق المشاركة السياسية التي يتمكن بها من تحقيق الإصلاح الذي ينشده، ويحقق بها من المصالح أعظم مما سيترتب على منهج العداء، ومخاصمة السلطة.

ولم تقتصر مشاركة مالك السياسية على تسلمه هذا المنصب الرقابي المحاسبي على الرعية ورجال الحكم والقضاء في الحجاز(١)، بل تسلم ـ أيضًا ـ منصب الإفتاء في المدينة، وأمر أبو جعفر أن يُنادَي: ألاَ، لا يفتي الناس في المدينة إلا مالك بن أنس، وابن أبي ذئب"(٢).

فاجتمع لمالك منصبان: سياسي وديني، مما جعله مهابًا، يحظى باحترام كبير من قبل أبي جعفر، فكان إذا دخل عليه لا يكاد يراه حتى يناديه: إلى ههنا يا أبا عبد الله، أنت حقيق بكل خير، وإكرام"(٣).

وأراد أبو جعفر المنصور توحيد الأمة على مذهب واحد في القضاء الاجتهادي وتأسيس سلطة تشريعية اجتهادية،، ووقع اختياره على الإمام مالك، لتكون آراءه مذهب الدولة، وسلطتها التشريعية، وأناط به صلاحيات، أشبه ما تكون بصلاحيات تقنين الأحكام التشريعية في الجانب القانوني(٤).

وقد أمره بوضع كتاب لهذا الشأن، ووعده بحمل الناس عليه، وعدم مخالفته، فرفض الإمام مالك، قائلًا: "أصلح الله أمير المؤمنين، إن أهل العراق لا يرضوْن علمنا، ولا يرون في عملهم رأينا!". فال أبو جعفر: يُحملون عليه، ونضرب عليه هاماتهم بالسيف، ونقطع طي ظهورهم بالسياط!".

وقد أبى الإمام ذلك كما تقدم!(٥).

---

(١) "منهج مالك بن أنس...."، مرجع سابق، ص ٧٧٩.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٩٢، والمرجع السابق، ص ٧٧٣، ٧٨٤.

(٣) د/ أحمد العوضي، "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٨٣.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١،ص ١٩٢.

(٥) "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٨٥.

إن الإمام يعلم كان أن مشاركته السياسية الإصلاحية قد تجلب له سوء ظن بعض طلابه به، وإيذاء شريحة من الناس لسمعته، بدعوى أنه مداهن للسلطان، ومن علماء الدنيا!. وقد حدث ذلك فعلًا، فسله ـ مستنكرًا ـ بعضهم: إن الناس يستكثرُون دخولك على الأمراء؟، فقال: إن ذلك بالحمل على نفسي، وذلك أنه ربما استشير من لا ينبغي"(١).

إن الإمام يعد مصلحته الخاصة ملغاة في جانب مصلحة الدين والأمة، فيرضى ويحمل نفسه على الدخول على المسئولين، لئلا يستفرد الفساق وأهل الفساد بهم، فيشيروا عليهم بكل ما هو ضار، ومفسد، ويتولون أمور الدولة لينفذوا خطط الفساد، فيتأصل ويتجذر، ويكون الهلاك والدمار للأمة(٢).

لقد كانت رعاية المصلحة ثابتًا من ثوابت فكره، خاصة في الجانب السياسي، كما رأينا في كل مواقفه، ومنهج الإمام مالك في الاستناد إلى المصلحة جدير بأن يترسمه القائمون على مدارس الفكر السياسي المعاصر، والأحزاب السياسية الإسلامية في مسألة المشاركة السياسية، والخطاب السياسي الإسلامي.

إنه ما أتى باب أمير إلا لمصلحة في الدين، إذ أنه يخشى أن يستشير الأمير من ليس أهلًا للمشورة، إما لهوان دينه عليه أو لجهله، إنه يريد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ سد هذه الثغرة.

ويبين الإمام ثمرة من ثمرات دخوله على السلاطين، فيقول: "لولا أني آتيهم ما رأيتُ للنبي ـ ﷺ ـ في هذه المدينة سنة معمولًا بها".

إن العلم بالسنة النبوية وهديها وجمالها، وتطبيق ذلك في الحياة أحد أهداف دخوله على السلاطين.

بل كان الإمام يرى أنه "حق على كل مسلم او رجل، جعل الله في صدره شيئًا من العلم والفقه أن يدخل إلى كل ذي سلطان، يأمره الخير، وينهاه عن الشر، ويعظه، حتى

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١١٢.

(٢) "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٨٥.

يتبين دخول العالم من غيره، لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك، فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل"[1].

إن الإمام يرى أنه إذا تغلب متغلب على المسلمين، ولم يكن في أول أمره قد تولى برضا وشورى الرعية، ولكن عدل وسكن الناس إلى حكمه، إذا حدث ذلك، فالإمام يرى أنه لا يصح الخروج عليه، وتجب طاعته، لأنه لا مطلب سوى العدل، وقد تحقق، واستقر ورضي الناس، وسكنوا.

أما عن كان هذا المتغلب ظالمًا، يغر عادل، فالإمام لا يجيز الخروج عليه، وعلى المحكومين الصبر والاجتهاد في تقويم هذا الظالم، وتذكيره ونصحه، وإزالة أو تقليل الظلم ما أمكن، مع وجوب الطاعة في الجهاد في سبيل الله.

هذه الرؤية تكونت لدى الإمام، لما وصل إيه من أخبار الفتن، وما عانته الأمة من الخروج على حكام عصره، وما تبع ذلك من فساد، واضطراب أمور، وتعطيل للشعائر الدينية، وتقوية عود الحاكم، وازدياد بطشه، لأن الانتصار يغريه بالاندفاع فيما كان عليه، ولا يرعوى عن طريقه.

إنه كان يرى الواقع وظروفه، ويقدر الأحداث والأحوال، ويعتبر بها، وينظر نظرة "تجمع إلى المثل الأعلى للحكم، النظر إلى الواقع الذي تستقيم عليه أمور الناس، ومصالح المسلمين"، لذا، أيقن أن "السكون خير من الخروج، والابتعاد عن الفتن خير من أن يخب فيها ويضع، وإرشاد من غير خروج قد يحمل الحاكم على الجادة، فيكون الصلاح من غير عبث وفساد، كما كان يفعل هو مع ولاة المدينة، والخلفاء"[2].

إن الإمام كان يوازي بين الشرين، شر الخروج والفتن، وشر طاعة الحاكم الظالم، مع رجاء العدل إن أسدي إليه النصح، فاختار الإمام الثاني، لأن شره أقل، ورجاء العدل

---

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١١٢، و"الإمام مالك، إمام دار الهجرة"، ص ٣٤٥.

(٢) الشيخ/ محمد أبو زهرة، "مالك، حياته، وعصره، آراءه وفقهه"، مرجع سابق، ص ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، و"دراسة بالإنترنت"، عنوانها "نظرية عدم الخروج على الحاكم في الإسلام، الإمام مالك نموذجًا".

محتمل، والحوادث التي عاينها، وأخبار ما لم يعاينه تؤيد رؤيته ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ[1].

إن الصبر الذي يدعو إليه الإمام ليس صبر المستكين الذي يرضى بالظلم ويستكين له، بل صبر الذي يبغي صلاح الناس، والتغيير إلى الأحسن[2].

إن من الدعاة ومن المدارس الفكرية، والتيارات السياسية من يتبنى منهج العنف في النقد، والقسوة في الخطاب السياسي، وذلك يجعل العلاقة بين العلماء والسلطة السياسية علاقة خصومة، مما يعطل إمكان التعاون بينهما، ويدفع السلطات السياسية إلى محاصرة نشاطات العلماء ومنعها من تحقيق أهدافها، وإضعاف دور العلماء على المستويين الرسمي والشعبي.

أما إذا تحرى العلماء منهج الاعتدال في نقد السلطة السياسية، فإن ذلك يؤدي إلى استجلاب التجاوب، واستيلاد التقارب، والتوصل إلى التعاون المثمر،والاحترام المتبادل بينهما.

وعلى الدعاة الذين يتوسلون إلى الإصلاح بالمشاركة السياسية أن يكونوا على يقين بتمكنهم من تنفيذ منهجهم الإصلاحي، وجعله واقعًا حيًا، يلمسه الناس، وإلا كانت مشاركتهم السياسية هزيلة الثمرة، وفقد الناس ثقتهم فيهم وفي دعوتهم![3].

ولم يكن الإمام يكتفي بالمخاطبة بالنصيحة للخلفاء والمسئولين، بل كان يكتب إليهم رسائل في الوعظ والنصح، حوت من جوامع الكلم، والمعاني السامية الصالحة لكل حين، يحتاج إليها كل المسئولين في بلاد المسلمين، وقد كتبها الإمام في أسلوب راق رفيع، يوضح بلاغة الإمام وفصاحته ومقدرته، ومن ذلك رسالته إلى بعض الخلفاء جاء فيها[4]:

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣، و"منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، وانظر "الطبقات الكبرى"، ج٧، ص ٥٧٣.

(٢) "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه"، ص ١٧٣.

(٣) د/ أحمد عبد الله العوضي، "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق، ص ٧٧٤.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١١٨، ١١٩.

"اعلم أن اللَّه ـ تعالى ـ قد خصَّك من موعظتي إياك بما نصحتك به قديمًا، وأتيتُ لك فيه ما أرجو أن يكون اللَّه ـ تعالى ـ جعله لك سعادة، وأمرًا جُعِل به سبيلك إلى الجنة، فلتكن ـ رحمنا اللَّه وإياك ـ فيما كتبته إليك، مع القيام بأمر اللَّه، وما استرعاك اللَّه من رعيته، فإنك المسئول عنهم صغيرهم وكبيرهم، وقد قال النبي ـ ﷺ ـ: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته"(١)، ويروى في بعض الحديث أنه: " يؤتى بالوالي ويده مغلولة إلى عنقه، فلا يفك عنه إلا العدل"(٢)، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: "واللَّه لو هلكت سخلة بشط الفرات ضياعًا لكنت أرى اللَّه ـ تعالى ـ سائلًا عنها عمر"، وحج عمر عشر سنين، وبلغني أنه ما كان ينفق في حج إلا اثني عشر دينارًا، وكان ينزل في ظل الشجرة، ويحمل على عنقه الدرة، ويدور في الأسواق يسأل عن أحوال من حضره، وغاب عنه. وقد بلغني أنه وقت أصيب حضر أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فأتوا عليه، فقال: "المغرور من غررتموه، لو أن ما على وجه الأرض ذهب لافتديت به من أهوال المطلع" فعمر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ كان مسددًا موفقًا، وشهد له النبي ـ ﷺ ـ بالجنة، ومع هذا خائف لما تقلد من أمور المسلمين، فكيف بمن قد علمت، فعليك بما يقربك إلى اللَّه، ويُنجيك منه غدًا، واحذر يومًا لا يُنجيك فيه إلا عملك، وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سلفك، وعليك بتقوى اللَّه، فقدمه حيث هممت، وتطلع فيما كتبت به إليك في أوقاتك كلها وخذ نفسك بتعاهده، والأخذ به والتأديب عليه، وأسأل اللَّه تعالى التوفيق والسداد إن شاء اللَّه تعالى".

وكتب إلى هارون الرشيد، كتابًا يعظه به(٣)، جاء فيه: "أما بعد: فإني كتبتُ إليك كتابًا لم آلُ فيه رشدًا، ولم أدخر فيه نصحًا، تحميدُ اللَّه وأدبُ رسول اللَّه ـ ﷺ ـ، فتدبر ذلك

(١) صحيح البخاري، دار كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م، ج٥، ص ١٩٨٨، تحقيق: د/ مصطفى البغا، جامعة دمشق.

(٢) لم أجده بلفظه، ووجدت معناه في أحاديث صحيحة، منها: "يؤتى بالوالي، فيوقف على الصراط، فيعثر به، حتى يزول كل عضو منه عن مكانه، فإن كان عادلاً مضى، وإن كان جائراً هوى في النار سبعين خريفاً"، انظر "جمع الجوامع"، أو "الجامع الكبير"، للسيوطي، ج١، ص ٢٥٧٤١.

(٣) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١١٧، ١١٨.

بعقلك، ورد فيه بصرك، وأرعه سمعك، واعقله بعقلك، وأحضره فهمك، ولا تغيبن عنه ذهنك فإن فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب الله ـ تعالى ـ في الآخرة، ذكر نفسك غمرات الموت وما هو نازل بك فيه، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله ـ تعالى ـ، ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، وأعد له ما تسهل به عليك أهوال تلك المشاهد وكربها، فإنك لو رأيت أهل سخط الله، وما صاروا إليه من أنواع العذاب وشدة نقمة الله، وسمعت زفيرهم في النار، وتنهيقهم من كلوح وجوههم، وطول غمهم، وتقلبهم في أدراكها على وجوههم، لا يسمعون ولا يبصرون، يدعون بالثبور، وأعظم من ذلك حسرة إعراض الله ـ تعالى ـ بوجهه، وانقطاع رجائهم من روحه، وإجابته إياهم بعد طول الغم: أن ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ ﴿المؤمنون: ١٠٨﴾، لم يتعاظمك شيء من الدنيا أردت به النجاة من ذلك، ولا آمنك من هوله، ولو قدمت في طلب النجاة جميع ما لأهل الدنيا كان ذلك صغيرًا، ولو رأيت أهل طاعة الله وما صاروا إليه من كرامة الله، ومنزلهم مع قربهم من الله ـ تعالى ـ، ونضرة وجوههم، ونور ألوانهم، وسرورهم بالنظر إليه والمكانة منه، والجاه عنده، مع قربه منهم ـ لتقلل في عينك عظيم ما طلبت به الدنيا، فاحذر على نفسك حذرًا غير قليل، وبادر إلى نفسك قبل أن تُسبق إليها، وما تخافُ الحسرة فيه عند نزول الموت، وخاصم نفسك لله ـ تعالى ـ على مهل، وأنت تقدر بإذن الله ـ تعالى ـ على جر المنفعة، وصرف الحجة عنها قبل أن يوليك الله حسابها، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها، ولا جر المنفعة إليها، اجعل لله من نفسك نصيبها بالليل والنهار، إن عمرك ينقص مع ساعات الليل وأنت قائم على الأرض يسار بك، كلما مضت ساعة من أجلك، والحفظة لا يغفلون عن الدق والجل من عملك حتى تملأ صحيفتك التي كتب الله عليك.

فعليك بخلاص نفسك إن كنت لها محبًا، فاحذر ما قد حذرك الله ـ تعالى ـ منه، فإنه يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ ﴿آل عمران: ٢٨﴾، ولا تحقر الذنب الصغير مع ما علمت من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ ﴿الزلزلة: ٧، ٨﴾، وقال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ﴿ق: ١٨﴾، وحافِظ على فرائض الله واجتنب سخط الله، واحذر دعوة المظلوم، واتق يومًا ترجع فيه إلى الله، والسلام"(١).

إن الناس ـ عامة ـ، والحاكم ـ خاصة ـ محتاجون ـ دائمً ـ إلى التذكير بالموت والحساب، والعرض على الله، عاريًا من كل قوة، خاليًا من نفوذ، لا يحميه جاه أو سلطان هذا التذكير يقيه من ظلم الناس وقتلهم، ونهب المال، وتصيير العمران خرابًا، وإشاعة الفتن في المجتمعات،... إلى غير ذلك مما يفعله الحاكم الغاشم المستبد، ـ وقد رأينا في مصر وغيرها كوارث المستبدين ـ.

ورسائل الإمام تظل نبراسًا وأنموذجًا هاديًا، لكن ما يمكن أن يوجه إلى الحاكم من وعظ ونصح(٢).

وهكذا كان الإمام مالك أستاذًا جليلًا للخلفاء والأمراء، لم يكن من شأنه إثارة الفتن عليهم، أو محاولة خلعهم، لأنهم مسلمون، ولكنهم مقصرون، قد أذهلهم الحكم عن مصالح الناس، فهو لذلك كان ما يزال يعظهم، وهم متقبلون صراحته في نهيهم عما حرم الله، ودعوتهم بقوة إلى ما أمر الله، لم يستطع أحد أن يشتري سكوته عن قولة الحق مهما يبلغ الثمن.

ولقد كان يغضبُ من أولئك الذين يبيعون دينهم وشرفهم بعرض من الدنيا قليل، فيتملقون كاذبين، ويبالغون في مدح من ليس أهلًا للمدح، أو في مدح من غضب الله عليه(٣).

وكان لعظم شأنه عند الولاة ما كانوا يقيمون الحد على من يستحقه إلا باستشارته وأخذ رأيه، وأحيانًا يعرض عليه أهل السجن ويذكر له ذنوبهم، فمن استحق الحد أمر

(١) "ترتيب المدارك...، ج١، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك..."، ص ٥٦، ٥٧.

(٣) عبد الغني الدقر، "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ٣٥٠.

بحده، وفي ذلك قال حفص بن غياث: "كان مالك يجلس عند الوالي فيعرض عليه أهل السجن، فقول: اقطع هذا واضرب هذا مائة، وهذا مائتين، واصلب هذا، كأنه أنزل عليه كتاب" .

وقال أشهب: "دعا بعض الأمراء مالكًا يستشيره في شيء، فدخل عليه وأشار بقطع قوم، وقتل قوم، وخرج علينا وهو يبتسم ويقرأ: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ﴿البقرة: ١٧٩﴾.(١).

وقال البهلول بن عبيدة: كنت عند مالك، فأتي برجل مُلبَّب فقالوا: الأمير يقرئك السلام ويقول لك: هذا خنق رجلًا فقتله، قال مالك: "اخنقوه حتى يموت كما فعل به"، وركبت مالك صفرة وتخوف، حتى مد به بصره فأخبروه أنهم خنقوه، فرجع إلى وجهه الدم.

فسأل ابن كنانة مالكًا عن ذلك، فقال مالك: أظننتم أني ندمت؟، لكني خفت أن يُبطل حكم من أحكام الله تعالى"(٢).

وقال عبد الجبار بن عمر: حضرتُ مالكًا، وقد أحضره الوالي في جماعة من أهل العلم، فسألهم عن رجل عدى على أخيه، حتى إذا أدركه دفعه في بئر، وأبوا الغلامين حاضران، فقال جماعة من أهل العلم: الخيار للأبوين في العفو أو القصاص، فقال مالك: "أرى أن تضرب عنقه الساعة"، فقال الأبوان: يقتل ابن بالأمس، ونفجع بالآخر اليوم، نحن أولياء الدم وقد عفونا.

فال الوالي: يا أبا عبد الله ليس ثم طالب غيرهما وقد عفوا، فقال مالك: "والله الذي لا إله إلا هو لا تكلمت في العلم أبدًا أو تضرب عنقه"، وسكت، وكلم فلم يتكلم، فارتجت المدينة وصاح الناس: إذا سكت مالك، فمن يُسأل، ومن يُجيب؟. وكثر اللغط، وقالوا: "لا أحد بمصر من الأمصار مثله، ولا يقوم مقامه في العلم والفضل"، فما رأى الوالي

(١) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٥.

عزمه على السكوت قدم الغلام فضربت عنقه، فلما سقط رأسه التفت مالك إلى من حضر وقال: إنما قتلته بالحرابة[1]. حين أخذ ثوب أخيه، ولم أقتله قودًا إذ عفا أبواه"، فانصرف الناس وقد طابت نفوسهم حين رأوه بر في يمينه[2].

٤ ـ رعاية الإمام للمآلات، وأهميـــة ذلك

إن الإمام كان يتميز ببعد النظر، واستحضار مآلات الأفعال، وعواقب الأمور، ومما يدل على ذلك أمور، منها:

أ ـ صحة اجتهاده في فشل الخروج على الحكام بالسلاح، وقد قضى على هذه الثورات وعلى قائديها، إلى جانب أضرار عديدة تلحق بالدعوة والمجتمع، منها:

١ ـ تشديد الرقابة على الأمة بوجه عام، وعلى العلماء بوجه خاص، فأصبحت السلطة الحاكمة ترصد نشاطات العلماء، وأصحاب الفكر، وتصنفهم إلى محايدين، وموالين وأعداء.

٢ ـ إحكام السلطة الحاكمة قبضتها على الحكم، وقمع مخالفيها، والتضييق عليهم ومواجهتهم بالاعتقال والحبس، أو الإعدام.

إنه كان يكره ظلم الولاة، ويقاومه ما استطاع، لكنه لا يرى الثورة المسلحة عليهم، لذا رأى ضرورة طاعة أئمة الجور للضرورة، لرجحان مفاسد الخروج المسلح على مصلحته[3] وطالب بالجهاد مع هؤلاء الولاة، ضد الروم، لأن ترك الجهاد معهم ضرر كبير على أهل الإسلام[4].

وقد كان الإمام مالك واعيًا بهذا الفقه، ومطبقًا له، وداعيًا لمراعاته، نجد هذا في موقفه

---

(١) الحرابة هي: سرقة المال بشهر السلاح أو القتل، وجزاء الحرابة: القتل والصلب أو القتل وحده.

(٢) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٩٥.

(٣) "منهج مالك بن أسن في العمل السياسي، مرجع سابق، د/ أحمد العوضي، ص ٧٠٠ـ ٧٠٥.

(٤) الإمام الطبري، "تاريخ الأمم والملوك"، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج٧، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٦، و"المدونة الكبرى، ومعها مقدمات ابن رشد"، ج١، دار الفكر، ١٤٠٦هـ، ص ٣٦٩.

مع الحجاج بن يوسف،حين هدم الكعبة في عهد عبد الله بن الزبير[١]، ـ رضي الله عنهما ـ، لما تولى على مكة، فأعادها ابن الزبير على قواعد إبراهيم، ـ عليه السلام ـ، فلما قتل ابن الزبير وتولى الحجاج[٢] هدمها، وأعادها، كما كانت قبل فعل ابن الزبير.

ثم سمع الخليفة هارون الرشيد، من الإمام مالك حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها: "يا عائشة، لولا أن قومك حديث عهدهم بجاهلية، لأمرتُ بالبيت فهُدم، فأدخلتُ فيه ما أخرج منه، وألزقتُه بالأرض، وجعلتُ له بابين، بابًا شرقيًا، وبابًا غربيًا، فبلغتُ به أساس إبراهيم"[٣] فهم الخليفة إعادة بناء الكعبة مرة أخرى على قواعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فقال له الإمام مالك: "ناشدتك الله يا أمير المؤمنين، أن تجعل هذا البيت ملعبةً للملوك، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناه، فتذهب هيبتُه من صدور الناس"[٤].

وقد هم المنصور ابن المهدي أن يعيدها على ما بناها ابن الزبير، ولما استشار الإمام مالك، رد عليه بمثل رده على الرشيد، فقبل نصيحته[٥].

أي: فيكون كلما جاء حاكم جديد رأى أنه لابد أن يغير سنة من قبله، ليثبت للناس

---

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام، أبو عبد الله، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ولد عام الهجرة، حفظ عن النبي وهو صغير، وحدث عنه جملة من الحديث، وعن أبيه وغيره من الصحابة، أحد العبادلة الأربعة، شهد له اليرموك وفتح أفريقية، بويع له بالخلافة عام ٦٤هـ، عقب موت يزيد بن معاوية، استشهد ـ رحمه الله ـ عام ٧٤هـ، في قتاله للحجاج بن يوسف انظر "شجر النور الزكية في طبقات المالكية.."، ج٢، ص ٩٤.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي: كان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وبلاغة، مع ظلم كبير وسفك للدماء، أثيم، وكما يقول صاحب "سير أعلام النبلاء": له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجمل، وله نظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء..، مات عام ٩٥هـ، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٣٧٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٥٨٦.

(٤) انظر "تفسير القرطبي، ج٢، ص ١٢٥،و"الموافقات"، للإمام الشاطبي،ج٤، ص ١٣، و"البداية والنهاية"، ج١، ص ١٩١.

(٥) "البداية والنهاية"، ج ٨، ص ٢٧٥.

أنه جدَّد وأصلح، وغيَّر وبدل، فلذلك سد الإمام مالك الطرق على هذا التلاعب، ورأى أن تبقى الكعبة كما كانت أيام النبي ﷺ، ولو كان أحد غير مالك لوجدها فرصة ذهبية أن ينصاع قلب الخليفة لتنفيذ سنة، وجعل الأمنية النبوية في موضع الفعل والتنفيذ(١).

إنه بُعد النظر، والتدبر في العواقب، والانعتاق من سلطة نص خاص في المسألة إلى نصوص أوسع وأبعد في حفظ أصول الإسلام العظام، وصيانتها عن تلاعب السياسة ومطامحها.

وقد دفع وعي الإمام، بمآلات الأمور إلى عدم التعرض لأحكام القضاة وشئونهم بنقد أو تمحيص، وكان عندما يُسأل عن أمر يتعلق بالقضاة يرفض ويقول: "هذا من متاع السلطان" (أي أمر يخصه!).

وكانت هناك دوافع حكيمة وراء رؤية الإمام هذه، هي أن التعرض لأحكام القضاة بالنقد على ملأ من التلاميذ والأصحاب يجرئ الناس على عصيانها، أو على الأقل يذهب بما تستحق من مهابة وإجلال، لتجتث المنازعات من جذورها، ولكيلا تفتح على الناس باب الطعن في الأحكام، بالحق والباطل.

ومع ذلك كان الإمام إذا استشير أشار، وإن استُفتي من قبل السلطان أفتى.

وقد حبذ وارتضى الشيخ أبو زهرة رؤية الإمام مالك، لما فيه من تحقيق مصالح ضرورية يحتاجها مجتمعنا(٢).

٥ ـ جهـــره بالحق ونصحه لأولي الأمر

ـ كان الإمام دائم الوعظ والنصح للملوك والسلاطين كلما دخل عليهم، ولما سئل الإمام: إنك تدخل على السلطان، وهم يظلمون ويجورون؟ رد الإمام على السائل مبينًا سبب دخوله" رحمك الله، فأين التكلم بالحق؟!"(٣). وذات يوم دخل على هارون

(١) "مع الأئمة"، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) "مالك، حياته وعصره..."، ص ٨٦، ٨٧.

(٣) "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣١٦، و"مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٨٠.

الرشيد، فقال له يحثه على رعاية مصالح المسلمين: لقد بلغني أن عمر بن الخطاب، ـ ﷺ ـ كان في فضله وقدره، ينفخ لهم عام الرمادة النار تحت القدور، ويخرج الدخان من لحيته، وقد رضي الناس منكم بدون هذا!"(١).

ولما ارتفع التكبير والتهليل في طرقات المدينة المنورة لمجيء العيد، وجاء والي المدينة عبد الملك بن صالح لصلاة العيد في أبهة، محاطًا بالسلاح والجند والرايات، قال مالك ـ غاضبًا ـ: إنا لله، وإنا إليه راجعون، ما هكذا كان النبي ـ ﷺ ـ والخلفاء يفعلون.

فبلغ ذلك أمير المدينة، فأتى للإمام في المصلى سائلًا: يا أبا عبد الله، ما الذي أنكرتَ علينا؟!.

فقال الإمام: ما رأيتُ معك، إنما أتى الناس الصلاة خاشعين، يرجون المغفرة، ولقد أخبرني يحيى بن سعيد أن النبي ـ ﷺ ـ دخل عام الفتح مكة في عشرة آلاف، أو اثنى عشر ألفًا، منكس الرأس، وهو يقول: "الملك لله، الواحد القهار"، وكان ـ ﷺ ـ يأتي المصلىَّ للعيدين والاستسقاء، متوكئًا على عصًا، أو قوس، منكسًا رأسه، خاشعًا"، لقد أعطى مالك الوالي درسًا مستمدًا من سيرة الرسول ـ ﷺ ـ، فأصيب عبد الملك بالخجل والحياء من قول الإمام مالك، ووعى الدرس جيدًا، ولم يعد إلى صنيعه مرة أخرى طول ولايته بالمدينة(٢).

وذات مرة استفتى والي المدينة الإمام مالكًا في مسألة، فأبى أن يجيبه، وقال له: "كيف أجيبك، وقد وليتَ على المسلمين خيثم بن عراك؟!" (وال ظالم).

هنا تأثر الوالي بقول الإمام مالك، فعزل خيثم ابن عراك، فأفتاه مالك!(٣).

رفض الإمام نقض منبر رسول الله ـ ﷺ ـ

لما أراد بعض الخلفاء رفض الإمام نقض منبر رسول الله ـ ﷺ ـ واستشار إمام دار

(١) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١١٣.
(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١١٦.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص ١٢٠.

الهجرة، مالكًا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، رفض الإمام مالك، فغضب الخليفة وقال: قد زاد فيه معاوية![1].

فقال مالك ناصحًا: "إن المنبر إذ ذاك كان صلبًا، فلست آمن إن نقضته وكسرته أن تذهب البركة منه، ويتشاءم الناس منك، ويقولون: زال على يده آثر من آثار رسول الله ﷺ".

فأعجب الخليفة برأيه وأثنى على الإمام قائلًا: "أحسن الله جزاءك" وترك ما نواه من كسر منبر رسول الله، ونقضه![2].

الإمام يرفض التمثيل بالقتيل ـ قصاصًا ـ:

لما أُتي برجل ارتكب ما يوجب قتله وأفتى الإمام بقتله، قال الوالي: اضربوا وسطه فتأهب الإمام للقيام وقال ـ غاضبًا ـ: لا أقعد بمكان يمثل فيه بأحد، وقال تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ﴿محمد: ٤﴾، فقال الوالي: اقعد يا أبا عبد الله!، ثم قال لجنوده: لا تضربوا وسطه، اضربوا عنقه![3].

ـ كان مالك يتشدد كل التشدد فيما كان له بالدين صلة، إذا حاول هذا الخليفة أو ذاك أن يحدث بدعة، أو يعطل حكمًا دينيًا،أو يمنع إشاعة علم نافع،أو التحديث بحدث صحيح.

لذا عندما طالب رسول هارون الرشيد من الإمام مالك ألا يحدث الناس بحديث الصحابي الجليل معاوية ابن أبي سفيان في السفرجَل (شجر مثمر)، حتى لا يؤدي التحديث به إلى رفع قدر معاوية وحب الناس له، وهو رأس بني أمية، لأن الحديث يبشر معاوية بالجنة، عندما حدث ذلك رفع الإمام صوته بآية تأمر ببذل العلم لا بكتمانه، وهي

(١) معاوية بن أبي سفيان، واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو عبد الرحمن، أسلم زمن الحديبية، روى أحاديث عن النبي ـ ﷺ ـ، وروى عنه كثير من التابعين، وهو أحد كتاب الوحي، ولي الخلافة ٢٠ عامًا، توفى في رجب عام ٦٠هـ، عن ٨٢ سنة، وقيل غير ذلك. انظر "تهذيب الكمال"، ج١، ص ٣٤١، و"سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ١١٥ ـ ١٥٦.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١١٧.

(٣) "المرجع السابق"، ج١، ص ١٢٠.

قوله ـ تعالى ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ ﴿البقرة: ١٥٩﴾.

ثم قال: والله لأخبرن بها، واندفع قائلًا: حدثنا نافع عن ابن عمر قال: كنتُ عند رسول الله ـ ﷺ ـ فأهدي إليه سفرجل، فأعطى أصحابه وحدة واحدة، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات، وقال: القني بهن في الجنة"(١).

ـ ومرة كان الإمام في مجلس أبي جعفر المنصور، فعطس أبو جعفر، فشمته مالك قائلًا: يرحمك الله، فلما خرج الإمام مالك أنكر عليه الحاجب تشميته للخليفة، وهدده إن عاد لتشميته مرة ثانية!، لأنه لم تكن عادات التعامل مع الخلفاء تسمح بذلك.

ـ وذاك يوم جلس الإمام إلى جوار أبي جعفر، فعطس الخليفة، فنظر الإمام مالك للحاجب الذي لم يكن يريد تشميت مالك لأبي جعفر، ثم قال للخليفة: أي حكم تريد يا أمير المؤمنين، أحكم الله أم حكم الشيطان؟!.

قال أبو جعفر: لا بل حكم الله، فقال الإمام مالك: يرحمك الله!!(٢).

ـ وقال مرة لبعض الولاة: "تفقد أمور الرعية، فإنك مسئول عنهم، فإن عمر بن الخطاب قال: والذي نفسي بيده، لو هلك جمل بشاطئ الفرات، ضياعًا، لظننتُ أن الله يسألني عنه يوم القيامة"(٣).

ـ ونصح الخليفة المهدي برعاية أهل المدينة والعطف عليهم والسلام عليهم، وأداء حقوقهم إليهم، فقال له: "فسلم عليهم فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة، ولا بلد خير من المدينة". وعلل قوله بـ "لأنه لا يعرف قبر نبي على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ،ومن كان قبر محمد ـ ﷺ ـ عندهم ينبغي أن يعلم فضلهم على غيرهم.."، وتابع قائلًا: "أوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله ـ ﷺ

(١) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١١٢، و"الديباج المذهب..."، لابن فرحون، ص ٢٤.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١١٢، و د/ الشكعة، "الإمام مالك"، ص ٤٨.

(٣) "المرجع السابق"، ج١، ص ١١٩.

ـ، وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: المدينة مهاجرى، وبها قبري، وبها مبعثي، وأهلها جيراني، وحقيق على أمتي حفظي في جيراني، فمن حفظهم كنتُ له شهيدًا وشفيعًا يوم القيامة، ومن لم يحفظ وصيتي في جيراني سقاه الله من طينة الخبال".

وبناء على هذه الوصية أمر المهدي بعطاء كبير لأهل المدينة، وطاف بنفسه على دور المدينة، ولما أراد الخروج من المدينة دخل عليه مالك، فقال له المهدي: إني محتفظ بوصيتك التي حدثتني بها، ولئن سلمتُ لا غفلتُ عنهم"(١).

وفي رواية أن الإمام قال للمهدي: "يا أمير المؤمنين إن لأهل المدينة حقًا، فاستوص بهم خيرًا"، فسأله: وما حقهم؟. قال الإمام: "هل تعلم أنه يعرف على وجه الأرض قبر نبي، غير نبيك محمد ـ ﷺ ـ"، قال المهدي: لا، قال الإمام: "لو أن أهل المدينة خرجوا عنها وجب عليك أن تجئ بمن يسكنها، ويجاور قبره وتجرى عليه الرزق؟!" فرد المهدي: لو لم أملك من الدنيا إلا ردائي هذا لواسيتُهم به!(٢).

إن الإمام كلما استمسك بأهداب السنة ازدادا احترامًا في أعين الخلفاء، وكلما وضع نفسه في مكانها اللائق بها من الترفع والبعد عن التهافت والترخص، كان ذلك أدعى إلى مزيد من الإجلال.

ـ ومن وصايا الإمام مالك لوال من ولاة المدينة، دعوته له للشورى، والانتفاع بأخذ الآراء من ذوي العقول الراجحة، فقال له له: "إذا عرض لك أمر فاتئد، وعايرْ على نظرك بنظر غيرك، فإن العيار يُذهب عيب الرأي، كما تُظهر النار عيب الذهب"(٣).

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٧٧، و"الإمام مالك، إمام دار الهجرة"، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) "ترتيب المدارك...."، ج١، ص ١٢٠.

(٣) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، لعيسى الزواوي، ص ٧٩، والعلامة الشيخ/ محمد أبو زهرة، "مالك، حياته وعصره، آراءه وفقهه".

مواقف أخرى للإمام مع الولاة

لما قدم الخليفة المهدي إلى المدينة المنورة بعث للإمام مالك بألفي دينار، أو بثلاثة آلاف دينار مع الربيع(١)، أمر الإمام جاريته قائلًا: "يا جارية، لا تمسي هذا المال، فإني قد تفرستُ حين نظرتُ وجه الربيع، ورأيتُ فيه أمرًا منكرًا، ولهذا المال سبب!".

فلما حج المهدي وقدم إلى المدينة المنورة أتاه الربيع بعد ذلك، وقال له: "أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويحب أن تعادله (تسافر إليه)، إلى مدينة السلام!".

كان رد الإمام على الربيع عظيمًا معلِّمًا: أقرئ أمير المؤمنين السلام، وقل له: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: "والمدينة خير لهم، لو كانوا يعلمون"، والمال عندي على حاله"، ثم صاح بالجارية: أخرجي المال. فأبى الربيع قبول المال، وظل الإمام به حتى أخذ المال!.

فلما أتى الربيع إلى الخليفة المهدي غمَّه برد مالك للمال، وعندما كان وقت رحيل الخليفة ودعه الناس فوصلهم، وممن ودّعه الإمام مالك، فأعطاه الخليفة ستة آلاف دينار فالتفت الإمام إلى من حوله من الحاضرين معلمًا لهم: من ترك شيئًا لله، عوَّضه الله خيرًا مما ترك!"(٢) ونفس الموقف حدث مع هارون الرشيد(٣).

ـ لقد رزق الله الإمام بأساتذة وعلماء مربين، منهم شيخه ابن هرمز، الذي راعاه بحب، ورشد، ومن أهم نصائحه التربوية له ولعبد العزيز بن أبي سلمة(٤)، قوله لهما: "إذا دخلتما على السلطان، فكونا آخر من يتكلم!".

---

(١) الربيع بين يونس، أبو الفضل الأموي، الوزير، الحاجب الكبير، الأموي، كان حاجبًا للمنصور، ثم وزيراً له، من نبلاء الرجال وفضلائهم، توفى سنة ١٦٩هـ، وقيل عام ١٧٠هـ، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١٣، ص ٣٨٠.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١١٤، و"ترتيب الممالك..."، للسيوطي، ص ١٢.

(٣) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٩.

(٤) هو عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، التيمي، المدني، أبو عبد الله، فقيه، من حفاظ الحديث الثقات، كان عاقلاً وقوراً، أصله من أصبهان، نزل المدينة، ثم قصد بغداد فتوفى بها، توفى عام ١٦٤هـ، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٤، ص ٢٢.

ـ وقد نفذ الإمام وصية أستاذه، فحين دخل على الأمير مع ابن أبي ذئب[1] وباقة من علماء المدينة، فاستفتاهم الأمير في رجل أقر على نفسه بالقتل عمدًا، فقال العلماء: يُقتل، إلا أن يعفو الأولياء!.

وظل الإمام ساكتًا، لم يتكلم بكلمة واحدة، فسأله الأمير عن رأيه، فال مالك: هو القتل، حتى أنظر!.

فقال العلماء في حدة: ما تنظر؟، رجل أقر أنه قتل عمدًا، أي شيء هذا؟!.

فقال مالك بصوت وقور: أين القاتل المقِر؟. فجاءوا بالقاتل، وإذا به غلام صغير، لم يتجاوز الحُلم إلا بأيام!.

فقال له مالك: منذ كم حُبستَ؟، قال: منذ كذا وكذا.

فوجد حبسه وإقراره، قبل أن يبلغ ويحتلم، فأطلق سراحه![2].

لقد كان للإمام مالك شأن كبير عند الأمراء والخلفاء والملوك، ويكفي دليلًا على ذلك حمله الخليفة هارون الرشيد، ـ وكان ملك الدنيا، على أن يجلس أمامه مع الناس، ليسمع حديث رسول الله ـ ﷺ ـ، وهارون هو أحد رواة الموطأ[3].

ومن الوقائع الدالة على تأثيره البارز على كبار الحكام، موقفه حين غضب الأمير هشام[4]، على خادم له، ـ وكان الأمير جبارًا مهيبًا ـ، وأمر بقطع يده، فقال له زياد بن عبد

---

(١) ابن أبي ذئب: هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة، الحارث بن أبي ذئب، من بني عامر بن لؤي، من قريش، أبو الحارث، تابعين من رواة الحديث، كان يفتي بالمدينة، ويشبَّه بسعيد بن المسيب، من أورع الناس، وأفضلهم في عصره، كان يجهر بالحق في وجه السلاطين والظالمين. توفى ـ رحمه ـ عام ١٥٨هـ، عن ثمان وسبعين سنة، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٦، ص ١٨٩.

(٢) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٥٣، و ١٢٦.

(٣) عبد الغني الدقر، "الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة"، ص ١٢.

(٤) هشام بن عبد الملك، ابن مروان، الخليفة، أبو الوليد، القرشي، الأموي، الدمشقي، ولد بعد السبعين، واستخلف بعهد من أخيه يزيد، ثم من بعده لولد يزيد وهو الوليد، تولى الخلافة عام ١٠٥هـ، ومات وله أربع وخمسون سنة، كان عاقلاً حازمـًا، فيه ظلم مع عدل. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٥، ص ٣٥١ ـ ٣٥٣.

الرحمن ـ الملقب بشبطون[1] ـ: أصلح الله الأمير، فإن مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه أن "من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمنًا وإيمانًا يوم القيامة"[2]، فأمر الحكم بالعفو عن الخادم، وسكن غضبه، وقال للعالم زياد عبد الرحمن:آللَّه، إن مالكًا حدثك بهذا؟ فقال زياد: آللَّه إن مالكًا حدثني بهذا[3].

ـ كانت الخلفاء تقتدي بعلمه، والأمراء تستضئ برأيه، والعامة منقادة إلى قوله، وكان يأمر فيمتثل أمره بغير سلطان، ويقول فلا يُسأل عن دليل قوله، ولا يُطلب ببرهان، ويأبي الجواب، فلا يجترئ على مراجعته إنسان.

وكانت الملوك تسأله أن يراسلهم فلا يرضى بذلك، وتعرض عليه أن يتولى منصب القضاء، فيعرض عن ذلك. وكانوا مع ذلك يسألونه، ويتعلمون منه ويأتونه، ويجلسون إليه ويمتثلون بين يديه، ويأمرون نوابهم باستشارته، ولا يقضي أمر دون مشورته"[4].

ـ وللإمام موقف قوي مع أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، الذي وصله أن العلماء يطعنون عليه، ويتكلمون فيه، فبعث ليلًا إلى الإمام مالك، فأتاه خائفًا، ودخل إليه بين صفوف الرجال، معتدين بالسلاح، قائمين عن يمينه وعن يساره، حتى خلص إلى أبي جعفر، فوجده جالسًا، ليس معه غيره، قال الإمام: فجعل يدنيني، حتى جلستُ قريبًا منه، ثم استدناني حتى مست ركبتي ركبته، قال: ما هذا الذي يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء، وأنتم أحق الناس بالطاعة، وأعرفهم بما يلزم من حق الأئمة؟.

---

(١) ابن شبطون: زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن نشارة، اللخمي، أبو عبد الله، القرطبي، الملقلب بـ "شبطون"، سمع من مالك الموطأ، وله عنه في الفتاوى كتاب سماع، معروف بسماع زيد، كان يسمى فقيه الأندلس، ورع زاهد، ثقة، توفى عام ١٩٩هـ، وقيل غير ذلك، ـ رحمه الله ـ. انظر "ترتيب المدارك"، ج٣، ص ١١٦ ـ ١٢٢، و"شجرة النور الزكية"، ج١، ص ٦٣.

(٢) رواه أبو هريرة في "الضعفاء الكبير"، للعقيلي، ج٣، ص ١٠٣، وقد حكم بصحته، وانظر "جمع الجوامع"، أو "الجامع الكبير"، للسيوطي،ج١،ص ٢٤٣٨٠، وروى بألفاظ أخرى في "صحيح الترغيب"، وسنن الترمذي وغيرهما.

(٣) "ترتيب المدارك...."، ج٣، ص ١١٩، بتصرف يسير، والمرجع السابق، ص ١١، ١٢.

(٤) "مناقب سيدنا الإمام مالك..."، للزواوي، ص ٧٤.

فرد الإمام: يا أمير المؤمنين، إن الله ـ تعالى ـ يقول في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ﴿الحجرات: ٦﴾، وجرى بينهما كلام ومذاكرة، وذكر له الإمام مالك أنه خاف القتل على نفسه لما بعث إليه أبو جعفر ليلًا وطلبه، فرد أبو جعفر: حاشا لله يا أبا عبد الله، أن أثلم ركنًا للمسلمين، فإن لم أكن بالذي أبنيه، لهم، فلستُ بهادمه لهم".

وعرض عليه أبو جعفر الذهاب معه إلى دار السلام، (بغداد، مقر الخلافة)، ووعده بألا يقدم أحدًا عليه، فرد الإمام: إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته وإن تكن غير ذلك فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: "والمدينة خير لهم، لو كانوا يعلمون"، فقال له المنصور: فلا أحمل عليك شيئًا تكرهه".

ولما انصرف الإمام، بعد لقائه بأبي جعفر، كافأه الخليفة بمبلغ كبير، فلما خرج سأل أحد أولاد المنصور أباه: "أتدني رجلًا من رعيتك حتى يجلس منك هذا المجلس؟".

فقال له المنصور: يا بُني، والله ما على وجه الأرض اليوم رجل يستحيا منه إلا مالك ابن أنس، وسفيان الثوري!.

وقال الإمام عن اللقاء: "وجدت المنصور أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ـ ﷺ ـ، وآثار من مضى"(١).

ولما قدم هارون الرشيد إلى المدينة وجه وزيره البرمكي إلى مالك، قائلًا له: احمل إليَّ الكتاب الذي صنفته حتى أسمعه منك!. فرد الإمام: أقرئ الخليفة السلام، وقل له: "إن العلم يُزار، ولا يزور، وإن العلم يُؤتَى ولا يأتي"!، فرجع البرمكي إلى هارون، منكرًا، غاضبًا: "يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق، أنك وَجَّهْتَ إلى مالك في أمر، فخالفك!، اعزم عليه حتى يأتيك".

فاستجاب الإمام لأمر هارون، فذهب إليه ودخل عليه وليس معه كتاب، وأتاه مسلِّمًا فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله جعلك في هذا الموضع بعلمك، فلا تكن أنت أول من

(١) "مناقب سيدنا الإمام مالك"،للزواوي، ص٧٤، ٧٥.

يضع العلم فيضعك الله، ولقد رأيتَ من ليس هو في حسبك ولا في أبهتك يعز هذا العلم، ويجله، فأنت أحرى أن تجل وتعز علم ابن عمك"، ولم يزل يعدد عليه في ذلك،حتى بكى هارون(١).

وهناك موقف آخر مع هارون الرشيد، حين أرسل للإمام يدعوه إليه، ليسمع منه "الموطأ"، فلم يأته، فقال أبو يوسف للرشيد: يبلغ أهل العراق أنك بعثت إلى مالك، فلم يأتك، ابعث إليه من يأتيك به كرهًا، أو نحو هذا، فبعث إليه الرشيد مرة ثانية، فأتاه مالك، فقال له الرشيد: "يا ابن أبي عامر، أبعث إليك فتخالفني؟!". فرد الإمام بحكمة وعزة: يا أمير المؤمنين، أخبرني الزهري عن خارجة(٢) بين زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: كنت أكتب الوحي بين يدي النبي ـ ﷺ ـ، فنزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿النساء: ٩٥﴾، وابن أم مكتوم(٣) عند النبي ـ ﷺ ـ، قال: يا رسول الله، إني رجل ضرير، وقد أنزل الله ـ تعالى ـ في فضل الجهاد ما قد علمت فهل من رخصة؟. فقال النبي ـ ﷺ ـ: لا أدري، وقلمي رطب ما جف، حتى وقع فخذ النبي ـ ﷺ ـ على فخذي، ثم أغمي عليه، ثم جلس ـ ﷺ ـ، فال: يا زيد، اكتب: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ ﴿النساء: ٩٥﴾.

يا أمير المؤمنين، هذا حرف واحد بُعث به جبريل والملائكة من مسيرة خمسمائة عام، ألا ينبغي أن أُعزه وأُجله؛ إن الله ـ تعالى ـ رفعك وجعلك في هذا الموضع بعلمك، فلا تكن أول من يضع عز العلم، فيضع الله عزك".

فرد الرشيد، ـ بتواضع ـ: "تأتينا حتى نتعلم منك ونسمع منك"، قال الإمام:

---

(١) المرجع السابق، للزواوي، ص ٤٢، ٤٣، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٦، ٧٧.

(٢) خارجة بن زيد بن ثابت، الأنصاري، من بني النجار، أحد الفقهاء السبعة في المدينة، تابعي جليل، توفى بالمدينة عام ٩٩هـ، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٢، ص ٢٩٣.

(٣) ابن أم مكتوم، القرشي العامري، هو عبد الله بن قيس، بن زائدة بن الأصم بن رواحة، من السابقين المهاجرين، مؤذن رسول الله ـ ﷺ ـ، استخلفه النبي، على المدينة، يؤم الناس في غزوة تبوك، وغيرها، شهد القادسية، وكان يحمل راية الجيش، ويقال استشهد يومها، دفن بالمدينة المنورة، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٣١٣ـ٣١٧.

"أصلحك الله، إن العلم يؤتي ولا يأتي!"، قال هارون: "قم بنا إلى منزلك"(١).

ـ فذهبوا إلى منزل مالك فطلب الرشيد من الإمام صرف الطلاب والتدريس له وحده فأبى الإمام قائلًا: "إذا مُنع العلم من العامة لم ينفع الله به الخاصة ولا العامة"، فطلب الرشيد أن يقرأ الإمام عليه، فأبى الإمام لأنه لم يقرأ على أحد من قبل، ولن يقرأ على أحد، فما كان من الرشيد إلا أن قال: فتجعل من يقرأ، ونحن نسمع!. فوافق الإمام، وذهب الرشيد لمنزل مالك وسمع من تلميذ مالك، معن بن عيسى(٢) الفزاري(٣).

ومرة أخرى قدم هارون المدينة المنورة، ودعا مالكًا لقصره، قال مالك له: "منكم خرج هذا العلم، وأنتم أولى الناس بإعظامه، ومن إعظامكم له ألا تدعو حملته إلى أبوابكم". فرد هارون: "قد فعلتُ يا أبا عبد الله!"(٤).

ـ ونفس الموقف صنعه الإمام مع المهدي وأولاده، حين بعث إلى الإمام ليقرأ على أولاده: هارون وموسى، فأبى الإمام فكلمه المهدي في ذلك فأجابه الإمام: يا أمير المؤمنين، العلم يؤتى إليه، وفي رواية: "العلم أهل لأن يوقر، ويؤتى". فرد الخليفة بحكمة وأدب، قائلًا لأولاده: صدق مالك، سيرا إليه.

ولما طلب مؤدب الأولاد أن يقرأ الإمام على الأولاد بعد ذهابهم إليه أبى الإمام، وطلب منهم الجلوس مع الناس، وأن يقرأوا كما يقرأ سائر الطلاب، وبالفعل، حدث ما أراد الإمام(٥).

---

(١) المرجع السابق، "تزيين الممالك"، ص ٧٨ بتصرف، و "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٧٧.

(٢) معن بن عيسى بن يحيى بن دينار القزاز، أبو يحيى، روى عن مالك وغيره، وكان ربيب مالك ومن كبار أصحابه، وروى عنه أحمد وابن المديني وسحنون بن سعيد وغيرهم. لازم مالكـًا، بحيث لا يلفظ بشيء إلا كتبه، ثقة، كثير الحديث مأمونـًا، ثبتـًا، مات عام ١٩٨ هـ بالمدينة، ـ رحمه الله ـ. انظر "ترتيب المدارك"، ج٣، ص ١٤٨ ـ ١٥٠، و"شجرة النور الزكية.."، ج١، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٣) الزواوي، "مناقب سيدنا الإمام مالك"، ص ٧٨.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٧٥.

(٥) "تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ٤٣، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٦٣، ٦٤، و"ترتيب المدارك...."، ج١، ص ٧٥، ٧٦.

ومواقف العزة والجهر بالحق ما أفتى به مالك هارون الرشيد حين حنث في يمين، فأفتى له علماء بأن عليه عتق رقبة، فسأل هارون مالكًا، فأجابه: عليك صيام ثلاثة أيام، الرشيد: لم؟، أ أنا معدم؟. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ ﴿المائدة: ٨٩﴾، فأقمتني مقام المعدّم! قال مالك: نعم، يا أمير المؤمنين، كل ما لديك ليس لك، فعليك صيام ثلاثة أيام"(١).

لقد كان الإمام رجلًا شجاعًا، مخلصًا جادًا، وما كان متملقًا أو مداهنًا!.

٦ ـ التعرض للمحن وتحمل ذلك

إن أبرز أسباب محنة الإمام مالك أنه كان يحدث بحديث "ليس على مكَره طلاق"، أو "يمين"، ففهم والي المدينة جعفر(٢)، (وهو عم الخليفة)، أن هذا الحديث قد يتخذ حجة لبطلان بيعة الخليفة أبي جعفر المنصور، لأنها تستتبع أن من بايع العباسيين وهو مكره فله أن يتحلل من بيعته، وله أن يبايع محمد بن عبد الله(٣)، الثائر على المنصور، فاعتبر القائمون على الحكم فتوى الإمام مالك تهيئ للثورة والخروج على حكمهم، فكان الضرب والإيذاء، لكن الإمام سامح كل من آذاه من السلاطين ـ في عهد العباسيين ـ، وقد ضرب بالسياط مرة حتى غُشِيَ عليه، فحمل إلى بيته، وانخلع كتفاه، وبقي بعدها لا يستطيع رفع يديه!، فلما أفاق قال لمن حوله: "أشهدكم أني جعلت ضاربي في حل!".

وفي اليوم التالي تماثل الإمام مالك للشفاء، وأخبره الناس بما قاله من سماحته مع

(١) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ٢١٩، وانظر: فقهاء مناضلون"، ص ١٠١، ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، العباسي، الأمير، ابن عم المنصور، روى عن أبيه، وعنه ابناه قاسم ويعقوب والأصمعي وغيرهم، كان من نبلاء الملوك جوداً وبذلاً وشجاعة وعلماً، ولي المدينة ثم مكة معها، يم عُزل، فولي البصرة للرشيد، له مآثر كثيرة، توفى سنة ١٧٤هـ، وقيل ذ٧٥هـ ـ رحمه الله ـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٢٤١.

(٣) محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله، الملقب بالنفس الزكية، ثار على أبي جعفر المنصور، وعلى العباسيين، وقاتلهم، وكان شجاعاً قوياً وقتله عيسى بن ميمون العباسين ولي عهد المنصور، ـ رحمه الله ـ عام ١٤٥هـ. انظر "الأعلام": للزركلي، ج٦، ص ٢٢١، و"سير أعلام النبلاء"، ج١١، ص ٢٦٢ ـ ٢٧٢.

من آذاه، فكان رده رائعًا معلمًا: "تخوفتُ أن أموت أمس، فألقى النبيَّ ـ ﷺ ـ فأستحي منه أن يدخل بعض آله النار، بسببي!!".

وقد حُكي أن مالكًا ـ رضي الله عنه ـ كلما ضُرب سوطً قال: " اللهم اغفر لهم، فإنهم لا يعلمون"، حتى فُرغ من ضربه!.

لذا جاء عن الليث قوله: "إني لأرجو أن يرفع الله مالكًا بكل سوط درجة في الجنة":(١).

وقد مكن الخليفة أبو جعفر المنصور الإمام مالكًا من الاقتصاص من أمير المدينة جعفر، فرفض الإمام قائلًا: يا أمير المؤمنين، ليس لي عليه قصاص، لأني جعلته في حل، لأنه من قرابة رسول الله ـ ﷺ ـ، فاستحييت أن آتي يوم القيامة، متعلقًا برجل من قرابة رسول الله ـ ﷺ ـ، أطلبه بمظلمة".

لقد عفا عن هذه المظلمة، تعظيمًا لجانب رسول الله ـ ﷺ ـ، ولتعظيم أمير المؤمنين له، وتمكينه من القصاص من نائبه وابن عمه(٢).

وقد أعقب الله الإمام عواقب حسنة، جراء محنته واحتسابه الأذى في سبيل ربه، فأحبه الناس، وعظموه وقدروه، يقسم على ذلك الواقدي، فيقول: فو الله مازال مالك بعد ذلك الضرب في رفعة عند الناس، وعلو من أمره، وإعظام الناس له، وكأنما كانت تلك السياط حليًا، حُلِّيَ بها!"(٣).

وقد كان الإمام يعتز ويفخر بصبره على محنته، وإيذائه في سبيل الله، فقال: ضربتُ فيما ضُرب فيه محمد بن المنكدر، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وابن المسيب، ولا خير فيمن لا يؤذى في هذا الأمر، ويذكر قول عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: "ما أغبط أحدًا لم

(١) "ترتيب المدارك"، ج١، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٢) "مناقب سيدنا الإمام مالك"، للزواوي، ص ٧٦.

(٣) "تزيين الممالك، بمناقب سيدنا الإمام مالك"، للسيوطي، ص ١٣، و"ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٢٧.

يصبه في هذا الأمر أذى".

وقد اعتذر الخليفة أبو جعفر للإمام عما حدث له من ضرب وإيذاء، وأقسم قائلًا: والله الذي لا إله إلا هو ما أمرتُ بالذي كان ولا علمته، وإنه لا يزال أهل الحرمين بخير، ما كنتَ بين أظهرهم، وإني أخالك أمانًا لهم من عذاب الله".

وأخبر مالكًا بأنه سينزل عقوبات شديدة بمن آذاه، فرد الإمام عليه بعفوه عن المؤذي له، لقرابته من رسول الله ـ ﷺ ـ وقرابته من الخليفة، فعقب الخليفة على ذلك قائلًا: عفا الله عنك ووصلك.

وقد دخل عليه والي المدينة الذي ظلمه، ليجعله في حل، وقد اعتذر للإمام، وقال: إني جهلت واستزللت...، فسأله مالك: "هل ترى أنك قد ظلمتني"، قال الوالي: نعم، فرد عليه الإمام: فأنتَ في حل، فوسع الله عليك![1].

ويعلق الأستاذ: أمين الخولي على محنة الإمام، فيقول: "لم يبق من هذا الطغيان إلا خبر يرد في ترجمة حياة مالك الذي بقي، وذهب كل الطغاة والطغيان، مشيعين بلعنة تتكرر، كلما ذكر مالك العالم"[2].

وقد نبه الإمام إلى ضرورة تعرض الدعاة والمصلحين للأذى والفتن، وأنها سنة الله في دعوات الأنبياء، وأتباعهم، فقال: "لا تغبطوا أحدًا لم يصبه في هذا الأمر بلاء"[3].

❁❁❁

(١) " ترتيل المدارك...، مرجع سابق، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٢) الأستاذ/ أمين الخولي، "مالك، تجارب حياة"، ص ٣٠٦.

(٣) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى..."، ج٤، ص ٥٠.

موقف الإمام من قبول عطايا الحكـام

إن الإمام قد قبل عطاء السلاطين وجوائزهم، وكان له رؤية فقهيه واعية في ذلك، عبر عنها بقوله: "مال من شبهة خير من مسألة الناس"، وقد أنفق كل ماله على العلم وطلبه، فمن أين يعيش، وقد حبس نفسه على تعليم الناس وإرشادهم وإفتائهم؟!

بالإضافة إلى أن من الصحابة والتابعين من فعل مثل الإمام مالك، فهم قدوة له في ذلك، منهم الصحابي زيد بن ثابت ـ ﷺ ـ، فقد كان يقبل جوائز الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد(١)، وابن عمر ـ مع ورعه وحياطته وفضله ـ، يقبل جوائز صهره المختار(٢) بن أبي عبيد، ويأكل طعامه!.

ومثلهما كبار علماء التابعين، مثل: الشعبي(٣)، وإبراهيم النخعي(٤)، والحسن البصري(٥)، وسائر علماء الكوفة والبصرة، وابن شهاب، والشافعي، وأبو يوسف وغيرهم من فقهاء الحجاز، مثل سفيان الثوري، الذي قال كلمة رائعة في ذلك: "جوائز السلطان أحب إليَّ من صلة الإخوان، لأن الإخوان يمنون، والسلطان لا يمن!"(٦).

(١) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية الأموي، الخليفة، أبو خالد، الدمشقي، عهد له أبوه من بعده فتسلم الملك عند موت أبيه في رجب سنة ٦٠هـ، وله ٣٣ سنة، فكانت دولته أقل من أربع سنين، توفى سنة ٦٤هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٣٦ـ ٤٠.

(٢) المختار بن أبي عبيد، الثقفي الكذاب، ادعى أنه نبي، يأتيه الوحي وأنه يعلم الغيب، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٤٥ ـ ٥٢.

(٣) الشعبي: هو عامر بن شراحيل، بن عبد الله الشعبي، أبو عمرو الكوفي، ولد سنة ٢٠هـ، أو ٢١هـ كان ثقة، حافظًا، فقيهًا، خبيراً بالمغازي، له أقوال حكيمة سديدة، توفى عام ١٠٣هـ وقيل عام ٩٩هـ، انظر" سير أعلام النبلاء"، ج٤، ص ٣٠٠ـ ٣٠٢، و"حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء"، ج٤، ص ٣١١ـ ٣١٢.

(٤) النخعي: هو الإمام، الحافظ، فقيه العراق، أبو عمران، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود..، النخعي، اليماني ثم الكوفي، روى عن كثيرين وروى عنه كثيرون، كانت له هيبة وجلالة. مات ـ رحمه الله ـ بعد الحجاج، بأربعة أشهر أو خمسة، سنة ٩٦هـ، عن نيف وخمسين، وقيل غير ذلك، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٨٦ـ ٩٥.

(٥) الحسن البصري، هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، إمام أهل البصرة، ولد عام ٢١هـ وتوفى في عام ١١٠هت، انظر: تهذيب التهذيب"، ج٢، ص ٢٣١.

(٦) انظر في ذلك "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ١٠٨، ٢٠٨، و"الإمام مالك، إمام دار الهجرة"،ص ٣٥٣ ، ٣٥٤.

إن الإمام كان يرى أن للعالم حقًا في بيت المال، وأن الخلفاء إن أعطوا فإنما يعطون من المال العام، وليس من خاصة أموالهم، وكان يقول ـ أحيانًا ـ عند قبول المال: "هذا بعض حقنا، والله حسيبهم في الباقي"، والعالم له رزق في بيت المال، يستحقه، لقاء تفرغه للتعليم والتربية والفتيا، وحماية الناس من الضلال وردهم إلى الصواب، وحماية الدين وحفظ السنن دور لا يقل في الأهمية عن دور من يقاتل بسيفه في معارك الجهاد. فكان للإمام مستنده الشرعي، الفقهي في هذا الموقف(١).

ولو لم يقبل الإمام هذا الحق، قد تؤدي به الحاجة إلى ما لا يليق بأمثاله.

لذا قبل من أبي جعفر المنصور ثلاثة آلاف دينار، ليشتري مسكنًا له، وتلقى أموالًا أخرى لسداد دين عليه(٢)، وتزويج ولد له(٣)، ولما سئل عن حكم قبول العطاء، قال: أما من الخلفاء، فلاشك، (أي في قبوله)، وأما مَن دونهم فإن فيه شيئًا" .

ولما أجازه الرشيد ذات مرة، بثلاثة آلاف من الدنانير، سئل لماذا قبلها؟، فقال: "لو كان إمام عدل، فأنصف أهل المروءة لم أر به بأسًا"(٤).

فهو ما كان يقبل هدايا الخلفاء غير العدول.

ومن خلال سيرة الإمام ومواقفه، يتبين أن الإمام كان يقبل مثل هذه الهدايا وفي نفسه شيء، فلم يكن مرتاحًا إلى قبولها كل الارتياح، ولولا الضرورة وكثرة نفقاته وصدقاته ما قبلها ولذلك كان يفتي من يسأله في ذلك بعكس ما كان يفعل هو!.

أما إذا كانت الهدايا، لمساومته على دينه وعلمه، وللتفريط في قضايا الأمة، فقد كان موقف الإمام رفض الهدايا المالية، والعطيات من السلاطين والحكام، وردها بكل إباء(٥).

---

(١) "منهج مالك بن أنس في العمل السياسي"، مرجع سابق.

(٢) "حلية الأولياء"، ج٦، ص ٣٢١، و"ترتيب المدارك.."، ج١،ص ٦٩، و"فقهاء مناضلون"، ص ٨٥، ٨٦.

(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، "العقد الفريد"، ط. دار الفكر، د/ ت، ص ١٨٩.

(٤) "ترتيب المدارك..."، ج١، ص ٢١٧.

(٥) د/ مصطفى الشكعة، "الإمام مالك..."، ص ٥٨،، و"فقهاء مناضلون"، ص ٨٦،٨٥.

المراجـــــع

١. الأئمة الأربعة: د/ أحمد الشرباصي، ط. الجيل، بيروت.

٢. الأئمة الأربعة، الإمام مالك: د/ مصطفى الشكعة، ط/ ٣، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني، عام ١٩٩١م.

٣. أئمة الفقه الإسلامي: أ/ عبد الحليم الجندي، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، في سلسلة "دراسات في الإسلام".

٤. الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية: ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العكبري، ط. دار الراية، الرياض، ط/ ٢، ١٤١٨هـ.

٥. أثر العلماء في مشروع النهضة الإسلامية: د/ يحيى بن إبراهيم اليحيى، ط/ ١، مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان، الرياض، ١٤٣٢هـ.

٦. الاجتهاد المقاصدي، حجيته، ضوابطه، مجالاته: د/ نور الدين مختار الخادمي، سلسلة كتاب الأمة، رقم: ٦٥، ٦٦، ط/ ١، ١٩٩٨م، قطر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.

٧. أحاديث في ذم الكلام وأهله: أبو الفضل المقرئ، ط١، دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦م، تحقيق: د/ ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع.

٨. الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام: الإمام القرافي، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية، بحلب، باعتناء العلامة أبو غدة.

٩. أخبار أبي حنيفة وأصحابه: الصيمري، ط.٢، ١٩٧٦م، بيروت.

١٠.الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ابن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م.

١١.الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها: د/ محمد فاتح زقلام، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط ١، ١٩٩٦م.

١٢.إطراف المُسْنِد المعتَلِي بأطراف المسنَد الحنبلي: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: (دار ابن كثير- دمشق، دار الكلم الطيب- بيروت).

١٣.الأعلام: خير الدين الزركلي، ط/ ١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

١٤.الإمام بعيون مغربية: دراسة بالإنترنت.

١٥.الإمام مالك بعيون مغربية، دراسة بملتقى مؤسسة "سوس"، للمدارس العتيقة، بمدينة تارودانت، منشورة بالإنترنت.

١٦.الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة: الأستاذ/ عبد الغني الدقر،، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.

١٧.الإمام مالك، حياته آراءه، فقهه: د/ محمود عبد المتجلي، هدية مجلة الأزهر، شوال ١٤١٣هـ.

١٨.الإمام مالك، حياته، عصره، آراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة.

١٩.الإمام مالك، وأثره في علم الحديث النبوي: مشعل الحدادي، ط. مكتبة غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان.

٢٠.الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، مالك، والشافعي، وأبي حنيفة ـ ﷺ ـ: ابن عبد البر، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١.البداية والنهاية: لابن كثير، تحقيق: د/ عبد الله التركي، ط/ ١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

٢٢.تاريخ الإسلام: الإمام الذهبي، تحقيق: د/ عبد السلام تدمير، ط/ دار الكتاب العربي.

٢٣.تاريخ الأمم والملوك: الإمام الطبري،ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٢٤.التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله

(المتوفى: ٢٥٦هـ)، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.

٢٥.تاريخ دمشق: لابن عساكر، د/ ن/ ت.

٢٦.تذكرة الحفاظ، وذيوله، للإمام الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٢٧.ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي عياض، تحقيق: د/ حمد بكير محمود، ط. مكتبة الحياة، ١٩٨٥م.

٢٨.تزيين الممالك، بمناقب سيدنا الإمام مالك: للعلامة جلال الدين السيوطي، ومعه "المدونة الكبرى"، للإمام مالك بن أنس، رواية الإمام سحنون، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.

٢٩.التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد الكبرى، د/ ت.

٣٠.تنوير الحوالك، على موطأ الإمام مالك: الإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد عبد السلام، ط. دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٠م.

٣١.تهذيب الأسماء واللغات: الإمام النووي، ط. دار الكتب العلمية.

٣٢.تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م .

٣٣.الثقات: لابن حبان، البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، ط١، دار الفكر، عام ١٩٧٥م.

٣٤.جامع الأحاديث (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطى والجامع الأزهر

وكنوز الحقائق للمناوى، والفتح الكبير للنبهانى): عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف د على جمعة (مفتي الديار المصرية)، طبع على نفقة:د/ حسن عباس زكى.

٣٥.جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي،المملكة العربية السعودية،الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.

٣٦.الجواهر المضيئة في طبقات الحنيفة: لمحيي الدين عبد القادر محمد القرشي، ط. هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ.

٣٧.حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني، طبع مكتبة السعادة.

٣٨.خصائص المذهب المالكي: د/ محمد التاويل، دراسة بالإنترنت.

٣٩.دعوة للتعايش: عمرو خالد، ط١، ٢٠٠٨م، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٠.دور العقيدة في الأمن النفسي عند الإمام مالك: د/ محمد بنصر العلوي، دراسة في ندوة، "المذهب المالكي في سياقاته المعاصرة"، في الفترة من ٢٣ ـ ٢٥ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، الموافق ١٤ ـ ١٦ فبراير ٢٠١٢م، بفاس، على الإنترنت، بعنوان"ملف كامل عن: ندوة المذهب المالكي في سياقاته المعاصرة".

٤١.الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (المتوفى: ٧٩٩هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

٤٢.ذيل طبقات الحفاظ"، للذهبي، تأليف: السيوطي، ط. دار الكتاب العلمية، بيروت.

٤٣.رسائل البلغاء"، جمع: محمد كرد علي، ط. دار الكتب العربية، د/ ت.

٤٤.الروض الداني ـ "المعجم الصغير": للطبراني، ط١، المكتب الإسلامي، دار

عمار، بيروت، عمان، ١٩٨٥م.

٤٥.سرح العيون في شرح رسالة ابن خلدون: جمال الدين ابن نباتة المصري، القاهرة، ط. ١٣٨٣هـ.

٤٦.سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الحديث- القاهرة- الطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٤٧.شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.

٤٨.شرح صحيح البخاري، لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، القرطبي، ط. مكتبة الرشد، السعودية، ٢٠٠٣م.

٤٩.شرح مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط/ ٢، ١٤٢٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٠.الصارم المسلول على شاتم الرسول: ابن تيمية، ط.١، دار ابن حزم، بيروت، عام ١٤١٧هـ.

٥١.صحة أصول مذهب أهل المدينة: ابن تيمية، ط. دار الندوة الجديدة، بيروت.

٥٢.صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، ط ٢، ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٣.صحيح البخاري، دار كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م، ج٥، ص ١٩٨٨، تحقيق: د/ مصطفى البغا، جامعة دمشق.

٥٤.صفة الصفوة: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: أحمد علي، دار الحديث بالقاهرة، ط/ ١، ٢٠٠٠م.

٥٥.ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: الأستاذ/ عبد الرحمن حسن حبنكة، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م.

٥٦.طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر، ط/ ١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٥٧.الطبقات الكبرى: الإمام محمد بن سعد، تحقيق: علي محمد عمر، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط/ ١، ٢٠٠١م.

٥٨.عالم المدينة، مالك بن أنس: د/ حمزة النشرتي وآخرون، ط المكتبة القيمة، د/ ت.

٥٩.العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي، ط. دار الفكر، د/ ت.

٦٠.علم اللغة العربية: د/ محمود فهمي حجاي، ط. دار غريب للنشر والطباعة.

٦١.علماء الشريعة وبناء الحضارة: د/ عبد الله بن إبراهيم الطريقي، ط/ ١، دار المسلم، الرياض، ١٩٧٧م.

٦٢.فتح الباب في الكنى والألقاب: لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة. الأصبهاني، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، ط. مكتبة الكوثر، الرياض، عام ١٩٩٦م.

٦٣.فقهاء مناضلون، مواقف تاريخية في العلم والسياسة: د/ محمد بن إبراهيم، مراجعة وتقديم: مختار الجبالي، ط١، ٢٠١٣م، دار السلام للطباعة والنشر، والتوزيع والترجمة.

٦٤.الفكر المقاصدي عند الإمام مالك، وعلاقته بالمناظرات الأصولية الفقهية في القرن الثاني الهجري: د/ محمد نصيف العسيري، ط. مركز التراث الثقافي المغربي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٦٥.الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان- الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٦٦.كشف الأبرار عن أصول فخر الإسلام: الإمام علاء الدين البخاري، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.

٦٧.لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني، ط ٣، ١٩٨٦م، مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات، بيروت.

٦٨.مالك، تجارب حياة: الأستاذ/ أمين الخولي، ط/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، في سلسلة "أعلام العرب"، رقم (١)، عام ١٩٦٢م.

٦٩.مالك، حياته، وعصره، آراؤه وفقهه: الشيخ/ محمد أبو زهرة.

٧٠.مجموع الفتاوى: الإمام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، د/ ن/ ت.

٧١.المدونة الكبرى: الإمام مالك بن أنس، ومعها مقدمات ابن رشد، دار الفكر، ١٤٠٦هـ.

٧٢.المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل: محمد المكي الناصر، بحث مقدم لندوة الإمام مالك، إمام دار الهجرة، بوزارة الأوقاف المغربية، ط. مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

٧٣.المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته، خصائصه، وسماته: د/ محمد المختار محمد المامي، ط.١، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠٢م، عرض لرسالة ماجستير، من جامعة الإمام محمد بن سعود، قسم الفقه، عُرض لها في موقع: ملتقي المذاهب المالكية بالإنترنت.

٧٤.المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٧٥.مسند الشاميين، للطبراني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.

٧٦.مع الأئمة، الجوامع والفروق والسير: د/ سلمان العودة، ط ٢، مؤسسة الإسلام اليوم، السعودية، ١٤٢١هـ.

٧٧.معرفة الثقات: أحمد بن عبد الله العجلي، ط ١، ١٩٨٥م، مكتبة الدار، بالمدينة المنورة.

٧٨.مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها: العلامة علال الفاسي، ط/ ٤، ١٩٩١م،

مؤسسة علال الفاسي.

٧٩.مقاصد الشريعة عند الإمام مالك بين النظرية والتطبيق: د/ محمد القياتي، ط. دار السلام، ط٢، ٢٠١٢م.

٨٠.المقدمة: لابن خلدون، ط. دار الشعب، د/ ت.

٨١.مناقب سيدنا الإمام مالك: للعلامة عيسى الزواوي.

٨٢.منهج النقد في علوم الحديث: د/ نور الدين عتر، ط٣، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م.

٨٣.منهجية الإمام مالك الأصولية، الخصائص والآثار: د/ محمد بن حمدي التمسماني، بحث له في المؤتمر العلمي لدار البحوث، بدبي، إصدار المؤتمر، د/ ت.

٨٤.المنهجية في مدرسة مالك بن أنس، وفي أصول مذهبه: عبد الكريم التواتي، بحث مقدم للندوة التي أقامتها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، عن الإمام مالك، مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

٨٥.موطأ الإمام مالك، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩١م، تحقيق: د/ تقي الدين الندوي.

٨٦.ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين الذهبي، ط ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٧.نظرية عدم الخروج على الحاكم في الإسلام،الإمام مالك نموذجًا: دراسة بالإنترنت.

٨٨.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت- الطبعة: ١٩٩٤م.

❁❁❁

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة: أهمية الدراسة، وخطة البحث	٢٧١
التمهيد: سيرة الإمام من ناحية مولده وأسرته وصفاته ووفاته	٢٧٥
المبحث الأول: طلب الإمام للعلم، وأبرز شيوخه وإعدادهم له	٢٩٣
المبحث الثاني: اكتساب الإمام مالك مؤهلات الإمامة والريادة	٣٣٣
المبحث الثالث: منهجه في توريث العلم، وإعداد العلماء	٣٨٥
المبحث الرابع: منهج الإمام في النصح لأولي الأمر في عصره	٤٧٨
الخاتمة	٥١٣
فهرس المصادر والمراجع	٥١٤
فهرس الموضوعات	٥٢٢